شرح نظم الشيخ أحمد عرب الشرنوبي

المسمى

تأييد السلوك إلى ملك الملوك

تأليف العلامة

الشيخ عبد المجيد الشرنوبي الأزهري

المكتبة العصرية

صيدا - بيروت

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى

٢٠١١م - ١٤٣٢هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو بالتصوير أو التسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

E. Mail
alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

ISBN 978 - 614 - 414 - 203 - 5

رأسه ويغرزها من ورائه ويرخي لها ذؤابة بين كتفيه، وقوله: **(وللناس في خير الورى)** أي: الخلق، وهو النبي صلى الله عليه وسلم **(خير)** أي: أعظم **(أسوة)** بضم الهمزة وكسرها أي: اقتداء قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21].

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

53 | **وَخَيْطاً وَمِخْيَاطاً ومُوسىً وَسُبْحَةً وَمَا كَانَ مُحْتَاجاً إِلَيْهِ لِفِطْرَةِ**

أي: **(و)** من آداب المريد أن يتخذ **(خيطا ومخياطا)** بكسر فسكون أي: إبرة لأن شرط الفقير الصادق أن لا يكون عنده إلا ثوب واحد، فيحتاج إلى مصاحبة ما ذكر لئلا يتخرق منه فتفسد عليه صلاته إذا انكشفت عورته، فيستغني بذلك عن سؤال الناس لأن سؤالهم داء عضال للمريد، وما ألطف قول الصفي الحلي:

لا تكن طالبا لما في يد النا س فَيَزَّوَّرُ عن لقاك الصديق
إنما الذل في سؤالك للنا س ولو في سؤال أين الطريق

ويتخذ أيضا **(موسى)** لتحسين هيئته وحلق عانته، ويتخذ أيضا **(سبحة)** بضم السين المهملة لأجل الذكر، فإنها تذكره ذلك، وهي من شعار الصالحين، كما قال بعضهم فيها:

ومنظومة الشمل يخلو بها اللـ ـبيب فتجمع من همته
إذا ذكر الله جل اسمه عليها تفرق من هيبته

وقيل للجنيد: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟ فقال: طريق به وصلت إلى ربي لا أفارقه، يعني أنه لم يزل ملازما على ما اعتاده في بدايته من الأوراد فإن المدد في مداومتها، وهي مجموع الأذكار والأدعية ونوافل الخيرات، كما قال سيدي إبراهيم الدسوقي: ما قطع مريد ورده يوما إلا قطع عنه الإمداد في ذلك اليوم، فإن طريق القوم تحقيق وتصديق وعمل وتنزه وغض بصر وطهارة يد وفرج ولسان، فإن خالف شيئا من ذلك رفضته الطريق ولو كرها، اهـ.

وبقي مما يلزم المريد اتخاذه أمورا منها السواك وهو عود الأراك، الذي قال فيه بعضهم:

بـاللـه إن جـزت بـوادي الأراك وقـبـلـت أغـصـانـه الـخـضـر فـاك
فابعث إلى المملوك من بعضها فـإنـنـي والـلـه مـا لـي سـواك

وله فضائل كثيرة. ومنها المشط لتسريح الشعر، وينبغي أن يبدأ في تسريح لحيته بالجانب الأيمن ويقرأ الفاتحة، ثم يقرأ ألم نشرح عند تسريح الأيسر، وقل هو الله أحد عند تسريح الأسفل، فإنه يرى الفتح العظيم والتيسير الجسيم. ومنها العكاز فإن حمل العصا من شعار الصالحين، لأنهم دائما مسافرون إلى الآخرة، كما قال بعضهم:

حملت العصا لا ضعف أوجب حملها علي ولا أني تحنيت من كبر
ولكنني ألزمت نفسي حملها لأعلمها أني المقيم على سفر

ولعله أدخل ذلك في قوله: **(وما كان محتاجا إليه لفطرة)** بكسر الفاء وسكون الطاء المهملة. قال الكرماني: الفطرة السنة القديمة التي اختارها الأنبياء، واتفقت عليها الشرائع، فكأنه أمر جبلي فطروا عليه، أي: خلقوا عليه. وقال ابن العربي: الفطرة أصل الخلقة. وعلى كل فالمراد بها هنا خصال يكمل بها الإنسان.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

54 | وَيَعْتَزِلُ الْخَلْقَ الْجَمِيعَ وَفِعْلَهُمْ كَذَاكَ وُلاَةَ الأَمْرِ فِي دَار دُنْيَةِ

أي: **(و)** من أركان الطريق أن **(يعتزل)** المريد **(الخلق)** الذين لا خير فيهم **(جميع)**هم ويترك **(فعلهم)** خصوصا **(ولاة الأمر)** الذين تولوا شيئا من أمور الدنيا الدنية فإن الخلطة بهم مبعدة عن التقرب إلى رب البرية.

وقد حكي أن الخليفة المنصور لقي سفيان الثوري فقال: ما يمنعك أن تأتينا يا أبا عبد الله؟ فقال: إن الله سبحانه نهانا عنكم، حيث يقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: 113]. ودخل عليه يوما وقد أرسل إليه فقال له: سل حاجتك، فقال: أو تقضيها؟ قال: نعم، قال: حاجتي أن لا ترسل إلي حتى آتيك، ولا تعطني شيئا حتى أسألك، ثم خرج، فقال المنصور: ألقينا الحب للعلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان.

وما ألطف قول بعضهم:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

وكتب سفيان إلى عابد من العباد يقول له: اعلم يا أخي أنك في زمان كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذون أن يدركوه، ومعهم من العلم ما ليس معنا، ولهم من القدم ما ليس لنا، فكيف بنا حين أدركناه على قلة العلم، وقلة الصبر، وقلة الأعوان على الخير، وفساد من الزمان، فعليك بالخمول، فإن هذا زمان خمول، وعليك بالعزلة وقلة مخالطة الناس، وقد كان الناس إذا التقوا انتفع بعضهم ببعض، فأما اليوم فقد ذهب ذلك، فالنجاة الآن في تركهم فيما ترى، وإياك يا أخي والأمراء أن تدنو منهم أو تخالطهم في شيء من الأشياء، ويقال لك تشفع أو تدرأ عن مظلوم أو ترد مظلمة، فإن ذلك من خديعة إبليس، وإنما اتخذ ذلك القراء سلما للقرب منهم واصطياد الدنيا بذلك.

وكان يقول للمهدي: احذر من هؤلاء الأعوان والمترددين عليك من الفقراء والفقهاء فإن هلاكك على أيديهم، يأكلون طعامك ويأخذون دراهمك ويغشونك ويمدحونك بما ليس فيك. ونصح يوما إنسانا رآه في خدمة الولاة فقال: فما أصنع بعيالي؟ فقال: ألا تسمعون لهذا؟ يقول: إنه إذا عصى الله رزق عياله، وإذا أطاعه ضيعهم.

وكان يقول: إذا رأيتم العالم يلوذ بباب السلطان فاعلموا أنه لص، وإذا رأيتموه يلوذ بباب الأغنياء فاعلموا أنه مراء. وكان يقول: هذا زمان لا يأمن فيه الخامل على نفسه، فكيف بالمشهور فيه؟. وكان يقول: هذا زمان عليك فيه بخويصة نفسك ودع العامة، اهـ.

وما ألطف قول بعضهم يمدح العزلة:

أخص الناس بالإيمان عبد خفيف الحاذ مسكنه الغفار
له في الليل حظ من صلاة ومن صوم إذا طلع النهار
وقوت النفس يأتيها كفافا وكان له على ذاك اصطبار
وفيه عفة وبه خمول إليه بالأصابع لا يشار
فذلك قد نجى من كل شر ولم تمسسه يوم البعث نار

والحاذ بتخفيف الذال المعجمة الظهر. وحكي أنه وجدت تحت وسادة الغزالي هذه الأبيات:

كنت عبد والهوى حاكمي ... فصرت حرا والهوى خادمي
وصرت بالعزلة مستأنسا ... من شر أنواع بني آدم
ما في اختلاف الناس خير ولا ... ذو الجهل بالأشياء كالعالم
يا لائمي في تركهم جاهلا ... عذري منقوش على خاتمي

فنظروا فإذا نقشه: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: 102]ولبعضهم:

نصحتك لا تغترر بالمقال ... فرب فعال أنت بالنقيض
ولا يخدعنك بشر الوجوه ... فإن الصواعق تحت الوميض
ويا طالما كان في العائدين ... خليل تمنى وفاة المريض

وما ألطف قول بعضهم:

لا تركنن إلى ذي منظر حسن ... فرب رائقة قد ساء مخبرها
ما كل أصفر دينار لصفرته ... صفر العقارب أرداها وأنكرها

وما أصدق قول بعضهم:

من لم يكن في الله خلته ... فخليله منه على خطر

وللصفدي:

وجدت في عشرة صحبي أذى ... لما لزمت البيت في الوقت زال
يا عجبا من أشعري غدا ... يحمد رأى الناس في الاعتزال

وقال بعضهم:

لا أرى كثرة التصادق إلا ... تعب القلب في اقتضاء الحقوق
فاصرف الود عن كثير من النا ... س فما كل من ترى بصدوق

وقال آخر:

عذيري من الإنسان ما إن جفوته ... صفا لي ولا ان صرت طوع بنانه
وإني لمشتاق إلى ظل صاحب ... يروق ويصفو إن كدرت عليه

وما ألطف قول الصفي الحلي:

وليس صديقا من إذا قلت لفظة يحاول في أثناء موقعها أمرا
ولكنه من لو قطعت بنانه توهمه قصدا بمصلحة أخرى

ولعزة الأخ المشاكل، اتضح قول القائل:

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

ولله ذر أبي المواهب الشاذلي حيث قال:

تغير إخوان هذا الزمان فكل خليل عراه الخلل
وكانوا قديما على صحة وقد داخلتهم حروف العلل
قضيت التعجب من أمرهم فصرت أطالع باب البدل

وكان يقول: إياك وعثرة اللسان عند بعض الأصدقاء، فقد أصيب من هذا الباب خلق كثير لثقتهم بأصدقائهم وما علموا أنهم جعلوا ذلك سلاحا لوقت العداوة، فإياك ثم إياك اهـ. وأخذ بعضهم هذا المعنى فقال وأجاد:

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مره
فلربما انقلب الصديق فكان أدرى بالمضرة

وفساد الزمان يوجب شكر من كان شره مقطوعا، وإن كان خيره ممنوعا.

كما قال المتنبي:

إنا لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال

فعليك أيها العاقل بتجنب الأشرار، وصحبة الأخيار، إن كانوا على حد ما قيل:

أحب من الإخوان كل مواتي وكل غضيض الطرف عن عثراتي
يوافقني في كل أمر أريده ويحفظني حيا وبعد وفاتي
فمن لي بهذا ليت أني أصبته فقاسمته ما لي من الحسنات

أو على حد ما قيل:

اصحب من الأخوان من وده أصفى من الياقوت والجوهر
ومن إذا سرك أودعته لم يذكر السر إلى المحشر

ومن إذا غيبت عن عينيه أقلقه الشوق لم يصبر
ومن إذا أذنبت ذنبا أتى معتذرا عنك ولم يهجر

وقليل ما هم، وإن أتعبت نفسك لا تراهم، فاحتبس نفسك في زاوية العزلة، فإن عزلة المرء عزله، ولقد أنصف من قال:

هم الناس والدنيا ولابد من قذى يلم بعين أو يكدر مشربا
ومن قلة الإنصاف أنك تبتغي الـ مهذب في الدنيا ولست المهذبا

وينبغي أن تكون العزلة بعد التحقيق بالعلم والزهد، فإنها بغير عين العلم زلة، وبدون زاي الزهد علة، ويلزم المريد أن يقصد باعتزاله عن الخلق سلامتهم من شره، فإن من استصغر نفسه كان من المتواضعين، ومن رأى لها مزية على غيره كان من الهالكين، وقد أشبعنا الكلام على هذا المبحث في كتابنا: «تحفة العصر الجديد»، فعليك به إن أردت المزيد. ومن النصائح في التحذير من الدنيا الدنية قول بعضهم:

يا مولعا بالأماني غير معتبر كيف الإقامة والدنيا على سفر
لا تركنن إلى دار الغرور ولا تسكن إلى وطن فيها ولا وطر
وسالم الناس تسلم من مكائدهم مسلما لقضاء الله والقدر
كم منحة بدرت ما كنت تأملها ومحنة لم تكن منها على حذر

وقال آخر:

ألم تر أن المرء طول حياته معنى بأمر لا يزال يعالجه
يدور كدود القز ينسج دئما ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

وقال أبو العتاهية:

عش ما بدا لك سالما في ظل شاهقة القصور
يسعى إليك بما اشتهيت لدى الرواح وفي البكور
فإذا النفوس تغرغرت بزفير حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنا ما كنت إلا في غرور

وللسيد الرضى:

ما أسرع الأيام في طينا تمضي علينا ثم تمضي بنا
في كل يوم أمل قد نأى مرامه عن أجل قد دنا
أنذرنا الدهر وما نرعوي كأنما الدهر سوانا عنى
فعابث والموت في جده ما أوضح الأمر وما أبينا

وقال التهامي:

تنافس في الدنيا غرور وإنما تصارع غناها أن تعود إلى الفقر
وإنا لفي الدنيا كركب سفينة نظن وقوفا والزمان بنا يجري

وما ألطف قول بعضهم:

ألا إنما الدنيا كأحلام نائم وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل إذا ما نلت بالأمس لذة وأفنيتها هل أنت إلا كحالم

ومما ينسب إلى الإمام علي كرم الله وجهه:

إن الذين بنو فطال بناؤهم واستمتعوا بالمال والأولاد
جرت الديار على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد

ولما سئل رضي الله عنه في أيام شيخوخته عن حاله فقال: هو ذا أموت قليلا قليلا. وكان يقول: إذا أدركت الدنيا الهارب منها جرحته، وإذا أدركت الطالب لها قتلته. وكان يقول: سرور الدنيا أن تقنع بما رزقت، وغمها أن تغتم لما لم ترزق.

وكان بعض العارفين يقول: ما أصنع بدنيا إن بقيتُ لم تبق لي وإن بقيتْ لم أبق لها. وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن تعرف قدر الدنيا فانظر عند من هي. وقال بعض العارفين: دخلت المارستان فرأيت مجنونا مقيدا فوقفت عنده متفكرا، فقال: يا أخي ! لا تفكر فالدنيا إن حلت أنحلت، أو جلت أوجلت، أو حلّت أوحلت، أو كست أوكست، أو هنت أوهنت، فالسعيد من خرب رباعها وإن مدت إليه باعها باعها، كم من قبور تبنى ولا تبنا، وكم من مريض عدنا ولا عدنا، يا مغرا بالسلامات كم من عاشق سلا مات، وكم من ملك دقت له الطبول ونشرت على رأسه العلامات فلما علا مات، فلما سمعت كلامه اتعظت به، وقلت في نفسي: أنا المجنون، ثم حول رأسه علي وجعل يخلط كلامه.

ومن كلام بعض البلغاء: الدنيا إن أقبلت بلت، أو أدبرت برت، أو أطنبت نبت، أو أركبت كبت، أو أبهجت هجت، أو أسعفت عفت، أو أينعت نعت، أو أكرمت رمت، أو عاونت ونت، أو ماجنت جنت، أو سامحت محت، أو صالحت لحت، أو واصلت صلت، أو بالغت لغت، أو وفرت فرت، أو زوجت وجت، أو نوهت وهت، أو ولهت لهت، أو باسطت سطت.

ولله در القائل:

من نال من دنياه أمنية أسقطت الأيام منها الألف

وقال آخر:

ألا يا نفس إن ترضي بقوت فأنت عزيزة أبدا غنية
دعي عنك المطامع والأماني فكم أمنية جلبت منية

ومن حكم سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: الدنيا ثلاثة أيام؛ يوم مضي وليس بيدك منه شيء، ويوم يأتي لا تدري أتدركه أم لا، ويوم أنت فيه فاغتنمه.

وما ألطف ما قيل:

إنما هذه الحياة متاع والغرور الغرور من يصطفيها
ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

وقال بعضهم: الدنيا ساعة فاجعلها طاعة.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

55 | وَلاَ يَلْتَفِتْ يَوْماً إِلَى غَيْرِ شَيْخِهِ فَذَلِكَ وَصْفٌ مُوجِبٌ لِلْقَطِيعَةِ

أي: ينهى مريد التربية الصادق على الهمة عن أن **(يلتفت يوما)** أو بعضه **(إلى غير شيخه)** المستجمع للخصال الحميدة شرعا، وهو شيخ التربية، **(ف)** إن **(ذلك)** الالتفات إلى شيخ آخر **(وصف)** قبيح **(موجب للقطيعة)** عن الحصول على ما به الوصول، وأما إذا كان الشيخ من الذين قيل فيهم من بعض واصفيهم:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها

فلا يكون له هذا الحكم، ولذا قال الإمام الشعراني في الأنوار القدسية: احذر أن تقتصر على شيخ واحد في هذا الزمان فإنه تحجير عليك، وقلة نفع لك، بل اعتقد في كل شيخ يحصل لك الخير على يديه، وإنما كان أهل العصر الخالي يقيدون بذلك على تلامذتهم، لأنهم كانوا أولياء عارفين بالله وبالأحكام حتى لو فقدوا الجواب من طريق النقل أجابوا من طريق الكشف، وأما مشايخ هذا الزمان فليس معهم من العلم اللدني شيء، اهـ.

وقال الإمام الغزالي: إن متصوفة أهل هذا الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزي والمنطق والهيئة والسماع والرقص والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمتفكر وتنفس الصعداء وخفت الصوت في الحديث إلى غير ذلك، فظنوا بذلك أنهم منهم فلم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، وكل ذلك من أوائل منازل المتصوفة، ولو فرغوا جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم من الصوفية، كيف ولم يحرموا أحوالها قط بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون في الفلس والرغيف والجبة، ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بعضهم أعراض بعض، وليسوا من الرجال بل هم أعجز من العجائز في المعارف، فإذا كشف عنهم الغطاء فوا فضيحتاه على رؤوس الأشهاد.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

56	وَإِغْضَاضُهُ لِلطَّرْفِ حَالَ جُلُوسِهِ لَدَيْهِ وَفِي حَالاَتِ أُنْسٍ وَوَحْشَةِ

أي: ويجب على المريد **(إغضاض الطرف)** بسكون الراء، أي: البصر، بمعنى أنه يحبس بصره عن النظر إلى شيخه **(حال جلوسه لديه)** أي: عنده إجلالا له ويستصحب ذلك في جميع الحالات، لا فرق بين حالة الأنس التي من شأنها أن ترتفع فيها الحشمة لحصول الانبساط بالمحبوب، ولا بين حالة الخلوة عن الناس، فيلزمه مراعاة هذا الأدب في جميع الحالات، فإنه يرقى بذلك في طريق القوم أعلى الدرجات.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

57	وَيَرْفَعُ تَوْقِيراً كَبِيراً لِسِنِّهِ كَذَا فَاضِلاً عَنْهُ وَلَوْ ابْنَ لَيْلَةِ

أي: ويجب على المريد أن يرفع قدر الكبير في السن لأجل توقيره، أي: تعظيمه، فقوله: «**توقيرا**» مفعول لأجله مقدم على المفعول به الذي هو «**كبيرا**». وفي الحديث: «**ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا**» وقال صلى الله عليه وسلم: «**من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم**» وورد: «**ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه**».

وقوله: (**كذا فاضلا**) أي: وكذا يجب على المريد أن يرفع فاضلا، أي: زائدا في الفضل عنه (**ولو**) كان (**ابن ليلة**) واحدة لأن الله سبحانه يخص بفضله من شاء، ولا يتوقف فضله على عمل ولا على طول أجل، فإن السعادة قبل الولادة. وقد قيل: إن أبا يزيد البسطامي كان إذا أكلت أمه طعاما فيه شبهة لا يقبل ثديها في ذلك اليوم.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

58	وَيَرْفَعُ أَبْنَاءَ الطَّرِيقِ وَيَتَّصِفْ بِأَوْصَافِهِمْ يَسْمُو بِنَفْسٍ زَكِيَّةِ

أي: (**و**) من الواجب على المريد أنه (**يرفع**) أي: يعظم (**أبناء الطريق**) الواصلين المتصفين بمكارم الأخلاق (**ويتصف**) بالسكون لأجل الوزن، أي: يتخلق (**بأوصافهم**) المحمودة فإنه عند ذلك (**يسمو**) أي: يعلو إلى مقام الأبرار (**بنفس زكية**) أي: طيبة طالبة لمرضاة العزيز الغفار.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي يقول: الفقراء كالملوك، فمن لم يعرف أدب الملوك لا ينبغي له مجالستهم، لأنه ربما جره عدم احترامهم إلى العطب.

وقال أبو مدين الغوث:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا هم السلاطين والسادات والأمرا
فاصحبهمو وتأدب في مجالسهم وخل حظك مهما قدموك ورا
واستغنم الوقت واحضر دائما معهم واعلم بأن الرضا يأتي لمن حضرا

قال بعض المريدين لأستاذه: متى نصل إلى مقامك يا سيدي؟ فقال له: حتى يصير أقل إخوتك الفقراء عندك في منزلتي، يشير إلى أن تعظيم مقام المريدين، واسطة انتظام هذا العقد الثمين. ولذا **قال المصنف رضي الله عنه**:

59	فَتَعْظِيمُهُمْ أَجْرٌ وَتَحْقِيرُ نَفْسِهِ وَإِنْصَافُهُمْ مِنْهَا جَدِيرٌ بِجَنَّةِ

أي: فتعظيم أبناء الطريق سبب للأجر والثواب، لأنه في الحقيقة تعظيم للملك الوهاب، **(وتحقير نفسه)** أي: المريد بأن يعدها أمرا حقيرا **(وإنصافهم)** أي: أبناء الطريق **(منها)** أي: من نفسه بأن يعترف لهم بحقوقهم عليها **(جدير)** أي: حقيق **(بجنة)** والمراد أن من فعل هذه الخصال، كان من السابقين الحائزين في الجنة مراتب الكمال.

"تنبيه": كان سيدي إبراهيم الدسوقي يقول: لا يكون الفقير فقيرا حتى يكون حمالا للأذى من جميع الخلق إكراما لمن هم عبيده سبحانه وتعالى، فلا يؤذي من يؤذيه، ولا يتحدث فيما لا يعنيه، ولا يشمت بمصيبة، ولا يذكر أحدا بغيبة، ورعا من المحرمات، موقوفا عن الشبهات، إذا بلي صبر، وإذا قدر غفر، غضيض الطرف، يعمر الأرض بجسده، والسماء بقلبه، طريقه الكظم والبذل والإيثار والعفو والصفح والاحتمال.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

60	وَبَرُّهُمُو إِنْ تَسْتَطِعْهُ فَوَاجِبٌ وَإِنْقَاذُهُمْ مِنْ كُلِّ ضَيْق وَشِدَّةِ

يعني أن بر أبناء الطريق بمعنى التوسعة عليهم، والإحسان إليهم، واجب في طريق القوم مع الاستطاعة، وكذلك يجب إنقاذهم، أي: تخليصهم من كل ضيق اعتراهم وشدة نزلت بهم، لما في الحديث: «**من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه**» فقم أيها المريد بما يلزم الإخوان، وبادر بما يخلصهم من الشدة إن كنت من أهل العرفان، ولا تكن كمن قيل فيه من بعض واصفيه:

إذا كنت في اليسر لا ترتجي ولا لك فضل ولا توسعة
فما أنت إلا كمن لم يكن وإن كنت ذا ضيعة واسعة

ولا كمن قيل فيه، عند عيادة أخيه:

لما مرضت زارني من ليس معه خردلة
تعسا له من زائر وعائد بلا صلة

بل كن كصاحب هذه الفضيلة التي تقر بها العين، وهي أن بعض الظرفاء مرض فكتب إلى السلطان هذين البيتين:

انظر إلي بعين مولى لم يزل يولي الندى وتلاف قبل تلافي
أنا كالذي احتاج ما يحتاجه فاغنم دعائي والثناء الوافي

فحضر السلطان إلى عيادته بنفسه وأتى إليه بألف دينار، وقال له: أنت الذي، وهذه الصلة، وأنا العائد، ولا يخفى ما في قوله: «**وأنا العائد**» من حسن التورية، فإنه يحتمل أنه عائد الموصول وهو «**الذي**»، وأنه من العيادة وأنه من العود بالصلة مرة أخرى، وفي الحديث الشريف أن من موجبات المغفرة إدخالك السرور على أخيك المسلم.

ومن جملة بر الإخوان المصافحة كلما لقيهم، لما في الحديث: «**إذا تصافح المسلمان لم تفترق أكفهما حتى يغفر لهما**». ومن جملة برهم ملاقاتهم بالترحيب وطلاقة الوجه لما في الحديث: «**إن للقادم دهشة فتلقوه بالترحاب**». ومن جملة برهم أن يفرش لهم شيئا يقيهم من التراب لما في الحديث: «**إذا زار أحدكم أخاه فألقى له شيئا يقيه من التراب وقاه الله عذاب النار**». ومن جملة برهم التفسح لهم في المجالس لما في الحديث: «**إن للمسلم حقا إذا رآه أخوه أن يتزحزح له**».

ومن آداب الصحبة السؤال عن اسم الصاحب واسم أبيه، لما في الحديث: «**إذا آخيت رجلا فاسأله عن اسمه واسم أبيه فإن كان غائبا حفظته وإن كان مريضا عدته وإن مات شهدته**». ورد «**إذا أحب أحدكم أخاه في الله فليعلمه فإنه أبقى للألفة وأثبت في المودة**».

وقد قسموا الصحبة إلى ثلاثة أقسام؛ صحبة مع من هو أعلى وهي في الحقيقة خدمة له، وصحبة مع من هو أدنى وهي تقضي على المتبوع بالشفقة والرحمة وعلى

التابع بالوفاق والحرمة، وصحبة الأكفاء والنظراء وهي مبنية على الإيثار والفتوة، والتغابي أي التغافل عن زلات الصديق فإن ذلك من مقتضيات الأخوة، على حد ما قيل:

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

واعلم أنه ينبغي الاستكثار من الإخوان الأخيار، لما في الحديث: «**استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة يوم القيامة**» وقال صلى الله عليه وسلم: «**رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس وأن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة وأن أهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة وأن صنائع المعروف تقي مصارع السوء**». وقال الإمام الشافعي: لولا صحبة الأخيار، ومناجاة الحق بالأسحار ما أحببت البقاء بهذه الدار. وقال الإمام الشاذلي: عليك بصحبة الفقراء فإنه لو لم يكن إلا أخذهم بيدك يوم القيامة مع ما يحملون عن أصحابهم في دار الدنيا من المصائب لكان في ذلك كفاية.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

61 | إِذَا حَازَ هَذَا الوَصْفَ أَعْنِي جَمِيعَهُ فَبَشِّرْهُ بِالْقُرْبِ السَّنِيِّ لِحَضْرَةِ

يعني **(إذا حاز)** المريد **(هذا الوصف)** أي: الأوصاف السابقة لأن «**ال**» في «**الوصف**» للجنس فيشمل جميع ما تقدم من الأصول والأركان والآداب، ولذا قال **(أعني جميعه)** أي: جميع ما سبق، **(فبشره)** أي: فبشر هذا المريد الصادق **(بالقرب السني)** نسبة إلى السناء بالمد، أي: الرفعة وهو قرب معنوي لكونه **(لحضرة)** الله جل وعلا.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

62 | وَيَظْفَرُ بِالدَّارِ التِي عَزَّ وَصْفُهَا وَفِيهَا البُدُورُ الغِيدُ أَسْقَتْ وَغَنَّتِ

أي: ويفوز هذا المريد الصادق **(بالدار)** الآخرة وهي الجنة، وإنما قال: **(التي عز وصفها)** لأن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فلا يمكن **(وصفها)** حقيقة تفصيلا إلا بعد المعاينة، وأما وصف ما فيها على سبيل

الإجمال فهو ممكن، ولذا قال: **(وفيها البدور)** أي: الحور العين التي تشبه البدور أي: الأقمار في الحسن وهذا على سبيل التقريب، وإلا فقد ورد «**إن الحوراء لو برزت أنملة من أناملها إلى دار الدنيا لغلب ضوءها على ضوء الشمس**»، وقوله: **(الغيد)** بكسر الغين المعجمة، أي: الناعمات في لين، يقال: امرأة غادة، أي: ناعمة لينة، وقوله: **(أسقت)** أي: ناولت الإناء الذي يستقى منه، يقال: سقيته وأسقيته يأتي ثلاثيا ورباعيا، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: 21] ومن الثاني قوله تعالى: ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16]، وقوله: **(وغنت)** من الغناء بالكسر والمد، وهو الصوت الذي فيه ترنم يحصل به الطرب، وأما بالكسر والقصر فهو اليسار، وفي الحديث «**إن الحوار العين يغنين أزواجهن في الجنة بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الحور الحسان خلقن لأزواج كرام**».

"**فائدة**": سئل بعضهم عن سماع الغناء بالألحان المطربة عند الذكر أو بعده، فقال: قد حرمه من لا ينكر عليه لصدق مقاله، وأباحه من لا يعترض عليه لقوة حاله، فمن كان عنده شيء من نور المعرفة فليتقدم، وإلا فالوقوف عند ما له الشارع أولى وأسلم، والله أعلم.

وسئل بعضهم عن جماعة يجتمعون وينشد لهم المنشد أبياتا في المحبة وغيرها، فمنهم من يتواجد حتى يصير كأنه يرقص، ومنهم من يصيح ويبكي، ومنهم من يغشاه شبه الغيبة عن حواسه، فأجاب بقوله:

الرقص نقص والسماع رقاعة وكذا التواجد خفة في الرأس
والله ما رقصوا لطاعة ربهم بل للذي طحنوه بالأضراس

وقال بعضهم في ذلك:

صوفية الوقت فيهم من البراغيث قرب
فيهم خصال ثلاث أكل ورقص ودب

والصحيح أنه لا بأس بسماع الإنشاد المحرك للأحوال السنية، الخالي عما يوجب الخروج عن حد الشريعة المطهرة المرضية، إذا كان السامع من أهل هذه المراتب الثلاث فإنهم قسموا أهل السماع إلى ثلاثة أقسام: منهم من يشاهد الوعيد فيرهب، ومنهم من يشاهد الوعد فيرغب، ومنهم من يشاهد الحق فيطرب، ولا لوم

على من بلغ هذه المقامات، إذا تواجد مما سمع من النغمات، فقد حكي أن سفيان الثوري سمع من يقول:

أتوب إلى الذي أضحى وأمسى وقلبي يتقيه ويرتجيه
تشاغل كل محبوب بشغل وشغلي في محبته وفيه

فجعل يبكي ويتواجد ويكرر قوله: وشغلي في محبته وفيه. وحكي أن ذا النون المصري لما دخل بغداد دخل عليه جماعة ومعهم قوال، فاستأذنوه أن يقول شيئا، فأذن له فأنشد:

صغير هواك عذبني فكيف به إذا احتنكا
وأنت جمعت من قلبي هوى قد كان مشتركا
أما ترثى لمكتئب إذا ضحك الخل بكى

فطاب قلبه وتواجد حتى سقط على جبهته وتقاطر منها الدم. وسمع الشبلي قائلا يقول:

أسائل عن سلمى فهل من مخبر يكون له علم بها أين تنزل

فزعق وقال لا والله ما في الدارين مخبر، وكان المصنف يتواجد إذا سمع المنشد يقول:

رعى الله أياما تقضت بقربكم فما كان أهناها وأحلى وأطيبا

وكان شيخ الشيوخ صدر الدين ممن يحب السماع وكان له قوال وحيد في صناعة الغناء، فوقعت منه هفوة وتقصير في خدمة الفقراء، فطرده وهجره عاما، وأحضر قوالا غيره، فلما ضاق به الحال جاء مستخفيا إلى الرباط بعد أن اجتمع فيه الشيخ وجماعته، وأنشأ يقول:

جئت مستخفيا وقد عرفوني ها أنا تائب فهل يقبلوني
أنا بالباب واقف لي دهر كلما رمت وصلهم أبعدوني
أبعدوني وقربوا الغير دوني ولهذا أموت من غير حين
لم أكن للوصال أهلا ولكن أنتموا في الوصال أطمعتموني
كنت إن جئت قيل أهلا وسهلا وأنا اليوم يغلق الباب دوني
فاجبروا كسر مذنب قد أتاكم يرتجي عفوكم بكم فارحموني

في بحار الهوى غرقت بوجدي طال شوقي لهم وقد تركوني
أيها النفس ساعديني ونوحي ويح قلبي أحبتي هجروني

فطاب شيخ الشيوخ عند ذلك، وقام وسط الحلقة إلى أن وصل إليه، وأخذ بيده وأجلسه على سجادته وخلع عليه، وطاب القوم وكانت ليلة عظيمة، فلا يصلح السماع إلا لمن كان قلبه حيا ونفسه ميتة، وأما من كان قلبه ميتا ونفسه حية فلا، وكل هذا ما لم يكن المنشد أمرد تنجدب النفوس إليه، وإلا كان المنع متفقا عليه.

وقد سئل بن سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن فقال: ميعاد ما بيننا أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن صعقوا كانوا من الصادقين.

وسئل الشبلي عن السماع فقال: ظاهره فتنة، وباطنه عبرة، فمن عرف الإشارة من الكلام حل له استماع العبرة وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية، اهـ.

والحاصل أن السماع عندهم لا يكون مباحا إلا بشروط؛ منها أن يكونوا في مكان لا يطلع عليهم فيه غيرهم، وأن يكون القوال ملتحيا، وأن يكون كلامه مما تقوى به قلوبهم على السير إلى الله تعالى بالترقي إلى المقامات العلية، وأن يكون بغير أجرة، وأن لا يكون معهم شبان، وأن يكون سماعهم مع السكون والأدب لا مع الحركة والرقص وضرب الأرض بالأقدام لإظهار التواجد ولا سيما إذا كان ذلك في المساجد على الطريقة المعلومة الآن مع رفع الصوت بالألحان المهيجة للشهوات، وتمايل الأمرد الجميل بالحركات والسكنات، فإن ذلك حرام بإجماع المسلمين، ولا يقول بحله إلا من ابتدع أو تزندق أو كان من الضالين المضلين، خصوصا إذا اجتمع مع ذلك التصفيق، أو الضرب على مثل الدف في المسجد الذي جعلوه على طريقهم كالطريق، مع أنه ينزه عن رفع الصوت المشوش على المصلين حتى بالقرآن الكريم، فإن دام هذا فلا يسعنا إلا أن نرفع أكف الشكوى لله فنقول: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 16].

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

63 يُشَاهِدُ أَقْمَاراً بِهَا وَعرَائِسَا ويَشْرَبُ مِنْ كَأْسِ الْهَنَا والْمَسَرَّةِ

أي: **(يشاهد)** هذا المريد الواصل إلى درجات الكمال، **(أقمارا)** في الجنة **(وعرائس)** في غاية الحسن والجمال، ولعله أراد بالأقمار الولدان، وبالعرائس الحور الحسان. وقد روي أن الواحدة من الحور العين تلبس سبعين حلة ومع ذلك يرى مخ ساقها من وراء الحلل من الحسن، وللمؤمن في الجنة سبعون حورية أو أكثر على حسب مراتب الأعمال، وما ينوف عن ألف خادم من الولدان الذين لا يفنى شبابهم ولا يعتريهم زوال، **(ويشرب المريد)** بمناولة الحور والولدان له **(من كأس الهنا والمسرة)** قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: 5]و«**الهنا**» بالقصر الفرح والمسرة والسرور، بما أعده له العزيز الغفور.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

64	هُنَاكَ الكِرَامُ النَّازِلُونَ مِنَ العُلاَ	مَنَازِلَ أَفْرَادٍ مَعَاهِدَ سَادَةِ

الإشارة بهناك إلى الجنة التي أعدها ذو الجلال والإكرام، لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام، فإن الموصفين بهذه الأوصاف ينزلون فيها من الدرجات العلى منازل أفراد مخصوصين بمزيد الإكرام من المنعم الجواد، وتوصف تلك المنازل بكونها معاهد سادة الناس أي: أماكنهم التي عهدت لهم، فإن المعهد المنزل، والسادة جمع سيد، وهو: من له السيادة على غيره.

قال المصنف:

65	بِحَيْثُ الْبَهَا وَالأُنْسُ بِالْقُدْسِ يَنْجَلِي	عَلَى السِّرِّ جَهْراً فِي جَمَالٍ وَبَهْجَةِ

يعني أن هؤلاء الكرام، المخصوصين بمزيد الإكرام في دار السلام، ينزلون منها بحيث البهاء الخ أي: بمنزل ينجلي، أي: ينكشف فيه البهاء، أي: الحسن والأنس بالمحبوب، أي: يظهر لهم ذلك بسبب ما في قلوبهم من القدس، أي: الطهارة القلبية، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم﴾ [الحجر: 47] أي: ما في قلوبهم التي في الصدور ﴿مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: 47] وفيه إشارة إلى مقعد الصدق المختص بالمتقين المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ

مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 55] فيتجلى ما ذكر من البهاء والأنس **(على السر)** أي: اللطيفة المودعة في القلب التي هي محل المشاهدة **(جهرا)** بلا خفاء، **(في جمال)** أي: في حلل جمال **(وبهجة)** أي: هيئة حسنة تبهج بها النفس وتنسر، ويحتمل أن المعنى أن هذا المريد إنما يكون في هذه المنازل العالية إذا كان في الدنيا بحيث البهاء الخ، أي: إذا كان بهذه الحالة التي يتجلى فيها البهاء والأنس على سره بسبب القدس، أي: الطهر القائم بقلبه فلا يكون في قلبه غل ولا غش ولا حسد، ليتضح **قوله رضي الله عنه:**

66 وَحَيْثُ كَمَالُ الذَّاتِ بِالذَّاتِ وَاحِدٌ تَغَانَتْ بِهِ الأَكْوَانُ عَنْ كلِّ وِجْهَةِ

أي: ويكون المريد في تلك المنازل العالية إذا وصل إلى معرفة أن **(كمال الذات)** الأقدس **(بالذات) أي: بذاته تعالى (واحد)** أي: فرد جامع لجميع أوصاف الكمال **(تغانت)** بالغين المعجمة أي: استغنت، يقال: تغانيت تغانيا بمعنى استغنيت، وقوله: **(به)** أي: بذلك الكمال **(عن كل وجهة)** أيَّ جهة ومقصد، فلا ينبغي للمريد أن يقف مع الأسباب، بل ينظر إلى مسببها فإنها في الحقيقة كسراب.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

67 وَحَيْثُ الْبَقَا بَعْدَ الفَنَاء لِسَالِكٍ أَزَالَ حِجَابَ الْعَيْنِ مِنْ غَيْرِ نُقْطَةِ

أي: ويكون المريد في منازل الأبرار إذا وصل إلى مقام البقاء بالله بعد مقام الفناء فيه، بمعنى أنه بعد أن يتجلى الله عليه بصفاته السنية، فيفنى عن أوصافه البشرية، ويشاهد اضمحلال ما دون الحق بالكلية، ويتجلى عليه ثانيا بتجلي الذات في حضرة الأسماء، فيبقى متصفا بصفات الحق جل شأنه من حيث أنه يكون عاملا بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم: « **تخلقوا بأخلاق الله**» أي: بأوصافه التي تليق للبشر من الصفح والحلم ونحو ذلك، وعند ذلك يتحقق بمقام الحب المشار إليه في الحديث القدسي بقوله: «**لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به** . . .» إلى آخره، وإلى هذين المقامين أشار البكري في ألفيته التي في التصوف بقوله:

كم لذة فاقت على اللذات تجلى علينا في تجلي الذات
ففي تجلي وصفه يفنينا وفي تجلي ذاته يبقينا

وقوله: **(أزال)** أي: كشف ذلك الشهود والتحقق بمقام البقاء بعد الفناء عن هذا السالك **(حجاب)** أي: ساتر **(العين)** أي: عين القلب المسماة بالبصيرة الكائن ذلك الحجاب **(من غين نقطة)** بفتح الغين المعجمة وهو في الأصل الغيم الرقيق أطلق هنا على ما يغشى القلب، فيكون على عين البصيرة كالنقطة على عين البصر، فيحول بين البصيرة وبين إدراك الحقائق كما إن النقطة تمنع البصر من رؤية الشيء، وقد يطلق الغين على التجليات الإلهية، كما في حديث: «**إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر في اليوم مائة مرة**» فهو صلى الله عليه وسلم بعد أن يتجلى الله عليه بالتجلي الذاتي يرى حالته الأولى أقل من الحالة التي انتقل إليها، فإنه ما من كمال إلا وعند الله أكمل منه، قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: 4] أي: وللحظة المتأخرة خير لك من اللحظة المتقدمة فيستغفر الله من الحالة الأولى، من باب: «**حسنات الأبرار سيئات المقربين**» وإياك أن تفهم أن الغين رين يخالط قلبه الشريف، فتزل بك القدم وتستحق اللوم العنيف، بل هي أغيان أنوار، وليست أغيان أعيار.

فنزه قلبه عن كل وصف يباعده عن الذات العلية

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

68	وَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْخٌ يُرِيهِ شُخُوصَها	وَيُدْنِيهِ مِنْ أُمِّ الْقُرَى وَبُثَيْنَةِ
69	فَلَيْسَ لَهُ مِنْ عُمْرِهِ غَيْرَرَسْمِهِ	وَعِيشَتُهُ فِينَا كَعَيْشِ البَهِيمَةِ

أي: **(وإن لم يكن)** للمريد **(شيخ)** عارف بأصول الطريق التي بها **(يريه شخوصها)** أي: يقربه بإمداده **(من أم القرى)** وهو من أسماء مكة، وإنما سميت «**أم القرى**» لأن الدنيا دحيت من تحتها لما في الحديث: «**أول بقعة وضعت في الأرض مواضع البيت ثم مدت منها الأرض**» أو لأن أهل القرى يقصدونها للحج فهي أم بهذا المعنى، وهذا كناية عن كونه يقربه للمحل الذي هو أحق بالقصد من غيره، كما أنه كنى بـ **(بثينة)** عن الذات العلية، وبعضهم يكني عنها بـ«**ليلى**» وبعضهم بـ«**سلمى**» وبعضهم بـ«**عزة**» ونحو ذلك كما قال البكري:

وهذه كناية العرفان ورمز أهل الحق والإيقان
عن سرها كنيت بالألحان وحانها ونعمة القيان
وكيف لا يستر سر عزة ومجدها له أجل عزة

وقال آخر:

تمنت سلمى أن نموت صبابة وأهون شيء عندنا ما تمنت

وقال سلطان العاشقين ابن الفارض:

فكل مليح حسنه من جمالها معار له أو حسن كل مليحة
بها قيس لبنى هام بل كل عاشق كمجنون ليلى أو كثير عزة

وقال بعض العاشقين المحبين لرب العالمين:

نسمات هواك لها أرج تحيا وتعيش بها المهج
وبنشر حديثك يطوي الغم عن الاراح وينفرج
وببهجة وجه جلال جما ل كمال صفاتك أبتهج
لا كان فؤاد ليس يهيـ ـم على ذكراك وينزعج
ما الناس سوى قوم عرفو ك وغيرهمو همج هج
قوم فعلوا خيرا وصلوا وعلى الدرج العليا درجوا
دخلو فقراء إلى الدنيا وكما دخلوا منها خرجوا
شربوا بكؤوس تفكرهم من صرف هواك وما مزجوا
يا مدعيا لطريقهم قوم نظرا بك ينعوج
تهوى ليلى وتنام الليـ ـل وحقك ذا طلب سمج

ثم إن جواب الشرط قوله: (فليس له) أي للمريد الذي لم يكن له شيخ **(من عمره)** الذي عاشه **(غير رسمه)** فقط، ورسم الدار في الأصل هو ما درس منها وكان لاصقا بالأرض، أي: أن عمره صار لا منفعة به بل تكون **(عيشته فينا)** معاشر الصوفية **(كعيش البهيمة)** كما قال بعضهم:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردا لك لازم
وتنصب فيما سوف تكره عينه كذلك في الدنيا تعيش البهائم

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

70	وَيُدْعَى لَقِيطاً أَيْنَ حَلَّ مُعطَّلاَ وَإِنْ كَانَ ذَا عِلْمٍ كَزَوْجٍ عَقِيمَةِ
71	دَعِيًا مَعَ السَّادَاتِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ كَذَا نَقَلُوهُ جُلَّ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ

يعني أن من لم يكن له شيخ فإنه **(يدعى)** أي: يسمى عند القوم **(لقيطا أين حل)** أي: نزل، واللقيط في الأصل الولد الملقوط، أي: المأخوذ من الأرض من غير أن يعلم له أب، والمراد مقطوع النسب، وقوله: **(معطلا)** أي: من التحلية بالاندراج في سلك القوم **(وإن كان ذا علم)** لأنه حينئذ يكون هو وعلمه **(كزوج)** امرأة **(عقيمة)** لأن علمه لا ينتج له شيئا كالمرأة العقيمة التي لا تلد لزوجها، ولذا قال الغزالي: إذا وجدتم الرجل قد طبق الأرض علما، ولم يكن له شيخ يوصله إلى سلسة القوم، فهو عقيم لم يكن يلقي الحكمة، اهـ. وحينئذ يدعى **(دعيا مع السادات)** أي: غير منسوب لهم **(في كل مواطن)** فهو كابن الزنا عند القوم **(كذا نقلوه جل)** بضم الجيم أي: معظم **(أهل الحقيقة)** وهم السادات الصوفية.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

72	وَأَيَّامُهُ تَمْضِي وَأَعْمَالُهُ بِهَا بِلاَ وَفْقِ شَرْعٍ فِي أُمُورِ الشَّرِيعَةِ

أي: **(وأيام)** الذي لم يكن له شيخ **(تمضي)** سدى **(وأعماله بها)** أي: فيها تكون **(بلا وفق)** أي: موافقة **(شرع)** لأنه لم يأخذها عن شيخ عارف متبحر **(في)** علوم **(الشريعة)** وحينئذ فيجب اتخاذ الشيخ الذي يحسن به الوصول إلى إصلاح الأعمال، ويبلغ به المريد درجات العرفان غاية الكمال.

[خاتمة]

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

73	وَهَذَا الذِي قَدْ يَسَّرَ اللَّهُ نَظْمَهُ	عَلَى أَحمَدِ الْمَشْهُورِ بَيْنَ الْخَلِيقَةِ
74	بِوَالِدِهِ عُثْمَانُ مَرَبّاً وَمَنْشَأً	بِحَانَاتِ شَرْنُوبٍ بِأَرْضِ البُحَيْرَةِ

اسم الإشارة راجع إلى الكلام **(الذي قد يسر)** أي: سهل **(الله نظمه)** من البحر الطويل الذي وزنه: «**فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن**» مرتين، وقد أشار الشهاب الخفاجي إلى وزن هذا البحر في منزع صوفي مع حسن الاقتباس فقال:

أيا من طويل الليل بالنوم قصروا أنيبوا وكونوا من أناس به تاهوا
وإن شئتمو تحيوا أميتوا نفوسكم ولا تقتلوا النفس التي حرم الله

وقوله: **(على أحمد)** أي: على لسان ناظمه القطب الشهير والبدر المنير سيدي أحمد عرب الشرنوبي ولي الله المحبوب وخزانة الأسرار والغيوب، فلا تعجب إذ ظهرت على يديه الكرامات، وخرقت له في عالم الملك سبل العادات، فإنه الإنسان الكامل عند كل إنسان، **(المشهور بين الخليقة)** أي: الخلق **(بوالده عثمان)** وهاأنا أذكر نسبه الشريف لتحصل لي بركة جنابه المنيف، فأقول:

هو سيدي أحمد عرب ابن سيدي عثمان ابن سيدي أحمد ابن سيدي علي نور الدين ابن سيدي أحمد أبي العباس ابن سيدي محمد ابن سيدي أحمد ابن سيدي محمد ابن سيدي أحمد ابن سيدي علي البرهاني - المكنى بأبي الوفاء الحال ضريحه بشرنوب - ابن سيدي خضر ابن سيدي علي ابن سيدي محمد ابن سيدي يوسف ابن سيدي سليمان ابن سيدي عبد المهيمن ابن سيدي عبد الخالق صلاح الدين ابن سيدي محمد قمر الدولة - الحال ضريحه بنفيا كناه بذلك سيدي أحمد البدوي عند إجتماعه به وقال له: أنت قمر دولتي - ابن سيدي حسن ابن سيدي حسن الصياد ابن سيدي إبراهيم الغالي - الحال ضريحه بفاو - ابن سيدي عمر - بالصعيد الأعلى - ابن سيدي محمد عبد السلام ابن سيدي إبراهيم الرضى ابن سيدي موسى الكاظم ابن سيدي جعفر الصادق ابن سيدي محمد الباقر ابن سيدي علي زين العابدين ابن سيدنا الحسين ابن سيدنا علي ابن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين. كذا وجد بخط

سيدي علي نجل الأستاذ.

وقد أشار رضي الله عنه إلى البلدة التي نشأ بها بقوله: **(مربا ومنشأ بحانات شرنوب)** أي: إن مرباه ومنشأه كان في حانات جمع حان، وهو في الأصل محل إجتماع الندمان. والمراد هنا أماكن القرية التي يقال لها شرنوب الكائنة **(بأرض البحيرة)** وهي من أعمال مصر، وفي تلك القرية نبي الله **«جرجيس»**. وقد ظهر حال الأستاذ بها وهو ابن سبع سنين، وكانت والدته من الصالحات واسمها عايدة، وتنسب إلى سيدي أبي بكر الراعي الحال ضريحه بمحلة مرحوم، وكانت تربط له الخبز والجبن على مئزره وتقول له: احترز على غذائك من الأولاد، لأنه كان يسرح معهم بالغنم، فيأخذه الحال فيستغرق في الذكر حتى يرمي بالمئزر، فيأخذ الأولاد ما عليه ويجعلون مكانه شقفا، فإذا أفاق يقولون له اجلس يا أحمد للغذاء، فيجلس ويحل إزاره فإذا بخبزه على حاله فيتعجبون من ذلك.

ولما اشتد به الحال توجه إلى مقام ولي هناك بناحية شرنوب يقال له: سيدي محمد الأعرج البرهاني، فكان لا يفارقه ليلا ولا نهارا، وقد ترك الأغنام واشتغل بالعبادة وابتلي بالإيذاء من أهل شرنوب، وكان عدة أهلها إذ ذاك تسعة آلاف رجل، وكانت والدته تقول له: اصبر يا أحمد فإنه لا يرجم إلا الشجرة المثمرة، وكان من جملة المنكرين عليه رجل يقال له حماد، قال: أتيت ذات يوم إلى المقبرة فرأيت الشيخ أحمد عرب قد علق على مواضع بجوار سيدي محمد الأعرج قطعا من خرق، فقلت له: ما هذا الجنان الذي تفعله وتترك أغنامك؟ فقال لي: إن ههنا أولياء تدوسون عليهم بنعالكم فأحببت أن أظهرهم، قال: فتركته وأتيت بعد يوم في وقت السحر ورميت ما عليهم، وقلت: إنه مجنون، وإذ أنه قد أتى إلي فقيدت بقيد القدرة فمسك أذني ورماني في الأرض فما أفقت إلا وقت الضحى، فتبت بعد ذلك إلى الله تعالى.

ثم إن الأستاذ غاب في السياحة سبع سنين حتى أن أهله لا يدرون أين توجه، ثم إنه أتى وأقام مدة بمدينة دمنهور البحيرة، قال الشيخ سليمان بن صالح وهو من خواص أتباع الأستاذ، سألت أستاذي الشيخ أحمد عرب عند اجتماعي به بمدينة دمنهور البحيرة فقلت له: يا سيدي أتأذن لي في سؤال ورد علي؟ فقال: يا سليمان تسألني إلى أين انتهت بنا السياحة؟ فقلت: نعم قال: يا ولدي إلى المغرب الأقصى وجبال الزيتون وساحل البحر المحيط، قال: فقلت في نفسي: إن الأستاذ لم يخبرنا

عن جبل قاف، فتبسم الأستاذ وقال: يا مبارك هاهو قاف، قال: فنظرت الجبل وما حوله ورأيت الأولياء والعباد يتعبدون هناك فغشي علي من ذلك اهـ. فانظر يا أخي إلى هذه الكرامة من هذا الأستاذ الذي بلغه الله مرامه:

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

وأقام رضي الله عنه بمصر مدة بالدرب الأحمر في زاويته المشهورة، وله بين العلماء الأعلام الكرامات المأثورة، كما قال سيدي إبراهيم اللقاني صاحب الجوهرة: قد شاهدت من سيدي أحمد عرب الشرنوبي الكرامات الخارقة عند اجتماعي به حال بدايتي في مصر المحروسة بزاويته التي بالدرب الأحمر، ورأيته متمسكا بالكتاب والسنة، ورأيت جميع أتباعه مشتغلين في الزاوية بالقرآن وطلب العلم، وسمعت منه علوما لم أسمعها من غيره، وسألني جماعة من أهل الأزهر في الاجتماع عليه، وقالوا: يا إبراهيم لابد تجمعنا على شيخك، فقلت: حبا وكرامة، فلما توجهنا إلى الزاوية قال أحدهم: في خاطري ملوخية، وقال الآخر: وتكون بإوز، قال الثالث: وأنا أريد عسل نحل وجبنا، وقال الرابع: وأنا أسأله عن علم الذات والصفات، فقلت: حيث إنكم أتيتم ممتحنين فلا أتوجه معكم، فقالوا: تبنا، فلما دخلوا على الشيخ قال لهم: مرحبا بمن تابوا قبل وقوع الذنب، ثم قال: يا نقيب هل بقي عندك شيء من الطعام؟ فقال: نعم، فأحضر زبدية فيها ملوخية فضرب الذي كان طالبا الإوز أصبعه فلم يجد مقصوده، فقال له الشيخ: يا مبارك من فاته اللحم فليقنع بالمرق، ثم إن الشيخ فتت فيها بعضا من الخبز وجعل يعطي هذا وركا وهذا كتفا وهذا جناحا، ثم قال: يا نقيب هات ما تحت القصعة، فإذا هو عسل نحل وجبن قديم، ثم قال والله يا أولادي من أطلعه الله على علم الذات والصفات وسكت عنه كان أولى له، فاندهش الجماعة وأخذوا عن الشيخ العهد، فقال الشيخ: يا إبراهيم الفقراء مثل النحل، والمجاورون مثل الزنابير، ثم قال: يا إبراهيم طريقنا مبنية على الكتاب والسنة ليس فيها دغل ولا غش ولا تلون، من أحدث فيها ما ليس منها أفقره الله وكشف حاله اهـ.

وقال العلامة الصاوي في حاشية الجوهرة: كان الشيخ إبراهيم اللقاني من أرباب الأحوال والكشف، وأنشأ هذه المنظومة ليلا، بإشارة شيخ التربية في التصوف سيدي أحمد عرب الشرنوبي، وعلمه أنه إذا قرأ في أذن المولود سورة القدر عند ولادته، لم يقدر الله عليه زنا مدة حياته اهـ باختصار.

وللأستاذ مع العارف الشعراني كرامات سنية وأحوال بهية أقر له فيها بالفضل والتقديم، وقال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 21].

وقد أقام الأستاذ سبع سنين بمكة والمدينة وظهرت له ولأتباعه الكرامات العجيبة، قال الشيخ سليمان بن صالح: كنت أنا والشيخ نور الدين والشيخ محمد نور الدين اللقاني من جملة من صحب الأستاذ في السفر إلى مكة، فاتفق أننا تأخرنا عنه فنظرت إليهم فإذا هم صافون أقدامهم والأرض تطوى من تحتهم فكتمت أمري حتى لحقنا الأستاذ وعرفته الخبر، فقال: يا ولدي الآن عندنا من الفقراء نحو أربعة عشر تطوى لهم الأرض، ثم بعد ذلك توجه الأستاذ إلى شرنوب، ثم توجه إلى البلاد الرومية حيث رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، وهو يقول له: يا أحمد امض إلى الشيخ نور الدين زاده بالقسطنطينية وخذ عنه الطريق، لأنه الآن رأس العارفين، فتوجه إليه ومعه جملة من أصحابه الأكابر، فلما وصل إلى الشيخ نور الدين خرج إليه من الخلوة، وقال: مرحبا بمن أتانا بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ومرحبا بأولاد الفقراء، ثم دخل هو والأستاذ الخلوة وأخذ عنه الطريق وأقام معه مدة بجامع السليمانية وكساه جبة من الصوف الأخضر وأعطاه سبحة نحو الألف حبة، فلما عزم السلطان سليم على فتح قبرص أتى إلى سيدي نور الدين يسأله الدعاء، فدعا له وأمر سيدي أحمد عرب بالتوجه معه، ففتح الله قبرص في تلك المرة، ورجع الأستاذ إلى القسطنطينية وأخرج مرسوما تأمر السلطان بإبطال العوائد والمظالم عن أهل شرنوب، فلما رجع الأستاذ إلى شرنوب وأعلمهم بذلك ذهبوا إلى حاكم القرية وقالوا: لا تزيد حماية عليك وليس لنا رغبة في إقامة هذا الرجل وأتباعه في بلدنا، بل رغبتنا نفيهم من الديار فإنهم لصوص بالليل وفقراء بالنهار، وشهدوا هذه الشهادة الزور وأظهروا ما كانوا عليه من الفجور، وقد انقرض الآن نسل جميع المنكرين، وتلا عليهم ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 45]، فتأمل يا أخي ما جرى للأكابر العارفين، وكن على ما ابتليت به من أهل بلدك من الصابرين، فإن هوى الوطن لا يحرك من قلبك ما سكن.

ومن العجائب أن مقتول الهوى أبدا يحن إلى لقاء القاتل

وكانت طريقة الأستاذ شاذلية، وقد نقل عنه أنه قال: مشايخنا الذين أخذنا عنهم هم الشيخ عبد الرحمن التاجوري والشيخ عبد السلام بن عبد الرحمن

المغربي، وسيدي علي السكري، وسيدي علي المتقي الهندي بمكة المشرفة، وسيدي عبد الرحيم البيروتي، وسيدي الحسن البكري، وسيدي سليمان الخضيري، وسيدي إبراهيم الذاكر، وسيدي بدر الدين العالي، وسيدي محمد الشهاوي، وسيدي زين ابن بنت المرصفي، وسيدي نور الدين زاده القاطن بالقسطنطينية، اهـ.

وقد اشتهر رضي الله عنه بأنه وزير سيدي إبراهيم الدسوقي، لأنه كان على قدمه وشرب من مشربه، فهو وزيره حقيقة من حيث ائتلاف الأرواح وإن لم يجتمع معه في عالم الأشباح، فإن الأستاذ أخذ الطريق أولا عن سيدي محمد الشهاوي، وثانيا عن سيدي سبط المرصفي وهو أخذ عن سيدي أبي القاسم البناء وهو وسيدي جلال الدين السيوطي أخذ عن سيدي محمد بن عبد السلام الشاذلي وهو وسيدي محمد العتريس أخذ عن سيدي محمد بن موسى أبي العمران وهو وأبوه وسيدي مرزوق الكفافي أخذوا عن القطب الحقيقي سيدي إبراهيم الدسوقي.

وقد أخذ عن الأستاذ جملة من الخواص الذين ظهر سرهم بين الأنام ببركة ما لهم من الإخلاص، منهم سيدي سليمان ابن صالح الدمنهوري، وسيدي إبراهيم اللقاني صاحب الجوهرة كما تقدم، وسيدي داود اللقاني، وسيدي علي المنير اللقاني، وسيدي شهاب الدين الدمياطي، والشيخ أبو البركات الحصاوي، والشيخ إبراهيم الشبرخيتي، والشيخ حجازي السكندري، والشيخ شمس الدين التلباني، والشيخ علي العلقمي، والشيخ عامر النقيب، والشيخ أحمد خاطر المدفون بجوار مقام سيدي ياقوت العرشي، والشيخ عبد ربه الأبشيطي الحال ضريحه بالمحلة الكبرى، والشيخ محمد البلقيني الحال ضريحه ببلقين، والشيخ عبيد التمامي الحال ضريحه بالعكريشة، والشيخ أبو النصر الدسوقي الحال ضريحه بدسوق، والشيخ سليمان البرهاني الحال ضريحه بسنديون، والشيخ شرف الدين المرشدي، والشيخ البوليني، والشيخ سليمان العلقمي، والشيخ حميده الخويلدي المعروف بأبي عمران الحال ضريحه بالبهى، والشيخ محمد بن سكران الخوانكي، والشيخ عامر البقلي، والشيخ إبراهيم ابن الشيخ عبد الجليل الشرنوبي، والشيخ إبراهيم السمديسي، والشيخ حسن المنزلاوي، والشيخ حسن النواصري، والشيخ سليمان العشماوي، والشيخ عبد الله المغربي، والشيخ سالم بن نعامة الدمنهوري، والشيخ زين المحلاوي، والشيخ محمد الدسوقي، إلى غير ذلك من أكابر الرجال أرباب المقامات والأحوال، الذين بذكرهم تنزل الرحمات، نفعنا الله بهم وجعلنا من

المحبين لنشر مناقب السادات.

وكانت أوراد الأستاذ بعد صلاة العشاء سورة يس والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ومجلس التوحيد، وبعد صلاة الصبح سورة الواقعة والدخان وهل أتى على الإنسان والبروج وألم نشرح وأسماء الله الحسنى، وبعد العصر سورة عم يتساءلون وتبارك الملك والفتح وحزب البحر ومجلس التوحيد، وكان يأمر أصحابه بقراءة القرآن وطلب العلم وكان كثير الجود والكرم، حتى قال بعض أتباعه صحبت الأستاذ نحو أربعين سنة، فما سمعته يوما يقول ادخروا هذا لغد بل كان يجود بجميع ما عنده على حد ما قيل:

من ظن بالله خيرا جاد مبتدئا والبخل من سوء ظن العبد بالله

وقد كان رضي الله عنه يترنم بهذه الأبيات:

أوسع رحلي على من نزل وزادي مباح لمن قد أكل
تقدم ما عندنا حاضر ولو لم يكن غير خبز وخل
فأما الكريم فيرضي به وأما اللئي فمن قد أقل

ومن كلامه رضي الله عنه:

وليس أخي من ودني بلسانه ولكن أخي من ودني في المصائب

وكان يقول: يا أولادي إن الشيخ يحفظ المريد الصادق في قربه وبعده.

وقد اتفق أن الشيخ سليمان بن صالح تلميذ الأستاذ كان مقيما بالزاوية التي بالدرب الأحمر في مصر والأستاذ في شرنوب، وكان الشيخ سليمان المذكور دخل الخلوة بالزاوية المذكورة وأقام بها أربعة عشر يوما، فأرسل له الأستاذ مكتوبا يقول فيه إذا قرأت كتابي فاخرج من الخلوة عاجلا، فلما قرأه امتثل لأمر الأستاذ وقال: هذا جزاء من يدخل الخلوة بغير إذن أستاذه، فما استتم الخروج من الخلوة حتى سقط سقفها فعلم أن الأستاذ ملاحظ للمحافظة عليه.

وقال بعض أتباع الأستاذ: سافرت مرة إلى الحج فحصل لي مرض برجلي، فطلبت الركوب فقال لي رجل معه ناقة: أعطني عشرة أنصاف وأنا أعطيك ناقتي تركبها، فركبتها وقلت هذا من بركة أستاذي، فقال: ومن أستاذك؟ قلت: سيدي أحمد عرب الشرنوبي، فرماني من فوق الناقة فنزلت على رجلي الأخرى، وقال: لو

تعطيني عشرة دنانير ما ركبتها، فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله لو علمت أن هذا يكره أستاذي ما ذكرته له، وإذا أنا بالأستاذ قادم وبيده ناقة بيضاء فمسح على رجلي حتى برئت، ثم قال لي: إن الرجل الذي حملك على ناقته ثم رماك من أهل شرنوب من بيت الإنكار علينا، وأحمد الله حيث لم يقتلك، فقلت له: يا سيدي أنا أعلم أنك في الحج، فقال: أكتم أمرك واركب هذه الناقة فركبتها، فلما رجعت أتيت لزيارة الشيخ بشرنوب وإذا بالرجل الذي رماني دخل على الأستاذ وسلم عليه وصار يقول: يا سيدي حملت رجلا في الحج على ناقتي من أجلك، فقلت له: لأي شيء رميتني من فوق ظهرها كسرت رجلي، فلما عرفني خجل ولى.

ثم إن الأستاذ توجه ثاني مرة إلى الديار الرومية سنة أربع وتسعين وتسعمائة في شفاعة لبعض أتباعه عند السلطان، وكان معه جملة من خواصه، فلما مر على أهل الشام أهدى له بعض الناس قماشا، ففصل منه مئزارا طوله سبعة أذرع وعرضه ثلاثة أذرع وقميصا واسعا وأمر النقيب بحفظ ذلك إلى وقت الحاجة، فلما وصل إلى بلدة من بلاد الروم يقال لها «**أرجلي**» مرض بها ثلاثة عشر يوما ومات رضي الله عنه، فأمر الوزير إبراهيم باشا بأن يبنى للأستاذ مقام وزاوية، فبنى له ذلك ورتب فيها ترتيبا عجيبا ووقف أهل الناحية أيضا من الثمار ما يقوم بالزاوية والمترددين عليها لما شاهدوه من الكرامات الظاهرة، والأنوار الباهرة، فإن مقامه عليه من الأنوار ما يبهر الزوار، وقد كان عمر الأستاذ إذ ذاك ثلاثا وستين سنة، فيكون مولده سنة تسعمائة وواحد ثلاثين، وكان رضي الله عنه يقول من باب التحدث بالنعمة: عرفت العلم اللدني وأنا ابن ثمان سنين، واطلعت على اللوح المحفوظ وأنا ابن عشرين سنة، وأقمت قطبا خمس وعشرين سنة.

وقد ألف سيدي علي نجل الأستاذ كتابا في مناقب والده وكراماته فانظره إن شئت، وكان عمر سيدي علي حين مات الأستاذ تسع سنين، وأما سيدي محمد وسيدي يوسف فقد مات الأستاذ وهما صغيران، وقد حصلت لهم بركة والدهم حتى بلغوا أعلى الدرجات، وظهرت على أيديهم الكرامات، ولكل من هؤلاء الثلاثة مقام بشرنوب، تلوح عليه الأنوار وتنفس به الكروب، وقد مات للأستاذ جملة أولاد في حياته، ومنهم سيدي يوسف المدفون بدمنهور البحيرة المشهور بسيدي حجاج، ومنهم سيدي عثمان ودفن بمصر بالدرب الأحمر، ومنهم سيدي محمد الأول وسيدي أحمد الأول والثاني وقد دفنوا بزاوية سيدي علي أبو الوفاء بشرنوب،

وكذلك جملة بنات دفنوا بالزاوية المذكورة.

وأما والد الأستاذ فهو مدفون بثغر الإسكندرية وعلى مقامه ما يبهر الزوار من الأنوار البهية، رضي الله عنهم ونفعنا بهم أجمعين، وجعلنا في سلكهم من المنتظمين، انتهى ملخصا من الطبقات الشرنوبية، المسماة بالأنوار القدسية، مع زيادة قليلة، أتيت بها لنشر محاسن المآثر الجميلة.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

75 | وَأَرْجُو مِنَ اللَّهِ الكَرِيمِ قَبُولَهُ وَسَتْرُ عُيُوبٍ فِيهِ طَمَّتْ وَعَمَّتِ

لما فرغ رضي الله عنه مما كان بصدده من بيان أصول الطريق، شرع يرجوا قبوله وستر عيوبه من ولي التوفيق، فإن الكريم لا يخيب من ارتجى ولا من إليه التجا، وقوله: «**طمت**» بفتح المهملة وتشديد الميم، أي: غلبت، و«**عمت**» بتشديد الميم، أي: شملت، ولبعضهم:

كرم المهيمن منتهى أملي لا نيتي أرجو ولا عملي
يا مفضلا جلت فواضله عن بغيتي حتى انقضى أملي
كم قد أفضت علي من نعم كم قد سترت علي من زللي
إن لم يكن لي ما ألوذ به يوم الحساب فإن عفوك لي

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

76 | وَيَنْفَعُنَا بِالعِلْمِ ثُمَّ يُعِينُنَا بِتَوْفِيقِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَلَحْظَةِ

أي: **(و)** أرجو من الله بمعنى أطلب منه أن **(ينفعنا بالعلم)** وإنما بدأ بنفسه لما ورد أنه صلى الله عليه وسلم إذا دعا بدأ بنفسه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: 19] وذنبه صلى الله عليه وسلم من باب حسنات الأبرار سيآت المقربين، وإلا فهو صلى الله عليه وسلم معصوم من وقوع ذنب، وإنما أتى المصنف بنون العظمة في قوله: «**وينفعنا**» إشارة إلى جواز التعاظم بالعلم، أي: إظهار عظمته لما في الحديث: «**ليس منا من لم يتعاظم بالعلم**» أي: يعده عظيما، ولأن العلم أشبه شيء بالجماعة، وقوله **(ثم يعيننا)** أي: على القيام بحقه

(بتوفيقه) أي: خلق القدرة على الطاعة فينا **(في كل وقت)** من الأوقات، **(ولحظة)** من اللحظات، وهي الزمان اليسير بقدر ما تلحظ العين أي: تنظر بلحظها.

ثم قال المصنف:

77 | **وَيَجْعَلَ إِخْلاَصِي إِلَيْهِ مُحَقَّقاً وَيَرْحَمُ شَيْبِي فِي شَتَاتِي وَغُرْبَتِي**

أي: **(و)** أسأله سبحانه أن **(يجعل إخلاصي إليه)** في الأعمال **(محققا)** غير مشوب بشيء من الرياء والسمعة، **(و)** أن **(يرحم شيبي)** الحاصل **(في)** وقت **(شتاتي)**، أي: فرقتي عن أوطاني **(وغربتي)** أي: بعدي عنها، وفي الحديث القدسي: **«الشيب نوري وأنا أستحي أن أحرق نوري بناري»**.

ومما قيل في مزية التغرب عن الأوطان:

ارحل عن الأهل والأوطان قاطبة ... واحذر تكون عن الأهلين في حرق
فالكحل نوع من الأحجار مطرح ... بين الحجارة مرمى على الطرق
لما تغرب حاز الفضل أجمعه ... وصار يحمل بين الجفن والحدق

وقال آخر:

ارحل عن الأهل والأوطان قاطبة ... واحذر تكون على الأوطان ندمانا
أما ترى يوسف الصديق حين أتى ... لمصر في غربة قد صار سلطانا

ولبعضهم وأجاد:

سافر تجد عوضا عمن تفارقه ... وانصب فإن لذيذ العيش في النصب
فالأسد لولا فراق الغاب ما اقتنصت ... والقوس لولا فراق السهم لم يصب
والتبر كالترب ملقى في أماكنه ... والعود في أرضه نوع من الحطب
فإن تغرب هذا عز مطلبه ... وإن تباعد هذا بيع بالذهب

وقال الطغرائي:

إن العلا حدثتني وهي صادقة ... فيما تحدث أن العز في النقل
لو كان في شرف المأوى بلوغ منى ... لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

وقال بعضهم:

وليس بقاء المرء في دار غربة مضرا إذا ما كان في طلب المجد

"**فائدة**" : نقل عن سيدي أحمد زروق أنه قال: من كان مسافرا ودخل بلدة لا يعرف بها أحدا فإنه يبادر إلى المسجد قبل أن يكلم أحدا، فيصلي ركعتين، ثم يقول: «**يا فتاح**» مائة مرة، «**يا رزاق**» مائة مرة، «**يا مغيث**» مائة مرة، «**يا أرحم الراحمين**» مائة مرة، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة، ثم يخرج، فإنه يجد قبولا عظيما عند أهل هذه البلدة. وفي الحديث الشريف: «**لا غربة على المؤمن ما مات مؤمن بأرض غربة غابت عنه بواكيه إلا بكت عليه فيها السماء والأرض**» وروي أن الميت في الغربة يقاس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة. ثم إن بعضهم نظم الأمور التي تعجل الشيب فقال:

الشيب من سبعة يأتي الرجال ومن يأتي له السبع لم يأمن من الخطر
هم ودين ركوب البحر رابعها موت اليقين عيال عند مفتقر
قهر الرجال وقطاع الطريق حكوا وقيل من بلغهم يأتي بلا نكر
شاب الخليفة قالوا شبت قال لهم من المنابر خوف اللحن فاعتبر
وقيل للمصطفى قد شبت قال لهم هود وأخواتها قد صح في الخبر

يعني أنه صلى الله عليه وسلم قال: «**شيبتني هود وأخواتها**» عندما نزل قوله تعالى فيها: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: 112] فإن قوله: «**كما أمرت**» يدل على أن الاستقامة تكون بحسب المعرفة، فمن كملت معرفته بربه عظم عنده أمره ونهيه، فإذا سمع «**كما أمرت**» علم أنه طولب باستقامة تليق بمعرفته بكمال الآمر له، ويحق لمن فهم ذلك يشيب إذ لا يطيق أحد أن يأتي بعبادة على حسب ما يعرف من عظمة ربه، بل لا بد أن يستصغر جميع ما يأتي به بالنسبة إلى عظمة ربه، ولذلك لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: 102] قلقت الصحابة خوفا من كونهم لا يقدرون على القيام بذلك فأنزل الله رحمة بهم: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16]. ثم إن أخوات هود هي السور التي ذكرت فيها أهوال القيامة كالواقعة والحاقة وسأل سائل والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت والقارعة، وقد كان شيبه صلى الله عليه وسلم قليلا لا يزيد عن عشرين شيبة، وأكثره في عنفقته، وما أحكم قول الإمام الشافعي:

أأنعم عيشا بعد ما حل عارضي طلائع شيب ليس يغني خضابها

أيا بومة قد عششت فوق هامتي ... على الرغم مني حين طار غرابها
رأيت خراب العمر مني فزرتني ... ومأواك من كل الديار خرابها
إذا اصفر لون المرء وابيض رأسه ... تبغض من أيامه مستطابها
فدع عنك فضلات الأمور فإنها ... حرام على نفس التقي ارتكابها
وما هي إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها ... وإن تجتذبها نازعتك كلابها
فطوبى لنفس أوطنت قعر دارها ... مغلقة الأبواب مرخى حجابها

وما ألطف قول بعضهم:

أنذرك الشيب فخذ نصحه ... فإنما الشيب نذير نصيح
وعلة الشيب إذا ما اعترت ... أعيت ولو كان المداوي المسيح

وقال آخر:

إلام تجر أذيال التصابي ... وشيبك قد نضى برد الشباب
لسان الشيب في فوديك نادى ... بأعلى الصوت حي على الذهاب

وأجاد القائل:

وما أقبح التفريط في زمن الصبا ... فكيف به والشيب في الرأس نازل
ترحل عن الدنيا بزاد من التقى ... فعمرك أيام تعد قلائل

وقال بعضهم:

لم أقل للشباب في دعة الله ... ولا حفظه غداة استقلا
زائر زارنا أقام قليلا ... سود الصحف بالذنوب وولى

وقال آخر:

لقد نزل المشيب على شبابي ... وقال له ارتحل ها قد نزلنا
فقلت له أترحل يا شبابي ... وتتركني فقال نعم عزلنا

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

أي: **(و)** أسأله سبحانه أن **(يدرجنا في سلك قوم أحبهم)** لكونهم من خواصه المقربين، فهو تعالى يحبهم ويحبونه، أولاهم من المقام الأمين قد **(رضوه)** ربا ومالكا ومتصرفا في جميع الأحوال، فلا يعتريهم من تصرفات في أبدانهم ضجر ولا فيما لهم من الأموال، ولذا قربهم لديه **(وأرضاهم بحسن مزية)** خصوا عمن سواهم.

ثم قال المصنف:

79	وَيَعْفُوَ عَنِّي والذِينَ أُحِبُّهُمْ وَيَدْفَعُ عَنَّا كُلَّ سُوءٍ وَفِتْنَةِ

أي: **(و)** أسأله سبحانه أن **(يعفو عني)** أن يمحو ذنوبي من ديوان الحفظة، **(و)** كذلك يعفو عن **(الذين أحبهم)** **(و)** أسأله أن **(يدفع)** أي: يصرف **(عنا كل سوء)** أي: مكروه يسيء الإنسان أي: يحزنه، **(وفتنة)** أي: بلية وامتحان واختبار من ذلك فتنة القبر، أي: امتحان الميت فيه بالسؤال هل كان مطيعا أم لا؟.

وما ألطف قول الصفي الحلي:

تب وادع ذا الجلال بالصدق تجد الله للدعاء سميعا
لا تخف مع رجاء ربك ذنبا إنه يغفر الذنوب جميعا

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

80	وَيَرْزُقَنَا وَالْمُسْلِمِينَ بِأَسْرِهِمْ يَقِيناً يَقِينَا كُلَّ شَكٍّ وَرِيبَةِ

أي: **(و)** أسأله سبحانه أن **(يرزقنا والمسلمين)** بأجمعهم **(يقينا)** أي: جزما مطابقا للواقع فهو عبارة عن قوة الإيمان ورسوخه حتى يصير كأنه الطود الشامخ لا تزلزله الشكوك ولذا وصفه بقوله: **(يقينا)** من الوقاية، أي: يمنع عنا **(كل شك وريبة)** والعطف مرادف فإن الريبة هي الشك، قال سهل بن عبد الله التستري: يتفاضل الناس يوم القيامة بقدر يقينهم وأدنى مراتب اليقين الثقة بالله.

ثم إن المصنف رضوان الله عليه، توسل إلى الله في إجابة دعائه أعظم الوسائل إليه، فقال:

81	بِجَاهِ نَبِيٍّ مِنْ سُلاَلَةِ آدَمٍ بِمَنْ خَلْفَهُ الأَمْلاَكُ وَالرُّسْلُ صَلَّتِ

أي: أتوسل إليك يا الله **(بجاه نبي)** عظيم **(من سلالة)** أي: نسل **(آدم)** أبي البشر، وقد قال صلى الله عليه وسلم: **«توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم»** ويجوز التوسل أيضا بغير الأنبياء كالشهداء والأولياء والعلماء الصالحين، ويشهد لذلك ما رواه البخاري عن أنس أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، ويقول: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فاسقنا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون. ومن كلام بعض آل الصديق المجرب لدفع كل هم وضيق:

نبي الهدى ضاقت بي الحال في الورى ... وأنت بما أملت منك جدير
فسل خالقي تفريج كربي فإنه ... على فرجي دون الأنام قدير

ومما جرب لدفع كل شدة، هذان البيتان فاتخذهما لك عدة:

إليك رسول الله أشكو نوائبا ... عن الدهرلا يقوى لها المتحمل
وإني لأرجو أنها بك تنجلي ... فإنك لي جاه وحصن ومعقل

ومما جرب لدفع الكروب قراءة هذه الأبيات المختومة بالتوسل بسيد السادات، وقد قال السيوطي نقلا عن النووي ما قرأها أحد ثم دعا الله عقبها بشيء إلا استجيب له:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها ... يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن ... أمنن فإن الخير عندك أجمع
ما لي سوى فقري إليك وسيلة ... فبالافتقار إليك فقري أدفع
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة ... فلئن رددت فأي باب أقرع
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه ... إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لجودك أن تقنط عاصيا ... الفضل أجزل والمواهب أوسع
بالذل قد وافيت بابك عالما ... أن التذلل عند بابك ينفع
وجعلت معتمدي عليك توكلا ... وبسطت كفي سائلا أتضرع
فبحق من أحببته وبعثته ... وأجبت دعوة من به يتشفع
اجعل لنا من كل ضيق مخرجا ... والطف بنا يا من إليك المرجع

ومن الفوائد الشريفة، قول بعضهم في فضل الصلاة على صاحب الدرجة المنيفة:

إذا كنت في هم وضقت بحمله وأصبحت محزونا وقلبك في حرج
فصل على المختار من آل هاشم كثيرا فإن الله يأتيك بالفرج

ومن الأدعية المجابة أن تقول بعد أن تصلي على طه الرسول: يا الله يا واحد يا أحد يا واجد يا جواد نفحنا منك بنفحة خير إنك على كل شيء قدير. وقد زاد المصنف في الاستعطاف بذكر الأوصاف التي من الله بها على حبيبه حيث قال **(بمن خلفه)** أي: وراءه **(الأملاك)** جمع ملك بفتح اللام وهم أجسام نورانية لهم قدرة على التشكل لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ولا يأكلون ولا يشربون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، **(والرسل)** بإسكان السين جمع رسول وهو إنسان ذكر حر من بني آدم أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، كان له كتاب أم لا، ولذا كثرت الرسل وقلت الكتب، وأما النبي فهو إنسان ذكر حر من بني آدم أوحي إليه بشرع أمر بتبليغه أم لا، فهو أعم من الرسول على الأصح، والمراد من الرسل ما يعم الأنبياء، وعدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر وقيل وخمسة عشر، يجب الإيمان بهم إجمالا، وأما تفصيلا فلا، إلا بخمسة وعشرين مجموعين في قول بعضهم:

حتم على كل ذي التكليف معرفة بأنبياء على التفصيل قد علموا
في تلك حجتنا منهم ثمانية من بعد عشر ويبقى سبعة وهموا
إدريس هود شعيب صالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وقوله: **(صلت)** إلى بيت المقدس ليلة أسري به صلى الله عليه وسلم، فإن الأنبياء اجتمعت هناك لملاقاته، فلما وصله وكان صحبته جبريل وميكائيل أثنى كل من الأنبياء على مولاه تحدثا بما أنعم به عليه وأولاه، فقال إبراهيم الخليل: الحمد لله الذي اتخذني خليلا، وقال موسى: الحمد لله الذي اتخذني كليما، إلى أن قال سيد الأولين والآخرين: الحمد لله الذي بعثني رحمة للعالمين، فقال له الخليل: بهذا فضلتنا تقدم فأنت الإمام، فصلى بهم ركعتين من النوافل، لأن الصلوات الخمس لم تفرض إلا ليلة الإسراء، وهل حضور الأنبياء في بيت المقدس وفي السماوات بعد ذلك كان بأرواحهم؟ وإنما تشكلت بصور أجسادهم؟ أو كان

بالأجساد حقيقة؟ في ذلك خلاف، فذهبت طائفة إلى الأول واستدلوا برواية أبي هريرة «**فلقي أرواح الأنبياء**»، وذهبت طائفة إلى الثاني واستدلوا برؤية النبي صلى الله عليه وسلم لموسى عليه السلام قائما يصلي في قبره، وقالوا إن البرزخ ينسحب عليه بحكم الدنيا في الاستكثار من الأعمال وزيادة الأجور، لأن الذي ينقطع بالموت إنما هو التكليف، وأما أعمال الآخرة فهي على سبيل التلذذ بها.

ثم قال المصنف رضي الله عليه:

82	وَلَوْلاَهُ مَا كَانَتْ لآدَمَ صُورَةٌ وَلاَ تَابَ عَنْهُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ أَكْلَةِ

أي: **(ولولا)** الحبيب المحبوب الذي خلقت لأجله الأرض والسماوات **(ما كانت لآدم صورة)** في الوجود ولا لشيء من الموجودات ولذا قيل على لسان الحضرة النبوية:

وإني وإن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

وذلك لأن آدم خلق من نوره صلى الله عليه وسلم، فإن الحقيقة المحمدية هي الذات المتعين بالتعيين الأول، كما يشير إلى ذلك حديث جابر حيث قال صلى الله عليه وسلم له: «**أول ما خلق الله نور نبيك من نوره**» ويلزم أن تقول: إن الحقيقة المحمدية لا تحتاج إلى محل تقوم به لأنها خلقت من النور، فهي من قبيل المجردات التي لا تحتاج إلى محل حتى يصح أنها أول ما خلق الله، وأما أن قلنا إنها تحتاج إلى محل فلابد من سبق المحل الذي تقوم به، فلا تتحقق لها الأولية كما أفاده أستاذنا السقا نقلا عن العلامة الأمير.

وقوله: **(ولا تاب عنه الله)** أي: من الذنب الصوري الذي اقترفه هو وزوجته حواء بالأكل من شجرة الحنطة بعد أن نهاهما الله عنها بقوله: ﴿**وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ [البقرة:35] وتسميتها «**شجرة**» مجاز لأن الشجر ما له ساق، وقيل: هي شجرة العنب، وإنما قلنا: من الذنب الصوري، لأنه لم يتعمد الأكل منها، وإنما أكل ناسيا، لقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه:115] وفي الحقيقة أن آدم لما اطلع على اللوح المحفوظ ورأى أنه سبق في علم الله أكله من الشجرة وعلم ما يترتب على نزوله إلى الأرض من تناسل الأنبياء والمرسلين وظهور سيد الأولين والآخرين بادر بتنفيذ القضاء، فتسمية ما فعله ذنبا بحسب الظاهر فقط،

لأنه وإن كان منهيا ظاهرا مأمور باطنا، ولذا قال بعض العارفين: لو كنت بدل آدم لأكلت الشجرة بتمامها، يعني حيث ترتب على ذلك النفع العام بظهور البدر التمام، وقد ورد أن آدم لما اقترف الخطيئة قال: يا رب أسألك بحرمة محمد إلا غفرت لي، فقال له: يا آدم وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه، فقال: يارب لما خلقتني ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعرفت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله تعالى: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي، وحيث سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

83	فَفِي فَضْلِهِ الْقُرْآنُ جَاءَ مُبَيِّناً	وَنَاهِيكَ قَوْلُ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ خِلْقَةِ

أي: ففي فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان عظيم قدره «**جاء**» القرآن الكريم حال كونه «**مبينا**» أي: موضح الدلالة على ذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: 45-46]إلى غير ذلك من الآيات المشعرة بما لجنابة المنيف من أعلى الدرجات فهو سيد الأولين والآخرين، وأفضل الخلائق أجمعين، كما قال اللقاني في جوهرته:

وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا فمل عن الشقاق
والانبيا يلونه في الفضل وبعدهم ملائكة ذو فضل

وما ألطف قول الإمام البوصيري:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفم

وحكي أنه رؤي ابن الفارض في المنام فقيل له: لِم لم تمدح النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال:

أرى كل مدح في النبي مقصرا وإن بالغ المثني عليه وأكثرا

إذ الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما تمدح الورى

ولذا قال المصنف: **«وناهيك»** أي: كافيك عن طلب غيره دليلا على فضله **«قول الله»** العلي العظيم الذي أنزل عليه **«من غير خلقه»** بل هو كلامه القديم.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

84	وَمَنْ قَالَ مَخْلُوقٌ كَلاَمُ إِلَهِنَا سَيَصْلَى سَعِيراً لِلْعُصَاةِ أُعِدَّتِ

أي: ومن قال أن القرآن الذي هو كلام الله تعالى مخلوق فإنه سيصلى أي: يدخل يوم القيامة سعيرا وهي طبقة من طبقات النار أعدت أي: هيئت للعصاة بل هو قال:

85	كَلاَمٌ قَدِيمٌ مُنْزَلٌ غَيْرُ مُحْدَثٍ بِهِ جَاءَ جِبْرِيلُ عَلَى خَيْرِ أُمَّةِ

أي: بل هو **(كلام)** الله الـ **(قديم)**، الـ **(منزل)** على نبيه العظيم، **(به جاء)** أي: نزل **(جبريل على)** أي: لأجل **(خير أمة)** وهي أمة محمد صلى الله عليه وسلم حبيب الرحمن ومجتباه، المنزل في شأنها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

وقد أنزل القرآن من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1]، ثم نزل به جبريل مفرقا على حسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة.

وقد روي في كيفية نزول القرآن أن الله تعالى إذا أراد إنزال سورة أو آية نظر بصفة العلم في قلب جبريل عليه السلام فحصل فيه علم ضروري، ثم نظر بصفة الكلام ففتق لسانه عليه السلام على ألفاظ القرآن مع النظم، فأنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فالناظم له في الحقيقة هو الله تعالى حيث فتق بلسان جبريل.

قال الإمام الشعراني في كتابه القواعد الكشفية: واعلم يا أخي أن مسألة كيفية كلام الله تعالى والكلام على حدوثه وقدمه من عضال المسائل، وقد حصل بسببها ضرب وقتل لبعض الأئمة، فلنذكر لك أحسن ما رأيناه من كلام المتكلمين، ثم ما رأيناه من كلام العارفين، فنقول وبالله التوفيق: اعلم أن القرآن يطلق بالاشتراك على

معنيين كما قال الكمال ابن أبي شريف؛ أحدهما: الكلام القائم بالذات الأقدس، الثاني: اللفظ المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم إن القرآن بالمعنى الأول محل نظر علماء أصول الدين، وبالمعنى الثاني محل نظر علماء العربية والفقه، ووجه الإضافة في تسمية كلام الله تعالى بالمعنى الأول أنه صفة الله تعالى، وبالمعنى الثاني أنه أنشأه برقومه في اللوح المحفوظ، لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: 21-22] أو بحروفه في لسان الملك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: 40]. ثم قال وقد منع السلف الصالح القول بكون القرآن مخلوقا بالمعنى الثاني، أدبا واحترازا عن ذهاب الوهم إلى القرآن بالمعنى الأول الذي هو كلام الله النفسي القائم بذاته تعالى.

وقال الإمام ابن العربي في الباب التاسع والستين وثلاثمائة المراد بقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: 2] أنه محدث الإتيان لهم لا الوجود فهو قديم في العين حادث في الإتيان، ثم قال: ومما يدلك على أن الكلام لله والترجمة للمتكلم قوله تعالى مقسما: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: 40] فأضاف الكلام إلى الواسطة والمترجم كما أضافه تعالى إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 6] فإذا تلي علينا القرآن فقد سمعنا كلام الله، وموسى عليه السلام لما كلمه ربه سمع كلام الله ولكن بين السماعين، أبعد من المشرقين، لأن الذي يدركه من سمع كلام الله بلا واسطة لا يساويه من يسمعه بالواسطة.

وقال في باب الأسرار: ذكر القرآن أمان، وبه يجب الإيمان أنه كلام الرحمن، مع تقطع حروفه في اللسان، ونظم حروفه فيما رقم باليراع والبنان، فحديث الألواح والأقلام، وما حدث الكلام، وحكم على العقول والأوهام، بما عجزت عن إدراكه الأفهام.

وقال فيه أيضا: الذكر القديم ذكر الحق، وإن حكى ما نطق به الخلق، كما أن ذكر الحادث ما نطق به الخلق وإن كان كلام الحق إذا كان الحق تعالى يتكلم على لسان عبده فالذكر قديم، ومزاجه بالعبد من تسنيم، لا يعرف الحق في هذه المسألة إلا من كان الحق قواه، ولا يكون قواه إلا إن أيده وقواه.

ثم قال: فإن قال قائل: فهل كان يجوز لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن

يتصرف فيما أنزل عليه بعبارة أخرى نظير جواز رواية الحديث بالمعنى للعارف؟

فالجواب لا يجوز لأحد أن يعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصرف في اللفظ المنزل عليه أو أنه رواه بالمعنى لأنه لو صح في حقه ذلك لكان مبينا لنا صورة فهمه صلى الله عليه وسلم لا صورة ما نزل عليه، وقد قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44] وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: 67] اهـ باختصار.

واعلم أن كلام الله تعالى لا يكيف كسائر صفاته من علم وإرادة وقدرة حتى لو سئل موسى عليه السلام كيف سمعت كلام ربك؟ لا يقدر على إيصال علم كيفية ذلك إلينا بعبارة، لأنه من جملة علوم الأذواق، كما لو قلت لمن ذاق طعم العسل دونك صف لي طعمه، فإنه لا يقدر على إيصال صورة ذوقه لك في عبارة، فافهم ذلك والله يتولى هداك.

ثم اعلم أن القرآن إنما نزل مفرقا ولم ينزل جملة كغيره من الكتب، لأن إنزاله كذلك فيه تثبيت لقلب من أنزل عليه وعناية لاستلزامه كثرة نزول الملك إليه، وجميع الكتب التي أنزلت من السماء مائة وأربعة، منها؛ خمسون صحيفة على شيت، وثلاثون على إدريس، وعشرة على إبراهيم، وعشرة على موسى قبل التوراة، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وزبور داود، وفرقان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين، وإنما سمي فرقانا لكونه فارقا بين الحق والباطل، كما أنه سمي قرآنا من القرء بفتح القاف وهو الجمع، لجمعه معاني الكتب السماوية جميعها.

وقد جمعه أبو بكر رضي الله عنه بإشارة عمر ثم جمعه ثانيا عثمان رضي الله عنه بإجماع الصحابة، والفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان، أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته، لأنه لم يكن مجموعا في موضع واحد في زمنه صلى الله عليه وسلم، لتردد الوحي بالناسخ والمنسوخ، وإنما كان بعض الصحابة يحفظ سورة والبعض سورا والبعض آيات ويكتبون ذلك في أوراق أو على عسيب النخل أو نحو ذلك، فجمعه أبو بكر في صحائف مرتبا لآياته وسوره على ما وقفهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فلا تتوهم من قول بعضهم:

مخلف طه سبحتان ومصحف

أن القرآن كان مجموعا في مصحف واحد على عهده صلى الله عليه وسلم،

وإنما المراد بعض آيات كانت مكتوبة أطلق عليها اسم المصحف مجازا، وأما جمع عثمان فكان لما كثر الاختلاف في وجوه القرآن من أهل العراق والشام حين قرؤوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض، فخشي من تفاقم الأمر واختلافهم فيه كما اختلفت اليهود والنصارى في كتبهم، فنسخ تلك الصحف في مصحف واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش نظرا لكونه نزل بلغتهم، وكان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم دفعا للحرج والمشقة في ابتداء الأمر، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت، واقتصر على لغة واحدة فكان التأليف للآيات والسور بالتوقيف في الزمن النبوي، والجمع في المصحف في زمن الصديق، والنسخ في المصاحف في زمن عثمان.

والمشهور أن عدة المصاحف التي أرسلها إلى الآفاق خمسة وقيل سبعة، وأمر بحرق ما عداها من الصحف، فأرسل مصحفا إلى مكة ومصحفا إلى الشام ومصحفا إلى اليمن ومصحفا إلى البحرين ومصحفا إلى الكوفة وأمسك مصحفا بالمدينة، وحفظ الله من الاختلاف كتابه المكنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9] وقد كانت الكتابة في المصاحف العثمانية وغيرها وكتب الحديث بالخط المسمى بالكوفي، واستمرت على ذلك مدة تقرب من ثلاثة قرون، إلى أن جاء بن مقلة في أواخر القرن الثالث وحولها إلى هذه الطريقة المعروفة وحاز بذلك فضيلة السبق، ثم جاء بعده علي ابن هلال الكاتب البغدادي وهذبها، وكانت المصاحف بدون شكل، لأن العرب لا تلحن بطبعها، فلا يلتبس عليها المرفوع مثلا بالمنصوب والمجرور حتى تحتاج للشكل الذي يميزه، ولكن لما كثرت الفتوح واختلطت العرب بالعجم وتغيرت ألسنتهم وسمع أبو الأسود الدؤلي من يقرأ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: 3] بكسر اللام بادر بوضع قواعد من علم العربية، كان أخذها عن الإمام علي كرم الله وجهه وشكل الكتاب العزيز بالحركات الثلاث والتنوين، وأما بقية الشكل كالشدة والمدة والقطعة فمن عمل الحجاج.

ثم اعلم أنه قد ورد في فضل القرآن أحاديث كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم: «**ما من شفيع أفضل منزلة عند الله تعالى من القرآن لا نبي ولا ملك**» ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: «**أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن**» ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: «**من**

قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي فضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه الله تعالى» ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: «**إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد**» قيل وما جلاؤها يا رسول الله قال: «**تلاوة القرآن وذكر الموت**» .

"**فائدة**" : قال الدميري من كتب هذه الآيات ووضعها في متاع أو غيره حفظ بإذن الله تعالى، ومن حملها معه حفظ بإذن الله ولم ير في نفسه ولا عياله مكروها، وإذا علقت على صبي حفظ من القرائن والتوابع وأم الصبيان ونشأ منشئا صالحا، قال: وحيث وصلت إليك هذه الذخيرة فعض عليها بالنواجد فمنافعها كثيرة، وهي: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: 96] ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: 10] ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: 42] ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: 18] ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23] ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 4-5] ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88-89] ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11] ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: 22].

وقال أيضا: ومما جرب لإذهاب الخوف والهم والغم أن يكتب هاتين الآيتين ويحملهما فإن الله تعالى يبارك له في جميع أحواله وينصره على أعدائه، وهما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154] وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 29] قال: وهما ينفعان أيضا للأمراض الباطنة والظاهرة التي تحدث في البدن كالدمامل والقروح والنفخ والحرارة ونحو ذلك، فيكتب الآيتين في إناء نظيف ويمحو بدهن ورد أو زيت طيب أو شيرج ويطلي به ذلك فإنه يبرأ. قال: وهما من الأسرار المخزونة.

ومن اللطائف أن بعض الأكابر كان يلتزم التكلم بالقرآن، خوفا من الوقوع فيما يغضب الرحمن فمن ذلك ما حكي أن عبد الله بن المبارك، قال: خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام، وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، فبينما أنا في بعض الطريق وإذا بسواد على الطريف فتميزته فإذا عجوز عليها درغ من صوف وخمار من صوف، فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقالت: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: 58]، فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان، فقالت: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: 186]، فعلمت أنها ضالة عن الطريق، فقلت لها أين تريدين، فقالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: 1]، فعلمت أنها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس، فقلت لها: كم لك في هذا الموضع، فقالت: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: 10]، فقلت لها: ما أرى معك طعام تأكلين منه، فقالت: ﴿هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: 79]، فقلت فبأي شيء تتوضئين، فقالت: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: 43]، فقلت لها: إن معي طعاما فهل لك في الأكل، فقالت: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: 187]، فقلت: ليس هذا شهر صيام رمضان، فقالت: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 157]، فقلت: قد أبيح لنا الإفطار في السفر، فقالت: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 184]، فقلت: لم لا تكلميني مثل ما أكلمك، فقالت: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18]، فقلت: فمن أي الناس أنت، فقالت: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36]، فقلت قد أخطأت فاجعليني في حل، فقالت: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: 92]، فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة، فقالت: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة197] ، قال: فأنختها، فقالت: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: 30] فغضضت بصري عنها، وقلت لها: اركبي، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: 30]، قلت لها: اصبري حتى أعقلها، فقالت: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ﴾ [الأنبياء: 79]، فعقلت الناقة، وقلت لها: اركبي فلما ركبت، قالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: 13-14]، قال: فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح فقالت: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ

مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: 19]، فجعلت أمشي رويدا رويدا وأترنم بالشعر، فقالت: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: 20]، فقلت لها: ألك زوج، فقالت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: 101]، فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة، فقلت لها: هذه القافلة فمن لك فيها فقالت: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 46] فعلمت أن لها أولادا فقلت: وما شأنهم في الحج، فقالت: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16]، فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها الخيام، وقلت: هذه الخيام فمن لك فيها: فقالت: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ([النساء125] ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164] ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: 12] فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا فلما استقر بهم الجلوس قالت: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: 19] فمضى أحدهم فاشترى طعاما فقدموه بين يدي فقالت: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 24]، فقلت: الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها، فقالوا: هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن، فقلت: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: 4].

غير أنه لا ينبغي التكلم بالقرآن إذا خرج عن حده كما يحصل من بعض أفراد طلبة العلم وفقهاء الأرياف.

ثم إن المصنف رضي الله عنه صرح باسم من به توسل ونعته الذي فاق به غيره من الرسل الكمل فقال:

86	مُحَمَّدٌ الْمَبْعُوثِ لِلْخَلْقِ رَحْمَةً وَدَعْوَتُهُ فِيمَا سِوَى اللَّهِ عَمَّتِ

أي: أن الذي توسلت بجاهه هو سيدنا **(محمد)** الذي حمده أهل السماء والأرض ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. واتفق النسابون على صحة النسب إلى عدنان، وأما فوقه ففيه نزاع. وأمه صلى الله عليه وسلم آمنة بنت وهب

ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة الخ.

وقوله: **(المبعوث)** أي: المرسل للخلق كافة لا فرق بين العرب والعجم ولا بين الإنس والجن قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158] وإذا قيل: إن لفظ «**الناس**» لا يشتمل الجن على بعض الأقوال، فنقول: دليل إرساله للجن قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: 1-2] وهم مكلفون من حين الخلقة وأما إرساله صلى الله عليه وسلم للملائكة فإرساله تشريف لا تكليف، لأنهم معصومون من المخالفة كما قال تعالى في حقهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6] وفي الحقيقة هو الرسول الأعظم لجميع الناس، والأنبياء السابقون نواب عنه، كما قال الإمام البوصيري:

كأنه شمس فصل هم كواكبها يظهرون أنوارها للناس في الظلم

فشرعه صلى الله عليه وسلم قد نسخ جميع الشرائع السابقة عليه، كما قال اللقاني:

ونسخه لشرع غيره وقع حتما أذل الله من له منع

وفي الحديث الشريف: «**لو جئت في زمن موسى ما وسعه إلا إتباعي**» وكانت بعثته صلى الله عليه وسلم **(رحمة) (للخلق)** كلهم مؤمنهم وكافرهم بالهداية للمؤمن، تأخير العذاب عن الكافر، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33] في الحديث الشريف: «**إنما أنا رحمة مهداة**» وورد أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل: «**هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟**» فقال: كنت أخشى العاقبة فأمنت.

وقد أكد المصنف تعميم بعثته للخلق بقوله: **(ودعوته فيما سوى الله تعالى عمت)** أي: ودعوته الناس للإسلام عمت وفشت فيما سوى الله تعالى، ومعلوم أن ما سوى الله اسم لجميع العوالم من إنس وجن وملك، بل قيل: إن بعثته عمت الحيوانات والجمادات، بدليل شهادة الضب له صلى الله عليه وسلم بالرسالة وإجابة دعوته، وتسبيح الحصى في يده.

وقد توفي صلى الله عليه وسلم عن مائة ألف وأربعة وعشرين ألفا من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وجعلنا من التابعين لهم بإحسان إلى يوم

الدين، ولما كان نبينا صلى الله عليه وسلم هو الواسطة العظمى في نعمة كل إنسان وجب علينا مدحه والثناء عليه، لقوله تعالى ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: 60] ولكن لعلمي بقصور باعي عن مدح هذا الجناب المنيف، وعجز يراعي عن رقم ما يليق بمنصبة الشريف، استحسنت أن أزين كتابي بما نمقه سلطان العاشقين للحضرة المحمدية سيدي محمد البوصيري في قصيدته اللامية حبا في نشر محاسن الحبيب المحبوب ورجاء أن أنال بذلك منه كل مطلوب ومرغوب، فإنها اشتملت على غرر الخصائص الشريفة التي تزري بقلائد العقيان واحتوت على المعجزات المنيفة التي يشف بها سمع المحبين لإنسان عين كل إنسان، وقد ابتدأها بجملة من التصوف ترشد المريد إلى سلوك سبيل الرشاد، فقال رضي الله عنه موفيا بالمراد:

إلى متى أنت باللذات مشغول ... وأنت عن كل ما قدمت مسؤول
في كل يوم تُرَجِّي أن تتوب غدا ... وعقدُ عزمك بالتسويف محلول
أما يرى لك فيما سَرَّ من عمل ... يوما نشاط وعما ساء تكسيل
فجرد العزم إن الموت صارمه ... مجرد بيد الآمال مسلول
واقطع حبال الأماني التي اتصلت ... فإنما حبلها بالزور موصول
أنفقت عمرك في مال تحصله ... وما على غير إثم منك محصول
ورحت تعمر دارا لا بقاء لها ... وأنت عنها وإن عُمِّرت منقول
جاء النذير فشمر للمسير بلا ... مهل فليس مع الإنذار تمهيل
وصن مشيبك عن فعل تشان به ... فكل ذي صبوة بالشيب معذول
لا تنكرنه وفي الفودين قد طلعت ... منه الثريا وفوق الرأس إكليل
فإن أرواحنا مثل النجوم لها ... من المنية تسيير وترحيل
وإن طالعها منا وغاربها ... جيل يمر ويأتي بعده جيل
حتى إذا بعث الله العباد ... إلى يوم به الحكم بين الخلق مفصول
تبين الربح والخسران في أمم ... تخالفت بيننا منها الأقاويل
فأخسر الناس من كانت عقيدته ... في طيها لنشور الخلق تعطيل
وأمة تعبد الأوثان قد نُصبت ... لها التصاوير يوما والتماثيل

وأمة ذهبت للعجل عابدة فنالها من عذاب الله تعجيل
وأمة زعمت أن المسيح لها رب غدا وهو مصلوب ومقتول
فثلثت واحدا فردا نوحده وللبصائر كالأبصار تخييل
تبارك الله عما قال جاحده وجاحد الحق عند النصر مخذول
والفوز في أمة ضوء الوضوء لها قد زانها غرر منه وتحجيل
تظل تتلوا كتاب الله ليس به كسائر الكتب تحريف وتبديل
فالكتب والرسل من عند الإله أتت ومنهمو فاضل حقا ومفضول
والمصطفى خير خلق الله كلهم له على الرسل ترجيح وتفضيل
محمد حجة الله التي ظهرت بسنة ما لها في الخلق تحويل
نجل الأكارم والقوم الذين لهم على جميع الأنام الطول والطول
من كمل الله معناه وصورته فلم يفته مدى الحالين تكميل
وخصه بوقار منه قر له في أنفس الخلق تعظيم وتبجيل
بادي السكينة في سخط له ورضا فلم يزل وهو مرهوب ومأمول
يقابل البشر منه بالندى خلق ذاك على العدل والإحسان مجبول
من آدم ولحين الوضع جوهره الـ ـمكنون في أنفس الأصداف محمول
فللنبوة إتمام ومبتدأ به وللفخر تعجيل وتأجيل
أتت إلى الناس من آياته جمل أعيت على الناس منهن التفاصيل
أنبا سُطَيْحٌ وشِقٌّ وابنُ ذي يَزَنٍ عنه وقُسٌّ وَأَحبارٌ مقاويل
وعنه أنبأ موسى والمسيح وقد أصغت حوارِيُّهُ الغُرُّ البهاليل
بأنه خاتم الرسل المباح له من الغنائم تقسيم وتنفيل
وليس أعدل منه الشاهدون له ولا بأعلم منه إن همو سيلوا
وإن سألتهمو عنه فلا حرج إن المحك عن الدينار مسؤول
كم آية ظهرت في حين مولده به البشائر منها والتهاويل
علوم غيب فلا الأرصاد حاكمة ولا التقاويم فيها والتحاويل
إذ الهواتف والأنوار شاهدها لدى المسامع والأبصار مقبول

ونار فارس أضحت وهي خامدة ونهرهم جامد والصرح مثلول
ومذ هدانا إلى الإسلام مبعثه دهى الشياطين والأصنام تجديل
وانظر سماء غدت مملوءة حرسا كأنها البيت لما جاءه الفيل
فردت الجن عن سمع ملائكة إذ ردت البشر الطير الأبابيل
كل غدا وله من جنسه رصد للجن شهب وللإنسان سجيل
لولا نبي الهدى ما كان في فلك على الشياطين للأملاك توكيل
لما تولت تولى كل مسترق عن مقعد السمع منه وهو معزول
إن رمت أكبر آيات وأكملها كفاك من محكم القرآن تنزيل
وانظر فليس كمثل الله من أحد ولا كقول أتى من عنده قيل
لو يستطاع له مثل لجيء به والمستطاع من الأعمال مفعول
لله كم أفحمت أفهامنا حكم منه وكم أعجز الألباب تأويل
يهدي إلى كل رشد حين يبعثه إلى المسامع ترتيب وترتيل
تزداد منه على تَرْداده مَقَةً وكل قول على الترداد مملول
وربما مجَّهُ قَلْبٌ به ريب كما يمج دواء الداء معلول
ما بعد آياته حق لمتبع والحق ما بعده إلا الأباطيل
وما محمد إلا رحمة بعثت للعالمين وفضل الله مبذول
هو الشفيع إذا كان المعاد غدا واشتد للحشر تخويف وتهويل
فما على غيره للناس معتمد ولا على غيره للناس تعويل
إن امْرَأً شملته من شفاعته عناية لامرؤ بالفوز مشمول
نال المقام الذي ما ناله أحد وطالما ميز المقدار تنويل
وأدرك السؤل لما قام مجتهدا وما بكل اجتهاد يدرك السول
لو أن كل علا بالسعي مكتسب ما جاز حين نزول الوحي تزميل
أعلى المراتب عند الله رتبته فاعلم فما موضع المحبوب مجهول
مِن قَابِ قوسينِ أو أدنى له نُزُل وحق منه له مثوى وتحليل
سرى إلى المسجد الأقصى وعاد به ليلا براق يباري البرق هذلول

يا حبذا حال قرب لا أُكَيِّفه وحبذا وصل عنه مغفول
وكم مواهب لم تدر العباد بها أتت إليه وستر الليل مسدول
هذا هو الفضل لا الدنيا وما رجحت به الموازين منها والمكاييل
وكم أتت عن رسول الله بينة في فضلها وافق المنقول معقول
نور فليس له فيء يرى وله من الغمامة أنى سار تظليل
ولا يرى في الثرى أثر لأخمصه إذا مشى وله الصخر توحيل
دنا إليه حنين الجذع من شغف إذنا له منه بعد القرب تزييل
فليت من وجهه حظي مقابلة وليت حظي من كفيه تقبيل
بيض ميامين يستسقى الغمام بها للشمس منها وللأنواء تخجيل
ما إن يزال بها في كل نازلة للقل كثر وللتعصيب تسهيل
فاعجب لأفعالها إن كنت مدركها واطرب إذا ذكرت لك الأقاويل
كم عاود البرء من إعلاله جسدا بلمسه واستبان العقل مخبول
ورد ألفين في ري وفي شبع إذ ضاق باثنين مشروف ومأكول
ورد ماء ونورا بعد ما ذهبا ريق له بكلا العينين متفول
ومنبع الماء عذبا من أصابعه وذاك صنع به فينا جري النيل
وكم دعا ومحبا الأرض مكتئب ثم انثنى وله بشر وتهليل
فأصبح المحل فيها لا محل له وعال ذكر الغلا من خصبها غول
فبالظراب ضروب للغمام كما عن البناء عز إليها معازيل
وآض من روضها جيد الوجود به من لؤلؤ النور ترصيع وتكليل
وعسكر لجب قد لج في طلب لغزوه غره بأس وترعيل
دعا نزال فولى والبوار به من الصبار والحصى والرعب منزول
وا غيرتا حين أضحى الغار وهو به كمثل قلبي معمور ومأهول
كأنما المصطفى فيه وصاحبه الصديق ليثان قد آواهما غيل
وجلل الغار نسج العنكبوت على وهن فيا حبذا نسج وتجليل
عناية ضل كيد المشركين بها وما مكايدهم إلا الأضاليل

إذ ينظرون وهم لا يبصرونهما كأن أبصارهم من زيغها حول
أن يقطع الله عنه أمة سفهت نفوسها فلها بالكفر تعليل
فإنما الرسل والأملاك شافعها لوصلة منه تسآل وتطفيل
ما عذر من منع التصديق منطقه وقد نبا عنه محسوس ومعقول
والذئب والعير والمولود صدقه والظبي أفصح نطقا وهو محبول
والبدر بادر منشقا بدعوته له كما شق جيب وهو مبتول
والنخل أثمر في عام وسر به سلمان إذ بسقت منه العثاكيل
إن أنكرته النصارى واليهود على ما بينت منه توراة وإنحيل
فقد تكرر منهم في جحودهم للكفر كفر وللتجهيل تجهيل
قل للنصارى الأولى ساءت مقالتها فما لها غير محض الجهل تعليل
من اليهود استفدتم ذا الجحود كما من الغراب استفاد الدفن قابيل
فإن عندكمو توراتهم صدقت ولم تصدق لكم منهم أناجيل
ظلمتمونا فأضحوا ظالمين لكم وذاك مثل قصاص فيه تعديل
منكم لنا ولكم من بعضكم شغل والناس بالناس في الدنيا مشاغيل
لقد علمتم ولكن صدكم حسد أنا بما جاءنا قوم مقابيل
أما عرفتم نبي الله معرفة الأبناء لكنكم قوم مناكيل
هذا الذي كنتمو تستفتحون به لولا اهتدى منكمو للرشد ضليل
فلا ترجوا جزيل الأجر من عمل إن الرجاء من الكفار مخذول
تؤذنون بزق من جهالتكم به انتفاخ وجسم فيه ترهيل
موتوا بغيظ كما قد مات قبلكمو قابيل إذ قرب القربان هابيل
يا خير من رويت للناس مكرمة عنه وفصل تحريم وتحليل
كم قد أتت عنك أخبار مخبرة في حسنها أشبه التفريع تأصيل
تسري إلى النفس منها كلما وردت أنفاس ورد سرت والورد مطلول
من كل لفظ بليغ راق جوهره كأنه السيف ماض وهو مصقول
لم تبق ذكرا لذي نطق فصاحته وهل تضيء مع الشمس القناديل

جاهدت في الله أبطال الضلال إلى ... أن ظل للشرك بالتوحيد تظليل
شكا حسامك ما تشكو جموعهمو ... ففيه منها وفيها منه تفليل
لله يوم حنين حين كان به ... كساعة البعث تهويل وتطويل
ويوم أقبلت الأحزاب وانهزمت ... وكم خبا لهب بالشرك مشعول
جاءوا بأسلحة لم تحم حاملها ... إن الكماة إذا لم ينصروا ميل
من بعد ما زلزلت بالشرك أبنية ... وأنبت حبل بأيدي الريب مفتول
وظن كل امرئ في قلبه مرض ... بأن موعده بالنصر ممطول
فأنزل الله أملاكا مسومة ... لبوسها من سكينات سرابيل
شاكي السلاح فما تشكوا الكلال ومن ... صنع الإله لها نسج وتأثيل
من كل موضونة خضراء سابغة ... ترد حد المنايا وهو مفلول
وكل أبتر للحق المبين به ... وللضلالة تعديل وتمييل
لم تبق للشرك من قلب ولا سبب ... إلا غدا وهو متبول ومبتول
ويوم بدر إذ الإسلام قد طلعت ... به بدور لها بالنصر تكميل
سيئت بما سرنا الكفار منه وقد ... أفنى سراتهمو أسر وتقتيل
كأنما هو عرس فيه قد جليت ... على الظبا والقنا روس مفاصيل
والخيل ترقص زهوا بالكماة وما ... غير السيوف بأيديها مناديل
ولا مهور سوى الأرواح تقبلها الـ ... ـبيض البهائر والسمر العطابيل
ولو ترى كل وصل من كماتهم ... مفصلا وهو مكعوف ومشلول
كأحرف أشكلت خطا فأكثرها ... بالطعن والضرب منقوط ومشكول
وكل بيت حكى بيت العروض له ... بالبيض والسمر تقطيع وتفعيل
وداخلت بالردى أجزاءهم علل ... غدا المرفل منها وهو مجزول
وكل ذي ترة تغلي مراجله ... غدا يقاد ذليلا وهو مغلول
وكل جرح بجسم يستهل دما ... كأنه مبسم بالراح معلول
وعاطل من سلاح قد غدا وله ... أساور من حديد أو خلاخيل
والأرض من جثث القتلى مجللة ... والترب من أدمع الأحياء مبلول

غصت قلوب كما غص القليب بهم فللأسى فيهمو والنار تأكيل
وأصبح البئر إذ أهل البوار به مثل الوطيس به خرر رعابيل
وأصبحت أيمات محصناتهمو وأمهاتهمو وهي المثاكيل
لا نمسك الدمع من حزن عيونهمو إلا كما يمسك الماء الغرابيل
وصار فقرهمو للمسلمين عنى وفي المصائب تفويت وتحصيل
ورد أوجههم سودا وأعينهم بيضا من الله تنكيل وتشكيل
سالت وساءت عيون منهمو مثلا كأنما كلها بالشوك مسمول
أبغض بها مقلا قد أشبهت لبنا طفا الذباب عليه وهو ممقول
ويوم عم قلوب المسلمين أسا بفقد عمك والمفقود مجذول
ونال إحدى الثنايا الكسر في أحد وجاء يجبر منها الكسر جبريل
وفي مواطن شتى كم أتاك بها نصر من الله مضمون ومأمول
وملكت يدك اليمنى ملائكة غر كرام وأبطال بهاليل
يسارعون إذا ناديتهم لوغى إن الكرام إذا نودوا هذاليل
من كل نضو نحول ما يزال به إلى المكارم جد وهو مهزول
بنانه بدم الأقران مختضب وطرفه بسنا الإيمان مكحول
آل النبي بمن أو ما أشبهكم لقد تعذر تشبيه وتمثيل
وهل سبيل إلى مدح يكون به لأهل بيت رسول الله تأهيل
يا قوم بايعتكم أن لا شبيه لهم من الورى فاستقيلوا البيع أو قولوا
جاءت على تلو آيات النبي لهم دلائل هي للتاريخ تذييل
معاشر مارضوا إني لمبتهج بهم وما سخطوا إني لمثكول
وإن من باع في الدنيا محبتهم ببغضه الله في الأخرى لمرذول
وحسب من نكلت عنهم خواطره إن مات أو عاش تنكيل وتثكيل
إن المودة في قربى النبي غنى لا يستميل فؤادي عنه تمويل
وكم لأصحابه الغر الكرام يد عند الإله لها في الفضل تخويل
قوم لهم في الوغى من خوف ربهم حسن ابتلاء وفي الطاعات تبتيل

كأنهم في محاريب ملائكة ... وفي حروب أعاديهم رآبيل
حكى العباءة قلبي حين كان بها ... للآل تغطية والصحب تخليل
ولي فؤاد ونطق بالوداد لهم ... وبالمدائح مشغوف ومشغول
فإن ظننت بهم ختلا لبعضهم ... إني إذن بغرور النفس مختول
أئمة الدين كل في محاولة ... إلى صواب اجتهاد منه موكول
ليقضي الله أمرا كان قدره ... وكل ما قدر الرحمن مفعول
حسبي إذا ما منحت المصطفى مدحي ... في الحشر تزكية منه وتعديل
مدح به ثقلت ميزان قائله ... وخف عنه من الأوزار تثقيل
وكيف تأبى جني أوصافه همم ... يروقها من قطوف العز تذليل
وليس يدرك أدنى وصفه بشر ... أيقطع الأرض ساع وهو مكبول
كل البلاغة عي في مناقبه ... إذا تفكرت والتكثير تقليل
لو أجمع الخلق أن يحصوا مناقبه ... أعيتهمو جملة منها وتفصيل
عذرا إليك رسول الله من كلمي ... إن الكريم لديه العذر مقبول
إن لم يكن منطقي في طيه عسل ... فإنه بمديح منك معسول
ها حلة بخلال منك قد رقمت ... ما في محاسنها للعيب تخليل
جاءت بحبي وتصديقي إليك وما ... حبي مشوب ولا التصديق مدخول
ألبستها منك حسنا فازدهرت شرفا ... بها الخواطر منا والمناويل
لم أنتحلها ولم أغصب معانيها ... وغير مدحك مغصوب ومنحول
وما على قول كعب أن توازيه ... وربما وازن الدر المثاقيل
وهل توازنه حسنا ومنطقها ... عن منطق العرب العرباء معدول
وحيث كنا معا نرمي إلى غرض ... فحبذا ناضل منا ومنضول
إن أقف آثاره إني الغداة بها ... على طريق نجاح منك مدلول
لما غفرت له ذنبا وصنت دما ... لولا ذمامك أضحى وهو مطول
رجوت غفران ذنب موجب تلف ... له من النفس إملاء وتسويل
وليس غيرك لي مولى أؤمله ... عند الإله وحسبي منك تأميل

ولي فؤاد محب ليس ينفعه ... غير اللقاء ولا يشفيه تعليل
يميل بي لك شوقا أو يخيل لي ... كأنما بيننا من شقة ميل
يهم بالسعي والأقدار تمسكه ... وكيف يعدو جواد وهو مشكول
متى تجوب رسول الله نحوك بي ... تلك الجبال نجيبات مراسيل
وأنثني ويدي بالفوز ظافرة ... وثوب ذنبي من الآثام مغسول
في معشر أخلصوا لله دينهمو ... وفوضوا إن همو نالوا وإن نيلوا
شعث لهم من ثرى البيت الذي شرفت ... به النبيون تطييب وتكحيل
محلقي أرؤسا زيدت وجوههمو ... حسنا به فكأن الحلق ترجيل
قد رحب البيت شوقا والمقام بهم ... والحجر الملثوم والميل
نذرت إن جمعت شملي ببابك أو ... شفت فؤادي به قوداء شمليل
أبل من طيبة بالدمع طيب ثرى ... لغلتي وغليلي منه تبليل
دامت عليك صلاة الله يكفلها ... من المهيمن إبلاغ وتوصيل
ما لاح ضوء صباح فاستسر به ... من الكواكب قنديل فقنديل

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

87 | **عَلَيْهِ صَلاَةُ اللَّهِ مَا هَبَّتِ الصَّبَا ... وَمَا نَاحَ طَيْرٌ فَوْقَ غُصْنٍ أَرِيكَةِ**

أي: أطلب أن تتوارد عليه صلاة الملك الرحيم، وهي رحمته المقرونة بالتعظيم، وتدوم ما دام هبوب الصبا بفتح الصاد المهملة وهي الريح التي تأتي من جهة الشرق ويقال لها القبول بفتح القاف، وهي القائل فيها صلى الله عليه وسلم: «**لما نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور**» وإنما أتى بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في الحديث: «**من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب**» قوله: «**وما ناح**» أي: صاح طير كحمام وقمري، أي: ومدة صياح الطيور فوق غصن، أي: فرع أريكة بفتح الهمزة وكسر الراء، أي: شجرة أراك ونحوها، والغرض من ذلك طول المدة التي تتوارد فيها الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، فالمقصود التأبيد. وفي الحديث: «**إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم**

علي صلاة». وقال صلى الله عليه وسلم: **«أتاني جبريل ببشارة لم يأتني بمثلها قط فقال: من صلى عليك مرة واحدة صلى الله عليه بها عشرا ومن صلى عليك عشرا صلى الله عليه بها مائة ومن صلى عليك مائة صلى الله عليه بها ألفا ومن صلى عليك ألفا حرم الله جسده على النار»** ولله در من قال:

إن شئت من بعد الضلالة تهتدي صل على الهادي البشير محمد
يا فوز من صلى عليه فإنه يحوي الأماني بالنعيم السرمدي
يا قومنا صلوا عليه لتظفروا بالبشر والعيش الهني الأرغد
ويخصكم رب الأنام بفضله والفوز بالجنات يوم الموعد
صلى عليه الله جل جلاله ما لاح في الآفاق نجم الفرقد

ثم أتى المصنف بالسلام لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56] فقال:

88 | وَتَسْلِيمُهُ الأَزْكَى عَلَيْهِ يَحُفُّهُ وَرِضْوَانُهُ عَنْ آلِهِ وَالصَّحَابَةِ

والتسليم من الله على نبيه الكريم، معناه التحية اللائقة بجنابه العظيم، والأزكى معناه الأطيب، وقوله: «يحفه« أي: يحيط به من كل جانب، ولما كان الترضي عن الآل والصحب مطلوبا طلبا أكيدا قال المصنف: **«ورضوانه عن آله والصحابة»**، وكما يستحب الترضي عن الآل والصحب يستحب الترضي عن العلماء العاملين، وعباد الله الصالحين، خلافا لقول بعضهم: يقال في حق العالم مثلا رحمه الله ولا يقال رضي الله عنه فإنه تحجير على فضل الله.

ثم إنه يختلف تفسير آله صلى الله عليه وسلم باختلاف المقامات ففي مقام الزكاة هم الذين تحرم عليهم الزكاة كبني هاشم وفي مقام المدح أهل بيته الكرام، الذين بحبهم وبزيارتهم يبلغ العبد المراد. وفي الحديث: **«ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له»**، ولله در القائل:

أرى حب آل البيت عندي فريضة على رغم أهل البعد يورثني القربا
فما اختار خير الخلق منا جزاؤه على هدية إلا المودة في القربى

وهم أهل العباء الذين جمعهم النبي صلى الله عليه وسلم تحت الكساء،

وقال: «**اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا**» فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33] وهم الحسن والحسين وأمهما وأبوهم كما قال بعض الأفاضل:

إن النبي محمدا ووصيه ... وابنيه وابنته البتول الطاهرة
أهل العباء وإنني بولائهم ... أرجو السلامة والنجا في الآخرة

وقال بهاء الدين العاملي:

وثقت بعفو الله عني في غد ... وإن كنت أدري أنني المذنب العاصي
وأخلصت حبي في النبي وآله ... كفى في خلاصي يوم حشري إخلاصي

وأما في مقام الدعاء كما هنا فكل مؤمن به صلى الله عليه وسلم.

والصحابة جمع صحابي، وهو من اجتمع به صلى الله عليه وسلم اجتماعا متعارفا فيدخل في ذلك عيسى عليه السلام، فإنه اجتمع به صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء في بيت المقدس اجتماعا متعارفا، وهو حي لأن الله تعالى رفعه إلى السماء حيا ونزل إلى بيت المقدس ليلة الإسراء لمقابلته صلى الله عليه وسلم، فهو أفضل الصحابة وآخر من يموت منهم، وفيه ألغز التاج السبكي بقوله:

من باتفاق جميع الناس أفضل من ... خير الصحاب أبي بكر ومن عمر
ومن علي ومن عثمان وهو فتى ... من أمة المصطفى المختار من مضر

89 | وَعَنْ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدٍ ... وَنُعْمَانَ وَالثَّوْرِي وَبَاقِي الأَئِمَّةِ

أي: **(و)** رضوان الله تعالى **(عن)** الإمام **(مالك)** بن أنس إمام دار الهجرة ونجم السنة الذي كان مكتوبا على فخذه بقلم القدرة مالك حجة الله في أرضه، وفي الحديث «**يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة**». وناهيك قول الإمام الشفعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب وما أحد أمن على من مالك، وقال: كنت أتصفح الورقة بين يدي مالك تصفحا رقيقا هيبة له لئلا يسمع وقعها، كما قيل فيه:

يأبى الجواب فلا يراجع هيبة ... والسائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار وعز سلطان التقى ... فهو المطاع وليس ذا سلطان

وقد ثبت أن الإمام أبا حنيفة مع كونه أسن منه تلقى عنه بعض أحاديث، ولد رضي الله عنه سنة ثلاث وتسعين من الهجرة على الأصح، وقيل: سنة تسعين، ومكث في بطن أمه ثلاث سنين، وقيل: سنتين. ومات سنة تسع وسبعين ومائة عن سبع وثمانين سنة، وأقام مفتيا بالمدينة ستين سنة، ودفن بالبقيع الشربف، وعلى مقامه من الأنوار ما يليق بمقامه المنيف، وفي الليلة التي مات فيها رأى عمر بن يحيى بن سعيد الأنصاري قائلا يقول:

لقد أصبح الإسلام زعزع ركنه غداة ثوى الهادي إلى ملحد القبر
إمام هدي ما زال للعلم صائنا عليه سلام الله في آخر الدهر

قال فانتبهت وكتبت البيتين على السراج وإذا الصارخة على مالك، كان رضي عنه عابدا زاهدا مبالغا في تعظيم علم الدين، حتى كان إذا أراد أن يقرأ الحديث توضأ وسرح لحيته واستعمل الطيب ومنع الناس أن يرفعوا أصواتهم ثم جلس في صدر المجلس على وقار وهيبة، فقيل له ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبلغ من تعظيمه للحديث أنه لدغته عقرب وهو يحدث ست عشرة مرة، فصار يصفر ويلتوي حتى تم المجلس ولم يقطع كلامه.

وكتب بيده مائة ألف حديث، وجلس للتدريس وهو ابن تسع عشرة سنة، وكان الناس يزدحمون على بابه لأخذ الحديث والفقه كازدحامهم على باب السلطان، وكان له حاجب يأذن أولا للخاصة، فإذا فرغوا أذن للعامة، وكان إذا أكثروا السؤال قال: حسبكم، من أكثر فقد أخطأ، ومن أحب أن يجيب عن كل مسألة فليعرض نفسه على الجنة والنار ثم يجيب، وقد أدركناهم إذا سئل أحدهم فكأن الموت أشرف عليه.

وكان يقول: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه لا أدري ليكون أصلا لهم يفزعون إليه، وقد سئل عن ثمانية وأربعين مسألة، فقال في ثنتين وثلاثين منها: لا أدري، وكان لا يدخل الخلاء إلا كل ثلاثة أيام مرة، ويقول: والله قد استحييت من كثرة ترددي للخلاء، وقيل له: كيف أصبحت؟ فقال: في عمر ينقص وذنوب تزيد.

ولما ألف الموطأ اتهم نفسه في الإخلاص فيه فألقاه في الماء، وقال: إن ابتل فلا حاجة لي به، فلم يبتل منه شيء، وقال له هارون الرشيد يوما: يا أبا عبد الله ينبغي أن تتردد علينا حتى تسمع صبياننا منك الموطأ، فقال له: أعز الله مولانا الأمير

إن هذا العلم منكم خرج، فإن أنتم أعززتموه عز، وإن أنتم أذللتموه ذل، العلم يؤتى ولا يأتي، فقال: صدقت يا أبا عبد الله، ثم قال لأولاده: أخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس.

وكان إذا دخل بيته يكون شغله تلاوة القرآن في المصحف. وكان يقول: بلغني أن العلماء يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وكان يقول: مثل المنافقين في المسجد كمثل العصافير في القفص، إذا فتح باب القفص طارت العصافير.

وقد أخذ رضي الله عنه العلم عن تسعمائة شيخ، منهم ثلاثمائة من التابعين، ثم إن بعض مشايخه أخذ عنه، فسبحان الله ذي الفضل العظيم. وكان رضي الله عنه يقول: ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يضعه الله تعالى في القلب. وكان يقول: حق على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية. وكان يقول: لا ينبغي للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيعه، فإنه ذل وإهانة للعلم.

ولما منعه جعفر بن سلمان من رواية الحديث في طلاق المكره، وحمله على بعير وقال له: ناد على نفسك، لم يمتنع رضي الله عنه من روايته، بل قال وهو على تلك الحالة: ألا من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس، أقول: طلاق المكره ليس بشيء، فبلغ ذلك جعفر، فقال: أدركوه وأنزلوه.

واتفق أن امرأة غسلت امرأة فالتصقت يدها بفرجها، فتحير الناس في قطعها أو قطع فرج الميتة، فاستفتوه في ذلك، فقال: سلوها ما قالت حين وضعت يدها عليها، فسألوها فقالت: قلت: طالما عصى هذا الفرج ربه، فقال: اجلدوها حد القذف، فجلدوها ثمانين جلدة فخلصت يدها، فمن ثم قيل: لا يفتى ومالك بالمدينة.

ثم قال المصنف: **(والشافعي)** أي: ورضوان الله تعالى عن الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، الوارد فيه: **«عالم قريش يملأ طباق الأرض علما»**، ولد بغزة سنة خمسين ومائة يوم وفاة أبي حنيفة، ثم رحل إلى مكة وهو ابن سنتين، ونشأ يتيما في حجر أمه، وحفظ القرآن وهو ابن تسع سنين، وحفظ موطأ الإمام مالك في تسع ليالي وهو ابن عشر سنين، وتفقه على مسلم بن خالد مفتي مكة وأذن له في الفتوى وهو ابن خمس عشرة سنة، وكان يكثر التردد على الإمام مالك بالمدينة

ويأخذ عنه العلم، وكان يجالس العلماء ويكتب ما يستفيده على العظام ونحوها لأنه كان في قلة من العيش، وقد قسم الإمام مالك عليه ماله ثلاث مرات، ولكثرة كرمه وإنفاقه ما كان يدخر شيئا.

ثم رحل إلى بغداد وصنف فيها كتابه القديم، ثم عاد إلى مكة فأقام بها مدة، ثم رجع إلى بغداد، ثم خرج منها إلى مصر وأقام بها أربع سنين، وصنف كتبه الجديدة ولم يزل ناشرا لواء العلم بجامعها العتيق إلى أن مات سنة أربع ومائتين، ودفن بالقرافة في دار ابن الحكم، وعلى مقامه من الأنوار ما يبهر الزوار. ومما جرب لقضاء الحوائج أن يقول الزائر هذه الأبيات التي قالها سيدي أحمد البدوي عند زيارته:

يا إماما يرجى لكل ملم وهماما يرد بأس القوي
يا حسيبا إنا عليك حسبنا ودخلنا في كهفك المحمي
وبظل الجناب منك احتمينا من عدو وحاسد وبغي

وله دعاء مشهور بالإجابة وهو: «**اللهم يا لطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير**» فمن واظب عليه كل يوم مائة وإحدى وأربعين مرة كان محفوظا من شر الحوادث. وكان رضي الله عنه يقول: لا شيء أزين للعلماء من الفقر والقناعة والرضا بهما. وكان يقول: جمال العلماء هو كرم النفس، وزينة العلم الورع والحلم. وكان يقول: لا عيب بالعلماء أقبح من رغبتهم فيما زهدهم الله فيه. وكان يقول: من طلب العلم بعز النفس لم يفلح، ومن طلبه بذل النفس وخدمة العلماء أفلح. وكان يقول: أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه، ورغب في مودة من لا ينفعه، وقبل مدح من لا يعرفه. وكان يقول: طلب فضول الدنيا عقوبة عاقب الله بها أهل التوحيد. وكان يمشي على العصا فقيل له في ذلك، فقال: لأذكر أني مسافر من الدنيا. وكان يقول من غلبته شدة الشهود للدنيا لزمته العبودية لأهلها. وكان يقول: من أحب أن يفتح الله تعالى عليه بنور القلب فعليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذين لا يريدون بعلمهم إلا الدنيا. وكان يقول: ما شبعت منذ ست عشرة سنة لأن الشبع يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة، فانظر إلى حكمته في ذكر آفات الشبع. وسئل عن مسألة فسكت، فقيل له: ألا تجيب رحمك الله، فقال: حتى أرى

الفضل في سكوتي أو في جوابي، فانظر إلى مراقبته للسانه.

وكان رضي الله عنه شديد الخوف والوجل، حكي أنه سمع القارئ يقرأ: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: 35-36] فتغير لونه واقشعر جلده وخر مغشيا عليه، فلما أفاق قال: أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين، اللهم لك خضعت قلوب العارفين وذلت لك رقاب المشتاقين، إلهي هب لي جودك وجللني بسترك واعف عن تقصيري بكرم وجهك. وقال له بعض أصحابه: علمني مما علمك الله، فقال له: اعلم أن من صدق الله نجا، ومن أشفق على دينه سلم من الردى، ومن زهد في الدنيا قرت عيناه بما يراه من ثواب الله غدا، ثم قال: أفلا أزيدك؟ قال: نعم، قال: من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان؛ من أمر بالمعروف وائتمر، ونهى عن المنكر وانتهى، وحافظ على حدود لله تعالى، ثم قال: ألا أزيدك؟ قال: بلى، قال: كن في الدنيا زاهدا، وفي الآخرة راغبا، واصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين.

وكان يقول: ما كلمت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى، ولا أبالي ظهر الحق على لساني أو على لسانه. وكان يقول: لو اجتهدت كل الجهد على أن ترضي كل الناس فلا سبيل إلى ذلك، فأخلص عملك ونيتك لله. ولما حضرته الوفاة أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما

وقال رضي الله عنه:

بموقف ذلي دون عزتك العظمى ... بمخفي سر لا أحيط به علما
بإطراق رأسي باعترافي بذلتي ... بمد يدي أستمطر الجود والرحما
أسمائك الحسنى التي بعض وصفها لعزتها ... يستغرق النثر والنظما
بعهد قديم من ألست بربكم بمن ... كان مجهولا فعلمته الأسما
أذقنا شراب الأنس يا من إذا سقى ... محبا شرابا لا يضام ولا يظما

ثم قال المصنف: **(وأحمد)** أي: رضوان الله تعالى عن الإمام أحمد بن حنبل ناصر السنة، والصابر على المحنة. وقد بالغ أئمة السلف في مدح الظاهر والباطن

من حاله، وأطبقوا على تحسين ما صدر عنه من أقواله وأفعاله، وناهيك قول شيخه الإمام الشافعي: خرجت من بغداد وما خلفت فيها أورع ولا أتقى ولا أفقه ولا أعلم من أحمد. ولد سنة أربع وستين ومائة ومات سنة إحدى وأربعين ومائتين، ولما مات ارتجت الدنيا وهرع أهل بغداد للصلاة عليه بالصحراء، فكان يوما مشهودا اجتمع فيه للصلاة عليه ما ينوف عن تسعمائة ألف نفس ما بين رجال ونساء، وأسلم يوم موته من اليهود والنصارى والمجوس نحو عشرين ألفا، وبالجملة ففضائله كثيرة ومناقبه شهيرة.

نقل عنه أنه قال: رأيت رب العزة في المنام، فقلت: يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك؟ فقال: بكلامي يا أحمد، فقلت: بفهم أو بغير فهم؟ فقال: بفهم وبغير فهم. وكان إذا جاع أخذ الكسرة اليابسة فنفضها من الغبار ثم صب عليها الماء في قصعة حتى تبتل ثم يأكلها بالملح، وكانوا في بعض الأوقات يطبخون له في فخاره عدسا وشحما، وكان إذا مشى في الطريق لا يمكن أحدا يمشي معه، وكان يحيي الليل كله منذ كان غلاما، وكان له في كل يوم وليلة ختمة، وكان ورده كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة، فلما ضرب بالسياط أيام المحنة وهي القول بخلق القرآن، ضعف بدنه، فكان يصلي مائة وخمسين ركعة.

قال الفضيل بن عياض: حبس الإمام أحمد رضي الله عنه ثمانية وعشرين شهرا، وكان فيها يضرب كل قليل بالسياط إلى أن يغمى عليه، وينخس بالسيف، ثم يرمى على الأرض يداس عليه، ثم خلي عنه، وأول هذه المحنة كان في زمن المأمون سنة ثمان عشرة ومائتين، لكنه مات قبل أن يتمكن من قتل الإمام أحمد، وكان الذي أغراه على ذلك أحمد بن أبي داود، ولما مات المأمون أوصى المعتصم بحمل الناس على القول بذلك، ولما مات المعتصم وولي بعده الواثق أتى بشيخ مقيد فامتحنه ابن أبي داود، فقال له الشيخ: هذا هو الذي تقوله شيء علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه أو جهلوه؟ قال: بل علموه، فقال: هل دعوا إليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا؟ قال بل سكتوا، قال: فهل وسعك ما وسعهم من السكوت؟ فسكت ابن أبي داود، وأعجب الواثق كلام الشيخ وخلى سبيله، وقام الواثق من مجلسه وهو يقول: فهل وسعك ما وسعهم؟ وجعل يكررها.

ولما مات الواثق وولي بعده المتوكل رفع المحنة، وأظهر السنة، وكتب إلى الآفاق بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وخمدت المعتزلة وأَمَرَّ السنة بإحضار أحمد

وإكرامه.

ثم قال المصنف: **(ونعمان)** أي: رضوان الله تعالى عن الإمام أبي حنيفة النعمان الذي قال فيه الإمام مالك حين قيل له: هل رأيت أبا حنيفة؟ فقال: رأيت رجلا لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته. ولد بالأنبار سنة ثمانين، وتوفي بالسجن لتمنعه من القضاء بعد أن ضرب مائة سوط، وقيل: مات خارجه ببغداد سنة خمسين ومائة، وكان كثير العبادة، قيل: إنه صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة، ومع ذلك كان يكثر البكاء في آخر الليل بعد التهجد، ويقول:

فوا حزنا أن لا حياة هنيئة ولا عمل يرضى به الله صالح

ومن ورعه أنه كان لا يجلس في ظل جدار غريمه، ويقول: كل قرض جر نفعا فهو ربا. وكان يقول: إذا ارتشى القاضي فهو معزول وإن لم يعزله الإمام. وسئل رضي الله عنه أيما أفضل علقمة أو الأسود؟ فقال: والله ما نحن بأهل أن نذكرهم فكيف نفاضل بينهم. وكان يقول: جالست الناس منذ خمسين سنة، فما وجدت رجلا غفر لي ذنبا، ولا وصلني حين قطعته، ولا ستر علي عورة، ولا ائتمنته على نفسي إذا غضب، فالاشتغال بهؤلاء حمق كبير. وكان يقول: بلغني أن ليس في الدنيا أعز من فقيه ورع. وقال له رجل: إني أحبك، فقال: وما يمنعك من محبتي ولست جاري ولا ابن عمي. وكان يقول: لا ينبغي للقاضي أن يترك على القضاء أكثر من سنة، لأنه إذا مكث فيه أكثر من سنة ذهب فقهه.

ثم قال المصنف: **(والثوري)** أي: ورضوان الله تعالى عن الإمام أبي عبد الله سفيان الثوري بفتح المثلثة وإسكان الواو، ولد سنة سبع وتسعين، ومات بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة، وكان له مذهب وأتباع مقلدون له لكنهم انقرضوا بعد الخمسمائة، كان رضي الله عنه عالم الأمة وعابدها وزاهدها. وكان يقول: قد ظهر من الناس أمور يشتهي الرجل أن يموت قبلها. وكان يقول: إلهي إن البهائم يزجرها الراعي فتنزجر عن هواها، وأراني لا يزجرني كتابك عما أهواه، فيا سوأتاه. وكان يقول: أحب لطالب العلم أن يكون في كفاية، فإن الآفات وألسن الناس تسرع إليه إذا احتاج وذل. وكان يقول: إن الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد في الدنيا، وإن الرجل ليكون فقيرا وهو راغب فيها.

وكان قد جعل على نفسه ثلاثة أشياء؛ أن لا يخدمه أحد، ولا يطوى له ثوب،

ولا يضع لبنة على لبنة. وكان يقول: إن الملكان ليجدان ريح الحسنات والسيآت إذا عقد القلب على ذلك، فكما لا يؤذونك لا تؤذهم. وقيل له: ألا تدخل على الولاة فتتحفظ وتعظهم وتنهاهم؟ فقال: أتأمروني أن أسبح في بحر ولا تبتل قدماي، إني أخاف أن يرحبوا بي فأميل إليهم فيحبط عملي. وكان يقول: إذا أرضيت ربك أسخطت الناس، وإذا أسخطتهم فتهيأ للسهام، والتهيؤ للسهام أحب إلي من أن يذهب دين الرجل.

ثم قال المصنف: **(وباقي الأئمة)** كسفيان بن عيينة والإمام الليث بن سعد وداود الظاهري وغيرهم من الأئمة الذين انقرضت مذاهبهم، وقبر الإمام الليث يزار وعلى مقامه من الأنوار ما يبهر الزوار. ولد رضي الله عنه سنة أربع وتسعين، وتوفي سنة خمس وسبعين ومائة، قال ابنه شعيب: خرجت مع أبي حاجا فلما قدم المدينة بعث إليه الإمام مالك بن أنس بطبق رطب، فجعل على الطبق ألف دينار عند رده إليه، قيل: كان دخله في كل سنة ثمانين ألف دينار، ومع ذلك لم تجب عليه زكاة قط.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

90	وَعَنْ مُنْشِئِ الأَبْيَاتِ مِنْ فِكْرِهِ وَمَنْ قَرَاهَا وَأَقْرَاهَا بِفَهْمٍ وَفِطْنَةِ

أي: **(و)** رضوان الله تعالى **(عن منشئ)** أي: مخترع هذه **(الأبيات من فكره)** أي: ذهنه مع كونه أميا لا يقرأ ولا يكتب، وعدتها أحد وتسعون بيتا ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن كراماته أنه كان إذا سمع القرآن وغلط القارئ يقوله له: أمسك فقد غلطت، فقيل له في ذلك، فقال: لأني أنظر نورا يخرج من فم القارئ كالعمود يتصاعد إلى السماء فإذا انقطع ذلك النور علمت أنه غلط.

ومن مؤلفاته كتاب «**فتح المواهب**»، وكتاب في معنى لا إله إلا الله، وكتاب في صفة تلقين الذكر، وعقيدتان صغرى وكبرى، وله ديوان فيه عقائد وموشحات، وله كتاب في أسئلة وردت عليه وأجاب عنها نثرا ونظما، وله قصائد غير هذه التائية، ومن كلامه رضي الله عنه:

كل من كان ذا دناءة أصل واعتلى رفعة فهي مستعارة

ود قتل الذي حباه قديما خيفة أنه سيكشف عاره

حكمة الله لا ترد ولكن رفع قدر الأنذال فقع المرارة

وقوله: **(ومن قراها)** بالألف بدون همزة لأجل الوزن، وكذلك ما بعده، أي: ورضوان الله عمن قرأها لنفسه **(وأقرأها)** أي: أسمعها لغيره **(بفهم)** أي: إدراك للمعاني **(وفطنة)** أي: جودة ذهن.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

91	وَمَنْ قَدْ رَأَى عَيْباً وَأَصْلَحَهْ وَلَوْ بِخَطِّ حُرُوفٍ أَوْبِتَغْيِيرِ شَكْلَةِ

أي: **(و)** رضوان الله ع**(من)** قد عاين في هذه الأبيات **(عيبا وأصلحه)** بالتنبيه عليه في الشرح أو على الهامش لا أنه يمحوه ويثبت غير في الأصل، فإنه ربما كان على حد قول بعضهم:

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

وقول الآخر:

كالنجم تستصغر الأبصار رؤيته والعيب للعين لا للنجم في الصغر

فقوله: **(بخط حروف)** أي: بكتابة الكلمات التي يرى أنها الصواب في الشرح الذي يكتبه أو على هامش الكتاب. وقوله: **(أو بتغيير شكلة)** مراده أن الناظر ينبه على أن الصواب تغيير الشكلة التي وقعت خطأ بشكلة غيرها أن لو كان هناك شكل، فإنه بذلك يدخل في دعاء الناظم رضي الله عنه وأرضاه.

والله تعالى يوفقنا ويبلغنا ببركة دعائه ما نتمناه والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وكان الفراغ من هذا الشرح ليلة القدر المباركة السابعة والعشرين من رمضان سنة اثنين وثلاثمائة وألف من هجرة سيد ولد عدنان صلى الله وسلم عليه وعلى آله الكرام، وأصحابه الأعلام، ما لاح بدر التمام، وفاح مسك الختام، صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

[تقاريض بعض العلماء]

ولما اطلع على هذا الشرح الجميل، حضرة أستاذ الجهابذة الجليل ذو التآليف التي نورها في الأكوان ساري، أستاذنا العلامة السيد عبد الهادي نجا الأبياري، قال:

الحمد لله الذي به مبدأ كل شيء وإليه منتهاه، والصلاة والسلام على من أوضح الطريق الموصلة إلى الله، وعلى آله وصحبه وكل من اهتدى بهداه، ما كشف الحجاب لسالك فرأى الله في كل ما يراه.

وبعد، فقد اطلعت على هذا الشرح اللطيف والكتاب الكريم، فرأيته شرحا ينشرح به صدر كل ذي قلب سليم، جمع من لطائف العوارف وعوارف اللطائف ما به تقتطف النفوس المطمئنة قطوف الأنس في روض القدس الوارف، ورفع منار الطريق لمريدي حسن السلوك، ونظم من جواهر الطريقة والحقيقة ما يعز مثله من الفرائد عند الملوك، ولعمري لقد انكشفت به عن عرائس الوصول لعاشقها الأستار، وظهرت لأولي الأبصار والبصائر في طي عباراته البارعة نفائس الأسرار، عبارات هي أحلى من التسنيم، وأجلى من البدر الشريق في الليل البهيم، وأرق في إيراد الرقائق من مر النسيم، وأشوق من سمر الغانيات لمن بها يهيم، ترد على الأفئدة المظلمة فتنورها، وعلى النفوس الساهية اللاهية فتذكرها، وعلى القلوب القاسية فتلينها، وعلى الأخلاق السيئة فتحسنها، لاسيما بسريان سر إخلاص مؤلفه وحسن نيته، وجريان ماء بركته من عيون أنهار فضيلته، فلقد منح من التوفيق وهو عزيز ما به عز بين الأنام، ومن التأليف والتأنيق ما إن مفاتحه لتنوء بكثير من ذوي الأفهام، ولا غرو فهو المفيد المجيد والسيد الوحيد عبد المجيد، أدام الله تعالى به نفع العباد إلى يوم المعاد ما صلى مصلي على الرسول الأعظم وسلم، وجلى مجل في ميادين الهداية فسلم وسلم، آمين آمين والحمد لله رب العالمين.

كتبه عبد الهادي الأبياري

وقال وحيد الدهر الذي ليس له مداني، أستاذنا العلامة الشيخ محمد البسيوني البيباني.

أحمد الله حمدا تتفتق من رياض قبوله كمائم أزهاره، وأشكره شكر أهل العرفان الذين أينعت في حظائر قدسهم نضيرات أثماره، ونصلي ونسلم على أفضل نبي وأكرم رسول مختار، سيدنا محمد الآتي في السلوك إلى ملك الملوك بما لا تبقى معه حيرة محتار، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبابه.

أما بعد، فقد وقفت على تائية السلوك إلى ملك الملوك التي نظمها قطب دائرة الوجود، وإمام كل موجود، الولي الأمي الذي يضرب بعلمه اللداني الأمثال، والعارف الصمداني الرباني الذي عز عن المثال، من حققت له المقامات، ووضحت له الكرامات، وأتى في طريقه وسلوكه بالآيات البينات، فهيهات الدهر أن يسمح الدهر بمثله هيهات، ألا وهو سيدي وسندي السيد أحمد عرب الشرنوبي، فرج الله به كروبي وغفر ذنوبي، فوجدتها متألفة من شقيق ومنثور، متألفة بنظمها الزاهي على البدور، تدير بأيدي المحبين شموس الراح، وتذهب ما يغشى القلوب من الهموم والأتراح، فهي في طريق القوم كعبة القصاد، والبيت المعمور لكل حاضر وباد، فحبذا منهاج الأصول للسائرين إلى حضرة القدس، والطريق الأقوم في الوصول إلى معارج الأنس، حقق ما في الطريق غاية التحقيق آخذا بالكتاب والسنة، فعظمت به على أهل كل عصر المنة، والإجماع منعقد على علو شأنه، فالقياس أن لا يعدل عن رسالة أحمد إلى البعث وزمانه، بيد أنها انطوت على أسرار تحتاج إلى كشف أستار، وتضمنت من الرقائق رموزا، وحوت من الدقائق المخبأة كنوزا، فاحتاجت إلى شرح يشرح صدور المطلعين عليها، وموقف موفق يوقف من ألقى زمام الاسترشاد إليها، ومازالت تنادي بلسان حالها لحلها، وتخطب هي بنفسها كفوا يسهر الليالي في طلب اللآلي الجليلة من أجلها، حتى يسر الله لها ما تروم وأنالها، وقيض لها خبيرا بها، حين دعا الداعي قال له أنالها، حضرة القدوة المحقق، والفهامة المدقق، واسطة العقد الفريد، والمراد لكل مريد، الشهاب الثاقب لكل مريد، الأستاذ المجيد، الشيخ عبد المجيد بلدي، الأستاذ المشار إليه الحائز قصب السبق في مضمار حوز

مدده لديه، الهمام الكامل الفرد الذي جمع أنواع الفضائل، وتقدم على من تقدم من الأفاضل، وأنى يدرك بعض فضله الفاضل، وذاك لغزارة علمه، وجودة ذكائه وفهمه، كما يشاهد من أدبه، وكما يطالع في كتبه، فلو رآه «ابن عيينة« لقبله بين عينيه، ولو شامه «قُدامَة« لتبرك بأثر قدميه، فشرحها شرحا زاد محاسن الأوصاف، عادلا عن التعسف مائلا إلى الإنصاف، تعجز البلغاء بلاغته، وتقحم الفصحاء فصاحته.

اختلب بما جلب القلوب بملاحته، واستلب العقول بفصاحته وصباحته، فالصحاح درر ثغره، والقاموس بعض فيض نهره، والبيان من سحر كلامه، والرياض من بشاشته وباتسامه، وعوارف المعارف إشاراته، ورسالة القشيري براعاته، والخير من طباعه وطبعه، والشمس من ضيائه ونفعه، زاد فيه مما أفاء الله عليه، وأحسن كما أحسن الله إليه، أوضح أصولها التي بها الوصول، وأفصح عن أجناس حدود معالمها والفصول، حتى بسقت فروعها، وعرف منها نسبها محمولها وموضوعها، فأبدى ذلك الشرح عجابا، وأبدع في كل أصل فصلا خطابا، وقال بلسان حاله يصف رب قاله:

أصولي له علم وفهم يفيد به الطريق إلى الأصول
ويظهر بالأصول لنا فروعا فتقتبس الفروع من الأصول

وبالجملة، فما الذي تتنفس كمائم الأزهار، أو تهب به نسائم الأسحار، بألطف مما جاءت به هذه الأسفار، من معالي رفيعة، وأوصاف بديعة، ورقائق كريمة تفوق الدراري اليتيمة مع أعذب منهل لأي وارد، وأبهى مربع لكل وافد، فجزى الله مؤلفه خيرا، ووقاه هما وضيرا، ما غردت الحمائم، ودرت الغمائم، ووصل واصل لربه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

كتبه محمد البسيوني البيباني

وقال الأستاذ الفاضل، والهمام الكامل الشيخ إبراهيم راضي أحمد، خوجات مدرسة المرحوم إسماعيل باشا راتب، بلغنا الله وإياه المآرب:

حسن السلوك إلى ذي العرش قد جمعا ... في أن تكون لنهج الشرع متبعا
فالزم أوامره واترك نواهيه ... ولا تكن عاملا بالرأي مبتدعا
فللشريعة حد قف لديه فمن ... تجاوز الحد في مهوى الهوى صرعا
وعامل الناس بالحسنى وإن أحد ... أساء فارفع إلى مولاك ما وقعا
واقنع بما قسم الله الحكيم تكن ... في غنية إن أغنى الخلق من قنعا
وإن ترد عزة فالزهد منشؤها ... والذل لم يقترن إلا بمن طمعا
واستعمل الصبر إن نابتك نائبة ... لا فاز من قضاء الله قد جزعا
فبينما المرء في عسر يئن به إذا ... جاءه اليسر من مولاه مندفعا
واوف بالعهد إن الخلف منقصة ... وكن من الزور والبهتان ممتنعا
واترك هوى النفس إن النفس آمرة ... بكل سوء وخف مولاك مرتدعا
ولا تصاحب من الدنيا سوى رجل ... يهدي إلى طرق التقوى من اتبعا
فالناس أعداء بعض في المعاد خلا ... أهل التقى فهم الأحباب والشفعا
ولا تؤاخ أخا جهل فصحبته ... أضر شيء على الإنسان لو سمعا
واحرص على طلب العلم الشريف فمن ... سعى إليه بجد دام مرتفعا
أما ترى المرتضى عبد المجيد علا ... على السماء بفضل العلم وارتفعا
حبر لقد أشرقت أنوار حكمته ... وبرق تحقيقه بين الورى لمعا
بحر ولكن محيط لا قرار له ... لله بحر علوم راق واتسعا
إن قست قسا به ما أنت منصفه ... كم مثل قس به في عصرنا برعا
أنعم به من مجيد في عبارته ... مع انسجام حلي لله ما صنعا
يزري بنظم اللآلي نظم فكرته ... وطالما سلب الألباب إن سجعا
تأليفه منبئ عن فضل حضرته ... تبارك الله ما أوعى وما جمعا
رأى التصوف فنا لا نظير له ... فقام واهتم في تدوينه وسعى
أتى بشرحين فيه يشهدان له ... بأنه شمس علم نوره سطعا

هما لتائية الشرنوبي مع حكم أجادها ابن عطاء الله مخترعا
لحبه في عموم النفع زانهما بحسن طبع لمن رام الهدى نفعا
فجعلهما قدوة فالمقتدي بهما بشرى له فهما للخير قد جمعا
وخذهما عدة في كل نازله ولا يفوتك فوز إن تكن ورعا
واشكر مجيدهما عبد المجيد فقد أبدى لنا السر في شرحين مجتمعا
يا حسن طبعهما أرخهما بزهى شرحان من ما جد في عصرنا طبعا

فهرس الموضوعات

تقديم ٥
مقدمة ٧
شرح البسملة ٧
حد علم التصوف ١١
أصول الطريق وشروطه وأركانه
والأحوال اللازمة للمريد ١٤
من الأصول طهارة الأنفاس ١٧
ومن الشروط صدق ومودة ١٧
ومن الشروط حذق ١٨
ومن الشروط آداب ١٨
من اللوازم تجريد همة ٢٠
ومن شروط الطريق حياء ٢٠
ومن الشروط إخلاص ٢٢
ومن الشروط ذكاء وفطنة ٢٢
ومن الأصول الورع المحمود ٢٣
ومن الأحوال الذوق والشوق ٢٤
ومن الشروط الحضور مع الله ٢٤
ومن الشروط فطم مراد النفس ٢٥
ومن الأصول زهد ٢٦
ومن الأصول قناعة ٢٨
ومن الأصول الرهبة من الله في حال
الرخاء والشدة ٣٥
من الأصول تفويض الأمر ٣٦
من الأصول حسن التوكل ٣٨
من الشروط خضوع ٤٠
ومن الشروط خشوع ٤٠
ومن الأحوال البكاء بذلة ٤٠
ومن اللوازم تقوى الله ومما لا تصح
التقوى إلا به حسن ٤٣
المسير في علوم الشرع ٤٧
ومن الشروط العزوف عن الأكدار .. ٥٠
ومن الشروط بذل ٥٠
ومن الشروط تهذيب ٥١
ومن أركان الطريق الصمت ٥٢
ومن الأركان التسهيد ٥٤
ومن الشروط موت بحبه
أي الموت الاختياري ٥٧
ومن آدابه تحسين الأوصاف ٥٨
ومن الأركان تجويع معدة ٦٠
ومن الشروط الإيثار والكرم ٦٢
ومن الشروط الرفق والسهولة ٦٣
ومن الشروط التصديق بأحوال القوم ٦٣
ومن الأحوال العشق والمحبة ٦٣
ومن الأحوال السحق والمحق ٦٦
ومن الأحوال الفناء ٦٧
ومن الشروط الحمد والشكر ٧٠
ومن الشروط الوفاء بالأوامر ٧٢
ومن الأصول ملازمة الكتاب والسنة .. ٧٥
ومن الشروط المراقبة ٧٨
ومن الأصول مجاهدة النفس ٨١

ومن الشروط التفكر ٨٤
ومن اللوازم حسن التوجه على يد شيخ ٨٦
من أوصاف الشيخ المربي أن يكون قد
محا لحظوظ النفس بالعلم والتقى ٩٢
أن يكون كثير النصح ٩٢
أن يكون ذا حكمة ومعرفة
بالطب الروحاني ٩٧
أن يكون من أهل البصيرة ٩٨
أن يكون متين الحجا ١٠٢
أن يكون كثير الرشد إلى الصلاح .. ١٠٣
أن يكون له مزيد فضل
وعطاء من الله ١٠٥
أن يكون أخذ الطريق من شيخ ١٠٦
آداب المريد وأوصافه ١٠٧
من اللطائف أن بعض الأكابر كان يلزم
أن يكون مؤدبا ١٠٧
أن يسأل شيخه عند كل إشكال
يعرض له ١٠٧
أن يكون ملازما للذل والتهذيب ١٠٨
مخالفته لشهوات النفس
تصديقه لكلام شيخه ١٠٨
الطاعة لأوامر شيخه ١٠٨
مجانبة الذنوب ١١٣
استفسار شيخه عن كل ما يرد له
بالخاطر ١١٦
تحسين ما حسن الشيخ ١١٧
إظهار مزايا الشيخ وفضله ١١٨
إيثار الشيخ بالمال والروح مع الرضا ..١١٩
ملازمة لبس الصوف ١١٩
أن يعمل على قضاء حوائجه بنفسه ..١٢٠
ملازمة العزلة عن الخلق وخصوصا
ولاة الأمر ١٢٢
عدم الالتفات إلى شيخ غير شيخه ..١٢٨
إغضاض الطرف بحضور شيخه ١٢٩
نتائج السير على هذه الآداب ١٣٣
خاتمة وفيها فوائد: ١٤٢
ترجمة الناظم أحمد عرب الشرنوبي ..١٤٢
نظم في الأمور التي تعجل الشيب ..١٥١
فضل النبي صلى الله عليه وسلم ١٥٧
فائدة: في حكم من قال إن القرآن
مخلوق ١٥٨
مراحل جمع القرآن الكريم ١٦٠
التكلم بالقرآن الكريم ١٦٣
القصيدة اللامية للإمام البوصيري ١٦٦
ترجمة لبعض أئمة المذاهب: ١٧٦
الإمام مالك ١٧٦
الإمام الشافعي ١٧٨
الإمام أحمد ١٨٠
الإمام أبو حنيفة ١٨٢
الإمام الثوري ١٨٢
تقاريض بعض العلماء على هذا الشرح ١٨٥
فهرس الموضوعات ١٩٠

يأتي إلا بخير».

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال ذات يوم لأصحابه : **«استحيوا من الله حق الحياء»** . فقالوا: إنا نستحيي يا رسول الله والحمد لله، قال: **«ليس ذاك ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا»** اهـ.

واعلم أن الحياء قسمان؛ إيماني: وهو ما علمته. وطبيعي: وهو ما يعتري الإنسان حتى يمنعه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن سؤاله عن مهمات المسائل في الدين إذا أشكلت، ولذا ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: **«نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهن»**.

قال الإمام الشعراني: وليحذر الإنسان من الحياء الطبيعي، فإنه معدود من جملة الكبر عند القوم، وهو أن يستحي الشخص أن يذكر الله تعالى برفع الصوت بحضرة الناس، وأكثر من يفعل ذلك أصحاب الأنفس كالقضاة والمباشرين ومشايخ العرب، فمثل هؤلاء يجب عليهم الذكر برفع الصوت حتى يخرجوا عن الكبر اهـ. وقد قيل لأبي سفيان: ما أول الحياء، فقال: أن تستحي منه أن يراك حيث نهاك، قيل: فما غايته، قال: أن تستحي منه أن يعلم أنك تريد بقلبك سواه.

وقالت عائشة رضي الله عنها: مكارم الأخلاق عشرة؛ صدق الحديث، وصدق البأس، وأداء الأمانة، وإكرام الجار، وصلة الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الذمام للصاحب، وقري الضيف، ورأسهن الحياء.

وقال علي كرم الله وجهه: من جعل الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه. وقال بعض السلف لابنه: يا بني إذا دعتك نفسك إلى معصية فارم ببصرك إلى السماء واستح ممن فيها، فإن لم تفعل فارم ببصرك إلى الأرض واستح ممن فيها، فإن لم تفعل فعد نفسك من البهائم.

وقال السري السقطي: إن الحياء والأنس يطرقان القلب، فإن وجدا فيه الزهد والورع حطا وإلا رحلا. وبيان ذلك أن الحياء ثمرة دوام المراقبة، والأنس ثمرة دوام العبادة بالإخلاص، فلا يحلان إلا في محل خال من الشاغل عن الله تعالى، ولعزة أهل هذا المقام قال الإمام القشيري في رسالته: تعامل القرن الأول بالدين حتى رق الدين، ثم تعامل القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء، ثم تعامل القرن الثالث

بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى ذهب الحياء، ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة اهـ.

ولله در القائل:

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

وكان الفضيل بن عياض يقول: خمس من علامات الشقاء: قسوة القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل. فتجنبها أيها المشفق على نفسك وحي على خير العمل.

وفي الحديث القدسي: «**يا عبدي إنك ما استحييت مني أنسيت الناس عيوبك وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك ومحوت من أم الكتام زلاتك و لا أناقشك الحساب يوم القيامة**» .

ومن الشروط **(إخلاص)** في العمل بأن لا يعمل العبد ليراه الناس، فإن مراعاة الناس تحبط الأعمال وتوجب الإفلاس، لأن الرياء هو الشرك الخفي، وقد قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر: 65] فالمراد أن يخلص المريد قلبه من شائبة النظر للأغيار. ويوجهه إلى محض التقرب إلى العزيز الغفار. فإن الإخلاص سر من أسرار الله تعالى، وثمرته نسيان رؤية الخلق، بدوام النظر إلى الملك الحق. وناهيك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة: 5]، وفي الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لي عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء**» . وقال ﷺ: «**من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساء الصلاة حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه تعالى**» . فاحرص يا أخي على مداومة الإخلاص، وتوق من ملاحظة الأشخاص، والله يتولى هداك.

ومن الشروط **(ذكاء)** بفتح الذال المعجمة والمد، وهو قوة الذهن بحيث تقدر النفس معها على تصور ما يرد عليها من المعاني الدقيقة.

ومن الشروط **(فطنة)** وهي التنبه للشيء الذي يراد منه، فيكون ذا بصيرة بعواقب الأمور، فيهدم دنياه ليبني بها أخراه، ولا يهدم أخراه ليبني بها دنياه، فإن هذا الأخير إنما ينشأ من الغفلة التي هي ضد الفطنة.

وما ألطف قول المتنبي:

لا يدرك المجد إلا سيد فطن لما يشق على السادات فعال

وكذا من الأصول **(الورع)** بفتح الواو والراء **(المحمود في كل شرعة)** بكسر الشين المعجمة وسكون الراء، وهي والشريعة والشرع ألفاظ مترادفة على معنى واحد، أي: دين. واعلم أن الورع هو ترك الشبهات، خوف الوقوع في المحرمات، وهذا ورع العامة. وأما ورع الخاصة فهو صحة اليقين، وكمال التعلق برب العالمين، ووجود السكون إليه، وعكوف الهمم عليه.

وقال بعضهم: الورع الخروج عن كل شبهة ومحاسبة النفس كل طرفة عين. ومن كلام بعض العارفين: ملاك الدين الورع، وفساده الطمع. وقال أبو بكر الوراق: لو قيل للطمع: من أبوك؟ لقال: الشك في المقدور، ولو قيل له: ما حرفتك؟ لقال: اكتساب الذل، ولو قيل له: ما غايتك؟ لقال: الحرمان. وكان بعض العارفين يقول: اتقوا الله وموتوا نفوسكم بالورع، وقوة الثقة، والاستغناء بالله عن طلب الحوائج إلى ذي سلطان، فإن من خضع لصاحب سلطان أو لمن يخالف دينه طلبا لما في يديه من دنياه مقته الله ووكله إليه، فإن تحصل على شيء من دنياه نزعت البركة منه ولم يؤجر عليه.

وما ألطف قول بعضهم:

تورع عن سؤال الخلق طرا وسل ربا كريما ذا هبات
ودع زهرات دنياك اللواتي تراها لا محالة ذاهبات

وقال بعض العارفين: الورع في المنطق أكمل منه في الذهب والفضة، كما أن الزهد في الرياسة أكمل منه في الذهب والفضة، وبهذا يتضح قصور قول بعضهم:

إني وجدت ولا أقول بغيره أن التورع ضد هذا الدرهم
فإذا قدرت عليه ثم تركته فاعلم بأن تقاك تقوى مسلم

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «**لم يتقرب إلي المتقربون بمثل الورع والزهد**» ومن المواعظ اللطيفة ما حكي: أن رجلا كتب رقعة وهو في بيت الكراء، فأراد أن يتربها من جدار البيت، فخطر بباله أنه بالكراء، ثم خطر بباله أنه لا خطر لهذا القدر، وتربها فسمع هاتفا يقول: سيعلم المستخف بالتراب، ما سيلقاه غدا من طول الحساب.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

4 | **وَذَوْقٌ وَشَوْقٌ وَالْحُضُورُ بِقَلْبِهِ وَفَطْمٍ مُرَادِ النَّفْسِ عَنْ كُلِّ شَهْوَةِ**

(الذوق والشوق) من الأحوال التي تنشأ عن نحو فطم مراد النفس عن كل شهوة، والأذواق التي يشير إليها القوم عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه به تحل الرموز، وتفتح الكنوز، وتدرك المعارف التي أفاضها عليهم الكريم الوهاب، من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب. ولذا قيل لبعضهم: ما حقيقة الذوق؟ فقال: هو فوق الفوق، وقد حده لساني بما شهده جناني:

الذوق لطف مع الأرواح يبرزه نطق اللسان بما في القلب من حكم

وأما الشوق فهو انجذاب القلب لمشاهدة المحبوب، ويقال: هو نار الله أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات، والعوارض والحاجات، وهو ناشئ عن المحبة، فإذا بلغه العبد استبطأ الموت شوقا إلى ربه، وأخذ في التواجد والتطاير إلى حظيرة قربه:

فقل للذي ينهى عن الوجد أهله إذا لم تذق معنا شراب الهوى دعنا
إذ اهتزت الأرواح شوقا إلى اللقا ترقصت الأشباح يا جاهل المعنى
فيا حادي العشاق قم واحد قائما وزمزم لنا باسم الحبيب وروحنا

وقد قالوا: كشف النقاب، أشهى للمشتاق من لبس الثياب:

فبح باسم من أهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر

ويقال: إن شوق أهل القرب أتم من شوق غيرهم. لقول قائلهم:

وأبرح ما يكون الشوق يوما إذا دنت الخيام من الخيام

فتأمل أيها المتجافي عن درك المرام، وأقبل على مولاك الكريم الذي أوحى إلى داود عليه السلام: لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقا إلي، وتقطعت أوصالهم من محبتي، يا داود هذه إرادتي للمدبرين عني، فكيف إرادتي للمقبلين علي.

ومن الشروط الخاصة بالذكر ومجالسة الحق **(الحضور)** أي: حضور المريد مع الله **(بقلبه)**، بأن لا يكون غافلا ولا ذاهلا عن الله تعالى عند ذكره، فإن القلوب

أوعية أسرار الغيوب، فرب ذاكر الله لحظة بقلب حاضر خير ممن ذكره ألف سنة بلا حضور قلب. وثمرة حضور العبد مع الله شهوده له تعالى في كل شيء، بحيث يعلم أنه ناظر إليه، ومطلع عليه، وعند ذلك يتحقق بقوله تعالى في كتابه المجيد: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[ق: 16].

ومن الشروط **(فطم مراد النفس عن كل شهوة)** أي: منعها عن كل شهوة مرادة لها، وقمعا عن الاسترسال فيما يمنعها عن الترقي لأوج كمالاتها. على حد قول الإمام البوصيري:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه ... إن الهوى ما تولى يصم أو يصم
وراعها وهي في الأعمال سائمة ... وإن هي استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدر أن السم في الدسم
ومن الحكم النوابغ قول بعضهم: ... إذا ما دعتك النفس يوما لشهوة
وكان عليها للخلاف طريق ... فخالف هواها ما استطعت فإنما
هواها عدو والخلاف صديق

وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾يعني: بالشهوات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ ويعني: بالتوبة ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ يعني: في أمر الله ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ يعني: بالتسويف ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني: الموت ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: 14] يعني: الشيطان.

وقال بعضهم: من استولت عليه النفس صار أسيرا في حكم الشهوات، محصورا في سجن الهوى والمخالفات، قد حرم الله على الفوائد أن تسكن فؤاده، ومنعه حلاوة فهم كلامه وإن أكثر ترداده، فيكون داخلا في شديد وعيد: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[الأعراف: 146]، وهذا عذاب أصحاب الأنفس في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشق.

وما ألطف قول بعضهم:

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ... ولم ينهها تاقت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار بالذي ... دعته إليه من حلاوة عاجل

وقال محمد بن جعفر البغدادي: رأيت في منامي حوراء ما رأيت أحسن منها فقلت: زوجيني من نفسك، فقالت: اخطبني من سيدي، فقلت: وما مهرك، قالت: حبس النفس عن مألوفاتها.

وقال موسى عليه السلام في مناجاته: يا رب متى تكون لي، فقال: إذا لم تكن لنفسك، قال: ومتى لا أكون لنفسي. قال: إذا نسيتها.

واعلم أن العلم قائد للنفس إلى طرق الخيرات، والخوف سائق لها، وهي بين ذلك جموح تميل إلى المخالفات، فراعها بسياسة العلم وسقها بسوط الخوف يتم لك ما تريد.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

5	وَزُهْدٌ وَقُنْعٌ بِالكَفَافِ وَرَهْبَةٌ مِنَ اللَّهِ فِي حَالَيْ رَخَاءٍ وَشِدَّةِ

أي ومن الأصول **(زهد)** في الدنيا، ولما في الحديث: «**ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**» ولله در القائل:

كن زاهدا فيما حوته يد الورى تضحى إلى كل الأنام حبيبا
أو ما ترى الخطاف حرم زادهم فغدا مقيما في البيوت ربيبا

قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه: ترك الحرام وهو زهد العوام، وترك الفضول من المال وهو زهد الخواص، وترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين.

وقال بعض الفضلاء: من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد، وذلك لأن الزهد يكون أولا في المال، ثم في الطعام، ثم في اللباس، ثم في الاستئناس بالناس، ولا يزهد في الحمد مع عدم المبالاة بالذم إلا من كمل زهده في الرياسة وهو أعلى المراتب، ولذا قيل: آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرياسة.

وقال بعض العارفين: علامة الزهد في شيء من الدنيا سرور القلب بفقده. وقال بعضهم: الزهد هو أن لا تطلب المفقود حتى تفقد الموجود. وقال الفضيل بن عياض: الزهد حرفان في كتاب الله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[الحديد: 23].

وقال إبراهيم بن أدهم: على القلب ثلاثة أغطية: الفرح والحزن والسرور. فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص والحريص محروم، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والمعجب محبط عمله اهـ.

فالعاقل من تدبر عاقبة أمره ومصيره، ونظر ليتخلص من دنياه بعين البصيرة، واغتر بظلها الزائل، واتعظ بقول القائل:

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملأ الأعلى إليك وسائل
لقد خط فيها لو تأملت سطرها ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وقد شبهوا حال الدنيا وأهلها والزاهدين فيها بحال طعام صنعه صانعه من السكر وعجنه بالسم بحضور بعض الناس دون بعض، ثم وضعه بين يدي من أبصره في حال صنعه ومن لم يبصره، فإن من أبصره وعلم ما فيه من الآفات لا يقرب منه، ومن غاب عنه ذلك اغتر بما فيه من الحلاوة وحرص عليه ولا يصبر عنه:

فحلاوة الدنيا لجاهلها ومرارة الدنيا لمن عقلا
ووصفها بعضهم بقوله: إذا أدبرت كانت على القلب حسرة
وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

وقال أبو نواس:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

وقال الصلاح الصفدي:

ما هذه الدنيا وإن أقبلت عليك أو ولت بدار المقام
فسام لما سام فيها البقا دار به صرف المنايا وحام

وما ألطف قول بعضهم:

من ملك الدنيا ودانت له فالجهل كل الجهل أن يحسدا
تعطيه كالمشفق لكنها تبطش في الأخذ كبطش العدا
مبتدأ حلو لمن ذاقه ولكن انظر خبر المبتدا

ولله در من قال:

وزهرة الدنيا وإن أينعت فإنها تسقى بماء الزوال

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

كم ضاحك والمنايا فوق هامته لو كان يعلم غيبا مات من كمد
من كان لم يؤت علما في بقاء غد ماذا تفكره في رزق بعد غد

وقال ابن الوردي:

قصر الآمال في الدنيا تفز فدليل العقل تقصير الأمل
إن من يطلبه الموت على غرة منه جدير بالوجل

وما ألطف قول أبي الفتح البستي:

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لا ثبات له فإن معناه في التحقيق فقدان

ومن أصول الطريق (قنع) بضم القاف وسكون النون، أي: رضا (بالكفاف) أي: بما يكفي الإنسان ويكفه عن ذل السؤال، على حد ما قيل:

أيها المرء إن دنياك بحر موجه طافح فلا تأمننها
وسبيل النجاة فيها منير وهو أخذ الكفاف والقوت منها

وفي الحديث: «ما من يوم طلعت فيه شمسه إلا وملكان يناديان يسمعهما خلق الله إلا الثقلين أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى».

ومن النصائح:

إذا أظمأتك أكف اللئام كفتك القناعة شبعا وريا
فكن رجلا رجله في الثرى وهامة همته في الثريا
أبيا بنفسك عن باخل تراه بما في يديه أبيا
فإن إراقة ماء الحيا ة دون إراقة ماء المحيا

ولبعضهم مع حسن الجناس:

إذا ما نازعتك النفس حرصا فأمسكها عن الشهوات أمسك
ولا تحرص ليوم أنت فيه وعد فرزق يومك روق أمسك

ومما قيل فيمن ألهاه الغنى مع حسن التورية:

وصاحب لما أتاه الغنى تاه ونفس المرء طماحة
وقيل هل أبصرت منه يدا تشكرها قلت ولا راحة

وقال بعض العارفين: صاحب القناعة ومالك الدنيا غير متساويين، بل صاحب القناعة أقل حزنا، وأطيب نفسا، وأقر عينا، كما قال الصفي الحلي في هذا المعنى:

قناعة المرء بما عنده مملكة ما مثلها مملكة
فارضوا بما قد جاء عفوا ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة

وقال بعضهم:

هي القناعة فالزمها تعيش ملكا لو لم يكن منك إلا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن

وقال الإمام النووي:

وجدت القناعة أصل الغنى فصرت بأذيالها ممتسك
فلا ذا يراني على بابه ولا ذا يراني به منهمك
وعشت غنيا بلا درهم أمر على الناس شبه الملك

وقال بعضهم:

غنى المرء ما يكفيه من سد خلة فإن زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

ولله در من قال:

ومن سره أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا

فالراحة كلها في الرضا بالمقسوم. والتعب كله في تتبع الهموم. ولذا قيل:

يقول الزمان ولم تستمع لمن طلب الرزق أو أمله
أنا حرب من جد في كسبه ومن يتقنع تعصبت له

وسئل النبي ﷺ عن القناعة فقال: «**هي الإياس مما في أيدي الناس وإياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر**»، وقال ﷺ: «**عز من قنع وذل من طمع**»، وقال ﷺ: «**القناعة كنز لا يفنى**». قال بعضهم: وإنما كانت القناعة كنزا لا يفنى، لأن حقيقتها الرضا باليسير، وذلك يتضمن ترك استيفاء الحظوظ التي لا ضرورة في تناولها، وفي

الترك توسع عظيم يكاد أن لا ينحصر، فكلما طلبت النفس حظا زائدا على ما هي محتاجة إليه، وأرضيت بترك ذلك الزائد، فقد أنفق عليها من كنز الترك الذي لا ينفد. ولله در من قال:

إذا رمت أن تستقرض المال منفقا ... على شهوات النفس في زمن العسر
فسل نفسك الإنفاق من كنز صبرها ... عليك وإرفاقا إلى زمن اليسر
فإن رضيت كنت الغني وإن أبت ... فكل منوع بعدها واسع القدر

وما ألطف قول ابن الفارض:

وأنفقت من يسر القناعة راضيا ... ومن العيش في الدنيا بأيسر بلغة
وهذبت نفسي بالرياضة ذاهبا ... إلى كشف ما حجب العوائد غطت

وقال الإمام علي كرم الله وجهه: طلبت الغنى فوجدته في القناعة. ولأبي العتاهية:

تسربلت أخلاقي قنوعا وعفة ... فعندي بأخلاقي كنوز من الذهب
فلم أر خصبا كالقنوع لأهله ... وأن يجمل الإنسان ما عاش في الطلب

وما ألطف قول بعضهم:

ذريني ونفسي في العفاف فإنني ... جعلت عفافي في حياتي ديدني
وأعظم من قطع اليدين على الفتى ... صنيعة بر نالها من يدي دني

ولله در من قال:

إذا المرء عوفي في جسمه ... وأعطاه مولاه قلبا قنوعا
وأعرض عن كل مالا يليق ... فذاك المليك ولو مات جوعا

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

ورزقك لا يفوتك بالتواني ... وليس يزيد في الرزق العناء
إذا ما كنت ذا قلب قنوع ... فأنت ومالك الدنيا سواء

وقال أيضا رضي الله عنه:

أمت مطامعي فأرحت نفسي ... فإن النفس ما طمعت تهون
وأحييت القنوع وكان ميتا ... ففي إحيائه عرضي مصون

إذا طمع يحل بقلب عبد علته مهانة وعلاه هون

وقال السراج الوراق:

مالي أذل وللقناعة عزة أنجو بها من ذلة وهوان
وأصون وجهي أن يذل لأوجه منحوتة من عالم الصوان
والقوم كالأصنام والإسلام نز هني عن الأصنام والأوثان

وقال الإمام القسطلاني:

قنعت بالقوت مر زماني وصنت نفسي عن الهوان
لا ينبغي أن أرى بعيني مكان من لا يرى مكاني
لي قبل أن أموت رزق لو جهد الخلق ما عداني
فاستغن بالله عن فلان وعن فلان وعن فلان

وما ألطف ما قيل:

إذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها

ويرحم الله القائل:

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك وهن منك في الدين
واسترزق الله مما في خزائنه فإن ذلك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما اس تغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقيل لإبراهيم بن أدهم: كيف أنت؟ فقال:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه وجاد بدنياه لما يتوقع

وما ألطف قول بعضهم:

هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى الزوال
وما دنياك إلا مثل ظل أظلك ثم آذن بانتقال

ومن النصائح:

يا راقد الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
أفتي القرون التي كانت منعمة كر الجديدين إقبالا وإدبارا

كم قد أبادت صروف الدهر من ملك قد كان في الدهر نفاعا وضرارا
يا من يعانق دنيا لا بقاء لها يمسي ويصبح في دنياه سفارا
هلا تركت من الدنيا معانقة كيما تعانق في الفردوس أبكارا

وقال أبو العتاهية:

هي الدار دار الأذى والقذى ودار الفناء ودار العبر
فلو نلتها بحذافيرها لمت ولم تقض الوطر
أيا من يؤمل طول الخلود وطول الخلود عليه ضرر
إذا ما كبرت وبان الشباب فلا خير في العيش بعد الكبر

وأجاد القائل:

النفس تأبى أن تكون فقيرة والفقر خير من غنى يطغيها
فغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت فجميع ما في الأرض لا يكفيها

وقال آخر:

تمنع بما يكفيك واستعمل الرضا فإنك لا تدري أتصبح أم تمسي
فليس الغنى عن كثرة المال إنما يكون الغنى والفقر من قبل النفس

وما ألطف قول بعضهم:

خذ من العيش ما كفي فهو إن زاد أتلفا
كسراج منور إن طفا دهنه انطفا

فالكفاف حالة متوسطة بين الفقر والغنى، وخير الأمور أوسطها، ولذا قال ﷺ: **«اللهم اجعل رزق محمد كفافا»**، وقال ﷺ: **«ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل أراد أن يغسل ثوبه فلم يجد له خلقة يلبسها ورجل لم ينصب على مستوقده قدرين ورجل طلب شرابه فلم يقل له أيهما تريد»**. وروي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: لأن أقع من فوق قصر فأتحطم أحب إلي من مجالسة الغني، لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إياكم ومجالسة الموتى»** قيل يا رسول الله: ومن الموتى؟ قال ﷺ: **«الأغنياء»**. والنهي عن ذلك لأن مجالستهم لا يسمع فيها غالبا إلا مدح الدنيا والتمكن من الجاه والمال، والنفس مائلة إلى كل لذيذ، فينغرس في القلب محبتها، والمراد أنهم موتى القلوب بمحبة الدنيا حتى اشتغلت عن أعمال

الآخرة. وما ألطف قول ابن عطاء الله في حكمه: إن أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك، إنما الصدقات للفقراء.

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في غاية من الزهد والتقلل من الدنيا، حتى أن قميصه كان فيه أربع رقاع بين كتفيه، وأبطأ يوما عن الخروج لصلاة الجمعة وهو خليفة، ثم خرج فاعتذر للناس وقال: إنما حبسني عنكم ثوبي هذا، كان يغسل وليس عندي غيره، وكان يبرد في الشتاء حتى ترعد مفاصله، فيقال له: ألا تأخذ لك من بيت مال المسلمين كساء فإنه واسع، فيقول: لا أنقص المسلمين من بيت مالهم شيئا لي، وكان لا يجمع في سماطه بين إدامين حتى إن بنته حفصة قدمت له مرقا باردا وصبت عليه زيتا، فقال: إدامان في إناء واحد، لا آكله حتى ألقى الله عز وجل، ومع ذلك كان يقول: وددت أن أخرج من الدنيا كما دخلت لا أجر لي ولا وزر علي، ولما مات رآه العباس رضي الله عنه في المنام، فقال له: كيف وجدت الأمر يا أمير المؤمنين؟ فقال: كاد عرشي يهوي بي لولا أني وجدت ربا رحيما.

وكان الإمام علي كرم الله وجهه يرقع قميصه ويقول: إن لبس المرقع يخشع القلب، ومما ينسب له رضي الله عنه.

حقيق بالتواضع من يموت ... ويكفي المرء من دنياه قوت
فما للمرء يصبح ذا هموم ... وحرص ليس تدركه النعوت
فيا هذا سترحل عن قريب ... إلى قوم كلامهم السكوت

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وضع ماله ومال زوجته فاطمة بنت عبد الملك في بيت المسلمين، وصار كآحاد الناس حتى أنه صار لا يملك إلا قميصا واحدا وهي كذلك، فإذا أراد غسله مكث في البيت حتى يجف، على حد ما قيل:

قوم إذا غسلوا الثياب رأيتهم ... لبسوا البيوت وزرروا الأبوابا

ومع ما كان عليه من الورع والزهد والعدل الذي ضرب به المثل، كان له سرب ينزل فيه كل ليلة، ويضع الغل في عنقه فلا يزال يبكي ويتضرع إلى الصباح. وقيل له في مرض الموت: تركت أولادك وهم ثلاثة عشر ليس لهم درهم ولا دينار، فقال: لم أمنعهم حقا لهم ولم أعطهم حقا لغيرهم، وإنما ولدي أحد رجلين؛ إما مطيع لله فالله تعالى كافيه وهو يتولى الصالحين، وإما عاص لله فما أبالي بما وقع له.

ومن النصائح النبوية قوله ﷺ: **«أيها الناس اذكروا هازم اللذات فإنكم إن ذكرتموه في ضيق وسعه عليكم وإن ذكرتموه في غنى بغضه إليكم إن المنايا قاطعات الآمال والليالي مدنيات الآجال وإن العبد بين يومين يوم قد مضى أحصي فيه عمله فختم عليه ويوم قد بقي لا يدري لعله لا يصل إليه وإن العبد عند خروج نفسه وحلول رمسه يرى جزاء ما أسلف وقلة غناء ما خلف. أيها الناس إن في القناعة لغنى وإن في الاقتصاد لبلغة وإن في الزهد لراحة وإن لكل عمل جزاء وكل آت قريب»**.

وقال بعض الحكماء: الدنيا إنما تراد لثلاثة: العز والغنى والراحة؛ فمن زهد فيها عز، ومن ترك الانهماك فيها استراح.

ولما اجتمع هرون الرشيد بالبهلول قال له: عظني. فقال: بم أعظك؟ هذه قصورهم، وهذه قبورهم، ثم قال كيف بك يا أمير المؤمنين إذا أقامك الحق تعالى بين يديه وسألك عن النقير والقتيل والقطمير وأنت عطشان جيعان عريان وأهل الموقف ينظرون إليك ويضحكون؟ فخنقته العبرة وأمر له بصلة، فقال: ردها على من أخذتها منهم قبل أن لا تجد لهم شيئا ترضيهم به، ثم أنشد:

دع الحرص على الدنيا ... وفي العيش فلا تطمع
ولا تجمع من المال ... فما تدري لمن تجمع
فإن الرزق مقسوم ... وسوء الظن لا ينفع
فقير كل ذي حرص ... غني كل من يقنع

ولله در ابن زريق حيث قال من قصيدته المشهورة:

وما مجاهدة الإنسان واصلة ... رزقا ولا دعة الإنسان تقطعه
قد وزع الله بين الخلق رزقهمو ... لم يخلق الله من خلق يضيعه
لكنهم كلفوا حرصا فلست ترى ... مسترزقا وسوى الغايات يقنعه
والحرص في الرزق والأرزاق قد قسمت ... بغي ألا إن بغي المرء يصرعه

وما ألطف ما قيل:

عزيز النفس من لزم القناعة ... ولم يكشف لمخلوق قناعه
أفادتنا القناعة كل عز ... وهل عز أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال ... وصير بعدها التقوى بضاعة

لتغنى في حياتك عن لئيم وتسعد في الجنان بصبر ساعة

قال ابن عباس رضي الله عنهما ما اتعظت بعد رسوله ﷺ بمثل كتاب كتبه إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «**أما بعد فإن الإنسان ليسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فلا تكن بما نلت من دنياك فرحا ولا لما فاتك منها ترحا. ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة لطول الأمل. فكأن قد والسلام**».

ومما ينسب له كرم الله وجهه:

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت بانيها

وحكي أن رجلا خطر بباله وهو في الطواف طلب الدنيا، فلما نام سمع هاتفا يقول:

أقسمت بالبيت العتيق وركنه والطائفين ومنزل الفرقان
ما العيش في المال الكثير وجمعه بل في الكفاف وصحة الأبدان

ومن الأصول (**رهبة**) وهي أعلى مراتب الخوف الذي هو أصل من أصول طريق القوم، يقال: رهب رهبا من باب تعب خاف، والاسم الرهبة. قال بعض العارفين في وصيته لمن قال له أوصني: كن كرجل احتوشته السباع فهو خائف مذعور، يخاف أن يسهو فتفترسه، أو يلهو فتنهشه، فليله ليل مخافة إذا أمن فيه المفترون، ونهاره نهار حزن إذا فرح فيه البطالون. ثم قال للطالب عند الاستزادة: إن الظمآن يقنع بيسير الماء.

واعلم أن من خاف من الله تعالى أخاف الله منه كل شيء، ومن خاف غير الله سلطه الله عليه، لأن الجزاء من جنس العمل.

وقال بعضهم: خرجنا ليلة فمررنا بأجمة مسبعة، وإذا رجل نائم وفرسه عند رأسه ترعى، فحركناه وقلنا له: أتنام في هذا الموضع المخوف المسبع؟ فرفع رأسه وقال: أنا أستحي منه تعالى أن أخاف غيره، ووضع رأسه ونام.

وروي أن ابن عمر رضي الله عنهما كان في بعض الأسفار، فلقي جماعة واقفين على الطريق خوفا من السبع، فتقدم هو إلى السبع وطرده من طريقهم، ثم

قال: إنما يسلط على ابن آدم ما يخافه، ولو أنه لم يخف غير الله لما سلط عليه شيء. وقد جرى مثل هذا لإبراهيم بن أدهم، فإنه لما كان في قافلة وتعرض السبع لها تقدم إليه، وقال له: يا أبا الحارث إن كنت أمرت فينا بشيء وإلا فتنح عن طريقنا، فهمهم وتنحى عن الطريق، فتعجبوا من ذلك فقال لهم إبراهيم: ما على أحدكم أن يقول إذا أصبح وإذا أمسى: «**اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام. واحفظنا بركنك الذي لا يرام. وارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك وأنت الرجاء**». وقوله: «**بعينك**»، أي: ذاتك التي لا تنام، أي: لا يجوز عليها النوم، لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[البقرة: 254] لأن ذلك من صفات الحوادث. وقوله: «لايرام»، أي: يقصد بالمعارضة.

وإنما عمم المصنف الخوف من الله حيث قال: **(في حالي رخاء وشدة)** لأن من لاحظ الخوف في الحالين فقد شرب بالكأسين. وحال الرخاء هو حال التقلب في مقام الإحسان والمكاشفات. وحال الشدة هو حال المكابدة والمجاهدات.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

6	وَتَفْوِيضُ أَمْرٍ ثُمّ حُسْنُ تَوَكُّلٍ خُضُوعٌ خُشُوعٌ وَالبُكَاءُ بِذِلَّةِ

اعلم أن **(التفويض)** ثمرة التسليم الذي هو ثمرة التوكل، وإنما صدر به لكونه أعلى مراتب التوكل الذي هو حال العارفين، ثم ثنى بالتوكل الذي هو حال المبتدئين. والتفويض: رد كل أمر إلى الفاعل المختار، فإنه الذي يفعل ما يشاء ويختار. وإن أردت أن تكون من الأكابر السادات، فكن متذكرا قول بعض أهل الإشارات:

تذكر جميلي عند كونك نطفة ولا تنس تصويري لشخصك في الحشا
وسلم لي التدبير واعلم بأنني أنفذ أحكامي وأفعل ما أشا

وقد مر بعض الصوفية برجل قد صلبه الحجاج، فقال: يا رب إن حلمك على الظالمين قد أضر بالمظلومين، فرأى في منامه أن القيامة قد قامت، وكأنه قد دخل الجنة، فرأى المصلوب في أعلى عليين، وإذا مناد ينادي حلمي على الظالمين قد

جعل المظلومين في أعلى عليين.

ومن اللطائف أن بعضهم رأى امرأة جميلة مع رجل قبيح المنظر، فقال لها: أترضين أن تكوني معه؟ فقالت: قد أسأت يا هذا حيث لم تترك التدبير إلى العليم الخبير، لعل زوجي أحسن فيما بينه وبين الله تعالى فجعلني ثوابه، ولعلي أسأت فيما بيني وبينه فجعله عقوبتي، أفلا أرضي به الحكيم العليم.

وحكي أن رجلا من الصالحين كان يقول فيما يصيبه: «**الخيرة فيما اختاره الله**»، وكان في بادية ومعه أهله، وليس له إلا حمار يحمل عليه متاعه، وكلب يحرسهم، وديك يوقظهم، فجاء الثعلب وأخذ الديك، فقال: خيرة، ثم جاء الذئب فقتل الحمار، فقال: خيرة، ثم أصيب الكلب فمات، فقال: خيرة، فتعجب أهله من ذلك، حتى أصبحوا وقد سبي من حولهم، واسترقت أولادهم، وكان قد عرف مكان بعضهم بصوت الديكة، ومكان البعض الآخر بنهيق الحمير ونبح الكلاب، فقال: قد رأيتم أن الخيرة فيما اختاره الله، فلو لم يهلكهم لهلكنا وأخذت أولادنا. وما ألطف ما قيل:

كن عن همومك معرضا ... كل الأمور إلى القضا
وأبشر بخير عاجل ... تنسى به ما قد مضى
فلرب أمر مسخط ... لك في عواقبه رضا
ولربما اتسع المضيـ ... ـق وربما ضاق الفضا
الله يفعل ما يشاء ... فلا تكن متعرضا
الله عودك الجميـ ... ـل فقس على ما قد مضى

ومن لطائف التدبير الذي يعجز عنه غير العليم الخبير، ما حكي أن بعض الأنبياء كان يتعبد في جبل، وبالقرب منه عين ماء، فجاء فارس فشرب منها ونسي صرة فيها دنانير، ثم جاء آخر فأخذها وانصرف، ثم بعد ذلك جاء رجل فقير وعلى رأسه حزمة حطب فشرب من الماء واستلقى يستريح، فرجع الفارس في طلب الصرة فلم يرها فأخذ الفقير وقتله، فقال النبي: إلهي إن هذا الفقير لم يأخذ الصرة فكيف سلطت هذا الظالم على هذا الفقير حتى قتله، وأنجيت من أخذها؟ فأوحى الله إليه أن هذا الفقير كان قتل أبا الفارس فمكنته من القصاص، وإن أبا الفارس كان قد أخذ

ألف دينار من مال من أخذ الصرة فرددته إليه من تركته. ولله در من قال:

تبارك من أجرى الأمور بحكمة كما شاء لا ظلما أراد ولا هضما
فما كان شيء غير ما الله شاءه فإن شئت طب نفسا وإن شئت مت كظما

ثم من الأصول **(حسن التوكل)** وهو الثقة بما عند الله، فمن توكل عليه كفاه، ومن انقطع إليه آواه. وفي الحديث: «**من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله**»، وناهيك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق: 3]. وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23] فالتوكل من لوازم كمال الإيمان، لأنه الاعتماد على الخالق دون رؤية الخلائق. ولا يمنع الأخذ بالأسباب شهود الملك الوهاب. وقال بعض العارفين في شرح التوكل: هو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أعطي شكر، وإن منع صبر. ويقال: علامة المتوكل أن لا يسأل ولا يرد و لا يحبس، وأكمل أحوال المتوكل أن يكون بين يدي الله تعالى كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف أراد، لا يكون له حركة ولا تدبير. كما قال بعضهم:

حقيقة العبد عندي في توكله سكون إحساسه عن كل مطلوب
وأن تراه لكل الخلق مطرحا يصون أسراره عن كل محبوب

وقال أبو علي الدقاق: للمتوكل ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض؛ فالمتوكل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه، اهـ.

ومعلوم أن كل درجة أرقى مما قبلها، فإن المتوكل يسكن إلى وعده في قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود: 6] ومع ذلك يسأله، وأما صاحب التسليم فيكتفي بعلمه تعالى بحاله ولا يسأله، وصاحب التفويض يرضى بحكمه تعالى سواء وافق غرضه أو خالفه.

"**لطيفة**": قال رجل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[المنافقون: 7].

"**فائدة**": قال الدميري: من دخل على من يخاف شره فليقرأ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[النحل، الآية: 99] ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَانَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران: 173-174] فإن الله تعالى ينجيه من شره.

ومن الحكم الجامعة هذه الوصية التي وجدت في جيب جالينوس بعد موته وهي: أحمق الحمقى من يملأ بطنه من كل ما يجد، وما أكلته فلجسمك، وما تصدقت به فلروحك، وما خلفته فلغيرك، والمحسن حي وإن نقل إلى دار البلى، والمسيء ميت وإن بقي في الدنيا، والقناعة تستر الخلة، وبالصبر تدرك الأمور، وبالتدبير يكثر القليل، ولم أر لابن آدم شيئا أنفع من التوكل على الله تعالى، اهـ.

ومن جوامع الحكم ما نقل أن بعض الأبدال مر على طبيب يصف العلاج للمرضى، فتقدم إليه وقال له: عالج مرضي، ففكر ساعة ثم قال له: خذ عروق الفقر، وورق الصبر مع إهليلج التواضع، واجمع الكل في إناء اليقين، وصب عليه ماء الخشية، وأوقد تحته نار الحزن، ثم صفه بمصفاة المراقبة في جام الرضا، وامزجه بشراب التوكل، وتناوله بكف الصدق، واشربه بكأس الاستغفار، وتمضمض بعده بماء الورع، واختم عن الحرص والطمع، فإن الله تعالى يشفيك.

وفي الحديث عنه ﷺ قال: «**لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا**» وفي هذا الحديث إثبات الأخذ بالأسباب مع التوكل، فإنه نسب لها الغدو، أي: الذهاب في أول النهار خماصا بكسر الخاء المعجمة، أي: جياعا، والروح آخره بطانا بكسر الموحدة، أي: ممتلئة البطون.

وفي الحديث: «**إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي**» وقد كانت الصحابة رضوان الله عليهم يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم أخذا بالأسباب، فلا يصح لأحد أن يخرج عن ذلك مع التوكل على العزيز الوهاب. ولذا قال بعضهم: طلب الكسب الحلال لازم كطلب العلم.

وقال بعضهم: من اكتسب وأجمل في الطلب كان من المؤمنين. وفي الحديث عنه ﷺ قال: «**لأن يأخذ أحدكم حبلا فيحتطب على طهره فيأكل ويتصدق خير له من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه فإن اليد العليا خير من اليد السفلى**».

ومن ألطف قول بعضهم:

توكل على الرحمن في الأمر كله ... ولا ترغبن في العجز يوما عن الطلب
ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزى إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أدلى الجذع من غير هزه إليها ولكن كل شيء له سبب

ومن الشروط **(خضوع)** أي: استكانة وتواضع، وفي الحديث: **«من تواضع لله رفعة ومن تكبر وضعه»** .

واعلم أنه ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع، ولكن المتواضع هو الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع. ومن وصايا الإمام النووي: إياك أن تحتقر أحدا من إخوانك، فإن العاقبة مجهولة، والعبد لا يدري بما يختم له، فإذا رأيت عاصيا فلا تعجب بنفسك عليه، فربما كان في علم الله أعلى منك مقاما ويصير يشفع فيك يوم القيامة، وإذا رأيت صغيرا فاحكم بأنه خير منك باعتبار أنه أقل منك ذنوبا، وإذا رأيت كبيرا فاحكم بأنه خير منك لتقدمه في الإسلام، اهـ.

ومما ينبه المغترين قول بعض العارفين:

أرى أبناء آدم أبطرتهم حظوظهمو من الدنيا الدنية
فلم بطروا وأولهم مني أو افتخروا وآخرهم منية

وقول الناصح الأمين لبعض المختالين:

تتيه وجسمك من نطفة وأنت وعاء لما تعلم

ومن الشروط **(خشوع)** وهو هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون، ويقال: هو قيام القلب بين يدي الحق. ويقال: هو الخوف الدائم في القلب.

قيل: أوحى الله إلى بعض أنبيائه: هب لي من قلبك الخشوع، ومن عينك الدموع، وسلني أستجب لك فإني قريب مجيب.

واعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان، ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز وجل، ومن رزق ذلك فإنه يكون خاشعا في الصلاة وغيرها، فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومراقبة جلاله.

فكن خاشعا لله في كل حالة تكن مؤمنا تزهو بنور يقين

ومن الأحوال المترتبة على شدة الخوف **(البكاء بذلة)** بكسر الذال المعجمة، أي: يتذلل بين يدي الله تعالى، فإن الخوف الناشئ من خشية الله تدمع منه العين قهرا، ويمنع صاحبه من مفارقة السيئات، ويحثه على ملازمة الطاعات، وقد ورد: **«ما من عبد مؤمن يخرج من عينيه من الدموع مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى**

إلا حرم الله عليه النار» وليس من ذلك بكاء الذين إذا سمعوا ما يقتضي الخوف لم يزيدوا على أن يبكوا ويقولوا: **«يا رب سلم»** وهم مع ذلك مصرون على اتباع الشيطان والأهواء، فإن هذا البكاء لا ينفع مع مخالفة عالم السر والنجوى، بل حال هؤلاء كحال من قصده سبع ضار وهو إلى جانب حصن مفتوح فلم يدخل فيه، وإنما اقتصر على قوله: **«رب سلم»**، حتى جاء السبع فأكله، فرحم الله عبدا بكت عينه من خشية الله، وقام بما يحبه سيده ويرضاه.

ومن غرر الحكم التي توجب البكاء على النفس وشدة الندم، ما نظمه الشيخ إسماعيل بن المقري في قوله:

إلى كم تماد في غرور وغفلة ... وكم هكذا نوم إلى غبر يقظة
لقد ضاع عمر ساعة منه تشترى ... بملء السماء والأرض أية ضيعة
أتنفق هذا في هوى هذه التي ... أبى الله أن تسوى جناح بعوضة
أترضى من العيش الرغيد تعيشه ... مع الملإ الأعلى بعيش البهيمة
فيا درة بين المزابل ألقيت ... وجوهرة بيعت بأبخس قيمة
أفان بباق تشتريه سفاهة ... وسخطا برضوان ونارا بجنة
أأنت صديق أم عدو لنفسه ... فإنك ترميها بكل مصيبة
ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ما ... فعلت لمستهم لها بعض رحمة
لقد بعتها هونا عليك رخيصة ... وكانت بهذا منك غير حقيقة
فويك استفق لا تفضحنها بمشهد ... من الخلق إن كنت ابن أم كريمة
فبين يديها موقف وصحيفة ... يعد عليها كل مثقال ذرة
كلفت بها دنيا كثيرا غرورها ... تقابلنا في نصحها بالخديعة
إذا أقبلت ولت وإن هي أحسنت ... أساءت وإن صافت أتت بالكدورة
ولو نلت منها مال قارون لم تنل ... سوى لقمة في فيك منها وخرقة
فدعها وأهليها بقسم وخذ كذا ... بنفسك عنها فهي كل الغنيمة
ولا تغتبط منها بفرحة ساعة ... تعود بأحزان عليك طويلة
فعيشك فيها ألف عام وينقضي ... كعيشك فيها بعض يوم وليلة

عليك بما تجزى عليه من التقى ... فإنك في لهو عظيم وغفلة
تصلي بلا قلب صلاة بمثلها ... يصير الفتى مستوجبا للعقوبة
تصلي وقد أتممتها غير عالم ... تزيد احتياطا ركعة بعد ركعة
فويلك تدري من تناجيه معرضا ... وبين يدي من تنحني غير محبة
تخاطبه إياك نعبد مقبلا ... على غيره فيها لغير ضرورة
ولو رد من ناجاك للغير طرفه ... تميزت من غيظ عليه وغيرة
أما تستحي من مالك الملك أن يرى ... صدودك عنه يا قليل المروءة
صلاة أقيمت يعلم الله أنها ... بفعلك هذا طاعة كالخطيئة
ذنوبك في الطاعات وهي كثيرة ... إذا عددت تكفيك عن كل زلة
سبيلك أن تستغفر الله بعدها ... وأن تتلافى الذنب منها بتوبة
فيا عاملا للنار جسمك لين ... فجربه تمرينا بحر الظهيرة
وجربه في لسع الزنابير تجتري ... على نهش حيات هناك عظيمة
فإن كنت لا تقوى فويلك ما الذي ... دعاك إلى إسخاط رب البرية
تبارزه بالمنكرات عشية ... وتصبح في أثواب نسك وعفة
فأنت عليه منك أجرى على الورى ... بما فيك من جهل وخبث طوية
تقول مع العصيان ربي غافر ... صدقت ولكن غافر بالمشيئة
وربك رزاق كما هو غافر ... فلم لم تصدق فيهما بالسوية
فإنك ترجو العفو من غير توبة ... ولست ترجى الرزق إلا بحيلة
على أنه بالرزق كفل نفسه ... ولم يتكفل للأنام بجنة
فلم ترضى إلا السعي فيما كفيته ... وإهمال ما كلفته من وظيفة
تسيء به ظنا وتحسن تارة ... على حسب ما يقضي الهوى في القضية

وكلها غرر، فيا فوز من اعتبر.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

أي ومن اللوازم لمريد سفر الآخرة **(تقوى إله العرش)** فإنها الزاد لقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: 197] وهي كلمة جامعة لكل خير لأن معناه امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات. وبذلك يصير العبد في وقاية من النار، ودرجة عالية مع المتقين بدار القرار.

والتحقيق أن التقوى ثلاث مراتب:

الأولى: التوقي من العذاب المخلد صاحبه، وذلك بالتبري من الكفر، وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[الفتح: 26] فإن المراد بها لا إله إلا الله محمد رسول الله.

والثانية: التجنب عن كل ما فيه لوم، حتى الصغائر عند قوم، وهذا المعنى هو المعني بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المائدة: 65].

والثالثة: أن يتنزه العبد عن كل ما يشغل سره عن الحق، وهو المعنى المراد بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: 102].

وقال بعض الأكابر: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يكون بحيث لو جعل ما في قلبه في طبق نظيف في السوق لم يستح ممن نظر إليه.

وقال بعض العارفين: إن خيرات الدنيا والآخرة جمعت تحت كلمة واحدة وهي التقوى، وإن شئت فانظر إلى ما في القرآن الكريم من ذكرها، فكم علق عليها من خير ووعد عليها من ثواب، وأضاف إليها من سعادة دنيوية وكرامة أخروية.

ولنذكر لك من خصالها وآثارها الواردة فيها ثلاث عشرة خصلة:

الأولى: المدح والثناء، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186].

والثانية: الحفظ والوقاية، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: 120].

الثالثة: التأييد والنصر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128].

الرابعة والخامسة: النجاة من الشدائد، والرزق الحلال، قال تعالى: ﴿وَمَن

يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: 2-3] كما قيل في ذلك:

ومن يتق الله يجعل له كما قال من أمره مخرجا
ويرزقه من غير حسبانه وإن ضاق أمر به فرجا

السادسة والسابعة: إصلاح العمل وغفران الذنوب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ [الأحزاب: 70-71].

الثامنة: محبة الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة، الآية: 4].

التاسعة: الإكرام والإعزاز، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: 13].

العاشرة: التيسير في الأمور، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: 4].

الحادية عشرة: البشارة بكل خير في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس: 63-64].

الثانية عشر: النجاة من النار، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [مريم: 72].

الثالثة عشرة: الخلود في الجنة، قال تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133]. فقد ظهر لك أن سعادة الدارين منطوية فيها، فطوبى لمن وفقه الله، وناهيك قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [النساء: 131]. فإن الله أعلم بصلاح عبيده من كل أحد، ولو كان في الدنيا خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير من هذه الخصلة لوصى بها.

ولله در ابن الوردي حيث قال: واتق الله فتقوى الله ما
جاورت قلب امرئ إلا وصل
ليس من يقطع طرقا بطلا إنما من يتقي الله البطل

ومن اللطائف أن رجلا كتب إلى صالح بن عبد القدوس:

الموت باب وكل الناس داخله فليت شعري بعد الباب ما الدار

فأجابه بقوله:

الدار جنات عدن إن عملت بما يرضي الإله وإن خالفت فالنار

هما محلان ما للناس غيرهما فانظر لنفسك ماذا أنت مختار

وقد سئل جعفر الصادق عن حقيقة العبودية، فقال: أن يرى العبد لنفسه فيما خوله الله تعالى ملكا، ولا يرى لنفسه تدبيرا، وأن يجعل اشتغاله بما أمره الله به، فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاث هانت عليه الدنيا، وكان من المتقين، لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83]. ويلزم أن لا تنظر في عبادتك إلى غناء عنها، فإنه تعالى لو نظر إلى ذلك لم يطلبها منك، بل نظر إلى حاجتك إليها، وكمالك بها، فانظر إلى ما نظره لك، وإلا أفسدت النظام، واستوجبت الملام.

وقال بعض العارفين: من أخرجه الله من ذل المعصية إلى عز التقوى أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآنسه بلا أنيس، ومن رضي باليسير من الرزق رضي منه باليسير من العمل، ومن زهد في الدنيا أثبت له الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصره بعيوب الدنيا، وأخرجه منها سالما إلى دار السلام، وما ألطف ما قيل:

ولا عيش إلا مع رجال قلوبهم تحن إلى التقوى وترتاح للذكر

وروي أن عابدا يقال له همام جاء إلى الإمام علي كرم الله وجهه وقال له: صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم، فقال: هم الذين منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، لولا الأجل الذي كتب الله لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقا إلى ربهم، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أيام قصيرة أعقبتهم راحة طويلة، تجارة رابحة مع ربهم، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها، أما الليل فصافون أقدامهم يرتلون لأجزاء القرآن ترتيلا، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا وتطلعت نفوسهم إليها تشوقا، وإذا مروا بآية فيها تخويف صغوا إليها بمسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير

جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم جاثون على ركبهم يطلبون من الله فكاك رقابهم، وأما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، لا يرضون من أعمالهم بالقليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا زكى أحدهم خاف مما يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بنفسي مني، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون. فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في الدين، وحزنا في لين، وإيمانا في يقين، وحرصا في علم، وعملا في حلم، وقصدا في غنى، وخشوعا في عبادة، وتجملا في فاقة، وصبرا في شدة، وطلبا في حلال، ونشاطا في هدى، وتحرجا عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر، يبيت حذرا، ويصبح فرحا حذرا من الغفلة وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة، إذا استصعبت عليه نفسه فيما يكره لم يعطها سؤلها فيما تحب، قرة عينه فيما لا يزال، وزهادته فيما لا يبقى، ويمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريبا أمله، قليلا زلَلُهُ، خاشعا قلبه، قانعة نفسه، سهلا أمره، حريزا دينه، ميتة شهوته، كظوما غيظه، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيدا فحشه، لينا قوله، غائبا منكره، حاضرا معروفه، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور، لا يحيف على من يبغض ولا يأثم فيمن يحب، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه، لا يضيع ما استحفظ، ولا ينابز بالألقاب، ولا يضر بالجار، ولا يشمت بالمصائب، إن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له، نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوه بمكر وخديعة.

فصعق همام صعقة كانت فيها نفسه، فقال علي كرم الله وجهه: أما والله كنت أخافها عليه، ثم قال: هكذا والله تصنع المواعظ البليغة بأهلها.

ثم إن المصنف أضاف العرش إلى الله تعالى، لأنه أعظم المخلوقات، ولا يضاف إلى العظيم إلا العظيم، وهو جسم عظيم نوراني علوي محيط بجميع الأجسام، وفي الحديث: «**ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا**

كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض وما الجميع في العرش إلا مثل ذلك» وقد خلق الله العرش إظهارا لقدرته لا مكانا لذاته ـ تعالى الله عن ذلك ـ، وأما قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: 5] فمعناه استولى عليه بالحكم على حد قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

فإن المراد استولى عليه بالحكم، أو أن الاستواء على العرش كناية عن الانفراد بالتدبير، كما يقال في ملوكنا: جلس فلان على سرير الملك، بمعنى أنه انفرد بالتدبير والحكم، وقد لا يكون هناك سرير فضلا عن الجلوس عليه. وقال سيدي محي الدين بن العربي: اعلم يا أخي أن الحق تعالى لما كان هو الملك الأعظم، ولا بد للملك من حضرة معينة يقصده عبده فيها لحوائجه، مع أن ذاته لا تقبل المكان أصلا، اقتضت المرتبة له تعالى أن يخلق عرشا، ثم ذكر لعباده أنه استوى عليه، فمن سأله أجابه نظير قوله ﷺ: **«ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة فيقول هل من سائل فأعطيه»** إلى آخر الحديث، مع أنه تعالى يسمع دعاء عبده في كل وقت من ليل أو نهار، ولكن الشرع يجري على العرف في كثير من الأحكام تنزلا لعقول العباد، ولله المثل الأعلى، ولولا تنزله لعقولهم لبقي أحدهم حائرا لا يدري أين يتوجه إلى سؤال ربه، فإن الله تعالى خلق العبد ذا جهة من أصله فلا يقبل إلا ما كان في جهة ما دام عقله حاكما عليه، فإذا منّ الله تعالى عليه بالكمال، واندرج نور عقله في نور إيمانه، تكافأت عنده الجهات في جناب الحق تعالى، وتحقق أنه لا يقبل الجهة ولا التحيز، فإنه كان ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان اهـ.

وفي قوله ﷺ: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»**، إرشاد وتنبيه للعباد على أن لا يقيدوا الحق بجهة دون جهة، فإن نسبة الفوقية إليه كنسبة التحتية لعدم دخوله في حصر الكون، ـ تعالى الله عن ذلك ـ، وإنما استحب رفع الأكف إلى السماء وقت الدعاء نظرا لكونها محل تنزلات الرحمات، ولأنها قبلة الدعاء، كما أن الكعبة قبلة الصلاة، وفي الحديث: **«إن الله تعالى احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم»**.

وإنما قال المصنف **(سرا وجهرة)** لأن المتقي لو اقتصر على أحد الحالين لم تصح تقواه، فإنه حينئذ يكون سره مخالفا لنجواه.

ثم صرح بما لا تصح التقوى إلا به فقال: **(وحسن مسير في علوم الشريعة)**

وهذا من اللوازم العشرة المعبر عنه بالمنهاج، يعني أنه يلزم المريد النظر في علوم الشريعة كالفقه والحديث والتفسير، فإن ذلك يوصل إلى رضا العليم الخبير، وفي الحديث: «**من تفقه في دين الله عز وجل كفاه الله تعالى ما أهمه ورزقه من حيث لا يحتسب**»، وقال ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي**» وقال ﷺ: «**ما عُبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه**» وقال ﷺ: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله**»، وقد أشبعنا الكلام على هذا الحديث في شرح مختصر ابن أبي جمرة فانظره إن شئت. وما ألطف ما قيل في فضل العلم:

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهمو آدم والأم حواء
فإن يكن لهمو من أصلهم نسب يفاخرون به فالطين والماء
ما الفخر إلا لأهل العلم إنهموا على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال بعضهم:

العلم مغرس كل فضل فاجتهد أن لا يفوتك فضل ذاك الغرس
واعلم بأن العلم ليس يناله من همه في مطعم أو ملبس
واحرص لتبلغ فيه حظا وافرا واهجر له طيب المنام وغلس
لتعز حتى إن حضرت بمجلس كرمت فيه وصرت صدر المجلس
فإن الخلي من العلوم مقامه عند النعال له صوت الأخرس

وقال آخر:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن أمر ألم يحي بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور

وينبغي لمن أراد تحصيل العلم أن يلاحظ قول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وصحبة أستاذ وطول زمان

مع ملاحظة ما في هذين البيتين من الإرشاد. فإنه يبلغ بمجموع ذلك المراد:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي

وما ألطف قول ابن الوردي:

اطلب العلم ولا تكسل فما أبعد الخير على أهل الكسل
واحتفل للفقه في الدين ولا تشتغل عنه بمال وخول
واهجر النوم وحصله فمن يعرف المطلوب يحقر ما بذل
لا تقل قد ذهبت أربابه كل من سار على الدرب وصل
في ازدياد العلم إرغام العدا وجمال العلم إصلاح العمل

وقد كان بشر الحافي يقول: يا طالب العلم إنما أنت متلذذ متفكه بالعلم، تسمع وتحكي لا غير، ولو عملت بما علمت لتجرعت مرارة العلم، ويحك إنما يراد بالعلم العمل، فاسمع يا أخي وتعلم ثم اعمل واهرب، ألا ترى إلى سفيان الثورى رضي الله عنه كيف طلب العلم وتعلم وهرب، فإن طلب العلم إنما يدل على الهرب من الدنيا لا على حبها.

وكان يقول: كان العلماء رضي الله عنهم موصوفين بثلاثة أشياء: صدق اللسان، وطيب المطعم، وكثرة الزهد في الدنيا، وأنا اليوم لا أعرف في هؤلاء أحدا فيه واحدة من هذه الخصال.

ثم يقول: ويحكم يا علماء السوء أنتم ورثة الأنبياء، وإنما ورثوكم العلم فحملتموه وزغتم عن العمل به، وجعلتم علمكم حرفة تسكبون بها معاشكم.

وكان إبراهيم البلخي يقول: إذا كان العالم طامعا، وللمال جامعا، فبمن يقتدي الجاهل.

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: قد غلب على العباد والنساك والعلماء في هذا الزمان التهاون بالذنوب حتى غرقوا في شهوة بطونهم وفروجهم، وحجبوا عن شهود عيونهم، فهلكوا وهم لا يشعرون، وأقبلوا على أكل الحرام وتركوا طلب الحلال، ورضوا من العمل بالعلم، يستحي أحدهم أن يقول فيما لا يعلم لا أعلم، هم عبيد الدنيا لا علماء الشريعة، إذ لو علموا بالشريعة لمنعتهم عن القبائح، إن سألوا ألحوا،

وإن سئلوا شحوا، لبسوا الثياب على قلوب الذئاب، اتخذوا مساجد الله التي يذكر فيها اسمه لرفع أصواتهم باللغو والجدال والقيل والقال، واتخذوا العلم شبكة يصطادون بها الدنيا، فإياكم ومجالستهم اهـ.

فتخلص يا أخي من هذه الأوحال، وتأمل قول من قال :

العلم نور فلا تهمل مجالسه واعمل جميلا يرى فالفضل في العمل

وقول بعض أهل الإشارات:

تعلم ما استطعت لقصد وجهي فإن العلم من سفن النجاة
وليس العلم في الدنيا بفخر إذا ما حل في غير الثقاة
ومن طلب العلوم لغير وجهي بعيد أن تراه من الهداة

والله تعالى يرزقنا التوفيق لأقوم طريق.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

8 | وَعَزْفٌ عَنِ الأَكْدَارِ وَالغَيْرِ وَالسِّوَى وَبَذْلٌ وَتهْذِيبٌ وَإِخْلاَصُ نِيَّةِ

أي: ومن الشروط **(عزف)** بفتح العين المهملة وسكون الزاي آخره فاء، أي: صرف النفس **(عن الأكدار)** المنغصة التي تحول بين العبد وربه، يقال: عزف عن الشيء عزفا، من بابي ضرب وقتل وعزيفا انصرف عنه، ومنه قول بعض العارفين: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها، والمراد **(بالغير والسوى)** كل ما يشغل عن عبادة الله تعالى، فيجب عند القوم صرف النفس عن كل شاغل عن الله، على حد قول بعضهم:

وحسب السوى فرض على القوم رفضه وكل كمال في اتباع الفريضة

ومن الشروط **(بذل)** بفتح الموحدة وسكون المعجمة أي إعطاء عن طيب نفس بقوله ﷺ : **«السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار، والجاهل السخي أحب إلى الله تعالى من العالم البخيل»**.

واعلم أن السخاء أول مراتب البذل، وأعلى منه الجود، لأنه يشعر بزيادة البذل والسرعة إليه، وأعلى منهما الإيثار، فمن أعطى البعض وأبقى البعض فهو

صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئا فهو صاحب جود، ومن قاسى الشدائد وقدم غيره عليه فهو صاحب إيثار، كذا أفاده القشيري.

مدح الله أصحاب هذا المقام الأخير بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9] أي: فقر واحتياج لما في أيديهم، ومن كلامهم: أقبح من كل قبيح صوفي شحيح. فاضرع إلى الله في الخروج عن هذا الملام، وقدم ما يقربك لديه زلفى بدار السلام:

وكن باذلا للمال إن رمت قربه والروح تحظى عنده بوصال

وما ألطف قول بعضهم:

مالك من مالك إلا الذي قدمت فابذل طائعا مالكا
تقول أعمالي ولو فتشوا رأيت أعمالك أعمى لك

ومن الشروط **(تهذيب)** أي: تنقية عيوب النفس حتى تصير على أكمل الحالات. وهذا إنما يحصل بالتخلق بمحاسن الأخلاق والتجمل بأحاسن الرياضات، فإن عيوب النفس جلية وخفية، والنظر في الجلية سهل على كل إنسان، وأما النظر في الخفية فلا يصل إليه إلا أهل العرفان، فمنها: الاعتماد على العمل، وإرادة غير ما أقيم فيه العبد، وحب التدبير مع الله تعالى، والاستعجال في الدعاء، والاعتراض عند فوات المراد، وفقد الإخلاص، وحب الشهرة، وإيثار الخلطة، وانطباع الأكوان في مرآة القلب، واسترسال القلب في أودية الغفلة، وقلة المبالاة بالهفوة، وإحالة العمل على الفراغ، والاحتجاب عن الحق برؤية الخلق، والوقوف عندما يبدو من كشف، وغير ذلك. فمن غفل عن تهذيب نفسه كان من الهالكين المتبعين للأهواء ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 40-41]. فتأمل يا أخي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف: 28]. وانته بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: 26]

وهذب هداك الله نفسك كي ترى جميل الرضى والأنس في جنة المأوى

وقوله: **(وإخلاص نية)** تكرار مع قوله فيما تقدم «**حياء وإخلاص**» ولعله كرره لشدة الاعتناء به، فإن الإخلاص روح الأعمال، وعليه مدار حسن الأحوال وناهيك قوله سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾

[الكهف:110]، وقيل لرسول الله ﷺ : فيم النجاة يا رسول الله؟ فقال: «**أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس**» وفي الحديث القدسي: «**الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببته من عبادي**».

وقال ذو النون المصري: ثلاث من علامات الإخلاص؛ استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية الأعمال، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة.

وقال الفضيل بن عياض: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما. وفي الحديث: «**العالمون هلكى إلا العاملون والعاملون هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم**».

وفي هذا المعنى:

خليلي قطاع الفيافي إلى العلا ... كثير وإن الواصلين قليل
وجوه عليها للقبول علامة ... وليس على كل الوجوه قبول

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

9 | وَصَمْتٌ وَتَسْهِيدٌ وَمَوْتٌ بِحُبِّهِ ... وَتَحْسِينُ أَوْصَافٍ وَتَجْوِيعُ مَعْدَةِ

أي: ومن أركان الطريق **(وصمت)** أي: سكوت إلا عن ذكر الله، لما في الحديث: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت**»، وروى عبد الله ابن سفيان عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك، قال: «**قل: آمنت بالله ثم استقم**» قال: قلت: فما أتقي؟ فأومأ بيده إلى لسانه.

وقال عقبة بن عامر: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «**أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك**» وقال ﷺ: «**من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة**» وقال ﷺ: «**التؤدة والرفق والاقتصاد والصمت جزء من ستة وعشرين جزءا من أجزاء النبوة**»

وقال بعض العارفين: قد جمعت مكارم الخصال في أربع وبها صارت الأبذال أبذالا: قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، والاعتزال عن الأنام.

وفي الحديث: «**كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثة: أمر بمعروف أو نهي**

عن منكر أو ذكر الله تعالى»، وناهيك قوله سبحانه: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: 114].

وقد سئل أبو يزيد البسطامي بأي شيء يصل العبد إلى أعلى الدرجات؟ فقال: بالخرس والعمى والصمم. ومن كلامه: من عرف الله فليس له مع الخلق لذة، ومن عرف الدنيا فليس له في معيشته لذة، ومن انفتحت عين بصيرته بهت ولم يتفرغ للكلام.

وسئل بعض الحكماء عن قلة كلامه، فقال: لأن الحق سبحانه إنما خلق لنا أذنين ولسانا لنسمع ضعف ضعف ما نقول لا لنقول أكثر مما نسمع.

وللصفي الحلي:

اسمع مخاطبة الجليس ولا تكن عجلا بنطقك قبل ما تتفهم
لم تعط مع أذنيك نطقا واحدا إلا لتسمع ضعف ما تتكلم

وما ألطف قول بعضهم: إن كان الكلام يهديك، فالسكوت يقيك. يعني: أن الكلام وإن كان نافعا في بعض الأوقات، فالسكوت يقي صاحبه من الوقوع في الهلكات، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح. ومن هذا المعنى قول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

قالوا سكت وقد خوصمت قلت لهم إن الكلام لباب الشر مفتاح

في الصمت عن أحمق أو جاهل شرف وفيه أيضا لصون العرض إصلاح

وقال بعضهم:

منع اللسان من الكلام لأنه كهف البلاء وجالب الآفات
فإذا نطقت فكن لربك ذاكرا لا تنسه واحمده في الحالات

وكان سيدي ماجد الكردي يقول: الصمت عبادة من غير عناء، وزينة من غير حلي، وهيبة من غير سلطان، وحصن من غير سور، وراحة للكاتبين، وغنية عن الاعتذار.

وكان جعفر الصادق يقول: عزت السلامة حتى لقد خفي مطلبها، فإن تكن في شيء فيوشك أن تكون في الخمول، فإن لم يكن فيوشك أن تكون في التخلي، فإن لم يكن فيوشك أن تكون في الصمت، فإن لم يكن فيوشك أن تكون في كلام

الشرف الصالح، والسعيد من وجد في نفسه خلوة، والله الموفق. وما ألطف قول أبي العتاهية:

إن كان يعجبك السكوت فإنه قد كان يعجب قبلك الأخيارا
ولئن ندمت على سكوتك مرة فلتندمن على الكلام مرارا
إن السكوت سلامة ولربما زرع الكلام عداوة وضرارا

ومن الأركان **(تسهيد)** وهو السهد، والسهاد نقيض الرقاد، يعني: أن يكون المريد من الذين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: 16] أي: تتباعد جنوبهم عن مواضع الاضطجاع للنوم قياما بحقه تعالى من العبادة، ليحوز مواهب ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17].

وقد ورد أن «**المتهجد يشفع في أهل بيته**»، وورد «**ركعتان في جوف الليل يركعهما ابن آدم خير له من الدنيا وما فيها**»، وقال ﷺ: «**أتاني جبريل فقال يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس**»، وقال ﷺ: «**رحم الله امرئ قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح في وجهها الماء ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى فإن أبى نضحت في وجهه الماء**»، وورد أن «**من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار**»، وروي عن معاد ابن جبل رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار. قال: «**لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت**»، ثم قال: «**ألا أدلك على أبواب الخير؟**» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «**الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل**» ثم تلا ﷺ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 16- 17]. ثم قال ﷺ: «**ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟**» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد**» ثم قال ﷺ: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» قلت: بلى يا رسول الله فأخذ

بلسانه، وقال: «**كف عليك هذا**» قلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال ﷺ: «**ثكلتك أمك وهل يكب الناس في النار على وجوههم ـ أو قال على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم**» اهـ.

وقد أشبعنا الكلام على هذا الحديث في شرح الأربعين النووية فانظره إن شئت.

وورد أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال ﷺ: «**أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه**»، وروي أنه ﷺ قام الليل حتى تورمت قدماه، ولما قيل له: هون على نفسك يا رسول الله ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال ﷺ: «**أفلا أكون عبدا شكورا**».

وقيل: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود كذب من ادعى محبتي، وإذا جن عليه الليل نام عني، أليس كل حبيب يحب الخلوة بحبيبه.

وقد كانت رابعة العدوية تصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، وتقول: والله ما أريد بها ثوابا، ولكن ليسر بذلك رسول الله ﷺ ويقول للأنبياء عليهم الصلاة والسلام: انظروا إلى امرأة من أمتي هذا عملها في اليوم والليلة. ولما مات الجنيد رآه بعض أصحابه في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: طارت تلك الإرشارات، وطاحت تلك العبارات، وغابت تلك العلوم، واندرست تلك الرسوم، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في السحر.

وقال الإمام الشعراني عن شيخه الخواص: قيام الليل عند العارفين كالفرض في الاعتناء به، فمن ادعى مقام العرفان ونام الليل في الأسحار فهو غير صادق. وكان سيدي إبراهيم الدسوقي يقول: من قام بالأسحار، ولزم الاستغفار، كشف الله له الأنوار، وأطلع في قلبه شموس المعاني والأقمار، فيا ولد قلبي اعمل بما قلته لك تكن من المفلحين.

وقال ذو النون المصري: رأيت ببعض سواحل الشام امرأة فقلت: من أين أقبلت؟ قالت: من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فقلت: وأين تريدين؟ قالت: أريد رجالا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فقلت: صفيهم لي، فقالت:

قوم همومهمو بالله قد علقت فما لهم همم تسمو إلى أحد

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم يا حسن مطلبهم للواحد الصمد

ومما قيل في الأبرار الذين لازموا القيام بالأسحار:

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهمو وهمو ركوع
أطار الخوف نومهمو فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

ولبعضهم:

طوبى لمن سهرت في الليل عيناه وبات ذا قلق في حب مولاه
وناح يوما على تفريطه وبكى خوفا لما قد جناه من خطاياه
وقام يرعى نجوم الليل منفردا خوف الوعيد وعين الله ترعاه

فيا إخوان الصفاء، وأرباب الوفاء:

أطيعوا وجدوا ولا تكسلوا فأنتم إلى ربكم ترجعون
ولا تهجعوا فالأكابر كانوا قليلا من الليل ما يهجعون

وفي الحديث الشريف: «**إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام**».

وقد ذكر بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الزمر: 61]: أن العمل الصالح يقول لصاحبه يوم القيامة عند مشاهدة الأهوال: اركب فطالما ركبتك في الدنيا فيركبه ويتخطى به شدائد القيامة.

"**فائدة**": روي أن من قال عند نومه: «**اللهم لا تؤمنا مكرك، ولا تنسنا ذكرك، ولا تكشف عنا سترك، ولا تجعلنا من الغافلين، اللهم ابعثنا في أحب الساعات إليك حتى نذكرك فتذكرنا، ونسألك فتعطينا، وندعوك فتستجيب لنا، ونستغفرك فتغفر لنا**». بعث الله إليه ملكا في أحب الساعات إليه فيوقظه، فإن قام ودعا استجاب له.

ومن اللطائف أن أنا يزيد البسطامي كان صغيرا في المكتب فلما وصل إلى سورة المزمل قال لأبيه: من هذا الذي أمره الله بقيام الليل، فقال: هذا نبينا محمد ﷺ، وقال: فلم لم تفعل كما فعل محمد ﷺ؟ قال: ذاك أمر شرفه الله به. فلما قرأ: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [الآية: 20] قال له: من هؤلاء يا أبت؟ قال: أصحاب

محمد، قال: فلم لم تفعل كما فعلوا؟ قال: هؤلاء قواهم الله على قيام الليل، فقال: يا أبت لا خير فيمن لا يقتدي بمحمد ﷺ وأصحابه، فصار أبوه يصلي بالليل، فقال: يا أبت علمني صلاة الليل، فمنعه، وقال له: إنك صغير، فقال: إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة وأمر بأهل الجنة إلى الجنة، أقول: يا رب أردت الصلاة بالليل فمنعني أبي، فقال: يا بني قم فصل. اهـ

فاجتهد يا أخي في الوصول إلى مقام الرجال، وتأمل بفكرك الثاقب نصيحة من قال:

يغوص البحر من طلب اللآلي ومن رام العلا سهر الليالي
تروم الوصل ثم تنام ليلا لقد أطمعت نفسك في المحال

ومن الشروط **(موت بحبه)** وهو الموت الاختياري، بحيث يفنى السالك عن شهوته النفسية، ويخرج عن حظوظه بالكلية. وهو المشار له بقوله ﷺ: **«موتوا قبل أن تموتوا»** وهو المرتبة الثالثة من قوله ﷺ: **«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك مع الموتى»**.

واعلم أن للصوفية أوصافا يعبرون عنها بالموت الأبيض والموت الأصفر والموت الأسود والموت الأحمر؛ فأما الموت الأبيض فيعنون به الجوع، لتنور الباطن به، فإذا كان السالك ممن لا يعرف الشبع بل لا يزال جائعا، فقد مات الأبيض، وحينئذ يحي فطنته، فإن البطنة تميت الفطنة.

وأما الموت الأصفر فهو لبس المرقعات، بأن يقتصر على ما يستر العورة مما لا قيمة له، فمن اقتصر في لباسه على هذا القدر فقد مات الموت الأصفر، لاصفرار عيشته بالقناعة، وبعضهم يعبر عن هذا بالموت الأخضر، وحينئذ يحيى بجماله الذاتي المستغني عن التجمل العرضي.

وأما الموت الأسود فهو احتمال أذى الخلق والكف عنه باليد واللسان، فإذا تحقق السالك بالمقام الذي يصير فيه بحيث لا يجد في نفسه حرجا مما يناله من أذى الناس وسبهم وشتمهم، فقد مات الموت الأسود، وحينئذ يحيى بالإمداد من حضرة الجواد، لأنه يصير ممن شاهد أن الكل منه وإليه، فتحقق بإشارة:

وحيث الكل مني لا قبيح وقبح القبح من حيثي جميل

وأما الموت الأحمر فهو مخالفة النفس والهوى، وهذا هو الجهاد الأكبر

المشار له بقوله (لما رجع من قتال الكفار: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**» فإنهم قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله، قال: «**جهاد النفس**»، وورد «**المجاهد من جاهد نفسه**» وناهيك قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: 69] فإنه يشمل هذا.

ثم اعلم أن القيامة الصغرى هي حالة الموت الحقيقي الذي هو إزهاق الروح، وإليها الإشارة بقوله ﷺ: «**من مات فقد قامت قيامته**» فهي أنموذج القيامة الكبرى، لأن الإنسان أرضي مخلوق من التراب، فإن انهدمت بالموت أركان بدنه فقد زلزلت الأرض زلزالها، وبيان ذلك أن عظامه جبال أرضه، ورأسه سماء أرضه، وقلبه شمس أرضه، وسمعه وبصره وسائر حواسه نجوم سمائه، ومفيض العرق من بدنه بحر أرضه، وقس على ذلك، فإذا انفجر من هول الموت عرق جبينه، فقد فجرت البحار تفجيرا، وإذا فارقت الروح قلبه عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا، وإذا بطل سمعه وبصره وسائر حواسه فقد انكدرت النجوم، وإذا التفت الساق بالساق وهما مطيتاه فقد عطلت العشار تعطيلا، وإذا فارقت الروح الجسد فقد ألقت الأرض ما فيها وتخلت، وإذا صار العظم رميما فقد نسفت الجبال نسفا، وإذا انشق دماغه فقد انشقت السماء شقا، ومعلوم أن أهوال القيامة الكبرى تكون أعظم من أهوال الصغرى بكثير. فيا فوز من استعد لها واجتهد في مرضاة العليم الخبير.

ولما قال الرشيد لابن السماك: عظني، قال له: احذر أن تقدم على جنة عرضها السموات والأرض وليس لك فيها موضع قدم.

ثم أشار المصنف إلى التخلق بالأخلاق المرضية بقوله: **(وتحسين أوصاف)** يعني: أن من آداب المريد أن يحسن أوصافه فيكون متحليا بمكارم الأخلاق التي توصله إلى رضا الكريم الخلاق.

وفي الحديث: «**ينال الرجل بحسن خلقه درجة الصائم القائم**» وقال ﷺ: «**إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا**» وقال ﷺ: «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم**»، قال بعض العارفين: علامة حسن الخلق عشر خصال؛ قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس، والتفرد بمعرفة عيوب النفس دون عيوب الغير، وطلاقة الوجه للصغير

والكبير، ولطف الكلام مع كل أحد.

وقد عرفوا علم الأخلاق بأنه علم بأصول يعرف بها أنواع الفضائل وكيفية اكتسابها، وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها. وفائدته تخلق الإنسان بالأخلاق المحمودة، وتجنبه للأخلاق المذمومة. وما ألطف ما قيل:

بمكارم الأخلاق كن متخلقا ليفوح مسك ثنائك العطر الشذي
وانفع صديقك إن أردت صداقة وادفع عدوك بالتي فإذا الذي

وروي أن لقمان اختار من حكمه أربعا أوصى بها ولده، فقال له: تذكر اثنتين وانس اثنتين؛ فأما اللتان أوصاه بتذكرهما فالذنب والموت، وأما اللتان أوصاه بنسيانهما فإحسانه للناس وإساءتهم عليه. وقد نظم ذلك العلامة الأجهوري فقال:

إذا شئت أن تحيى ودينك سالم وعقلك موفور يزيد ويكمل
فكن معرضا عن كل بر صنعته مع الناس والسوء الذي بك يعمل
وكن ذاكر للذنب والموت تعملن بما اختار لقمان الحكيم المفضل

وكان الإمام علي كرم الله وجهه يترنم بهذه الأبيات:

إن المكارم أخلاق مطهرة فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها والجود خامسها والعرف سادسها
والبر سابعها والصبر ثامنها والشكر تاسعها واللين عاشرها
والنفس تعلم أني لا أصدقها ولست أرشد إلا حين أعصيها
والعين تعلم من عيني محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها

وفي الحديث الشريف عنه ﷺ قال: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال:** ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]». ولله در القائل:

خذ العفو وأمر بعرف كما أمرت وأعرض الجاهلين
ولن في الكلام لجمع الأنام فمستحسن من ذوى الجاهلين

ولنا في هذا المعنى:

خذ العفو عن جاهل قد بغى عليك تفز بالمقام الأمين

وبالعرف فأمر وكن محسنا وواصل وأعرض عن الجاهلين

وقال بعض البلغاء: من وصل رحمه، وصل الله رحمه، ومن أجار جاره أعانه الله وأجاره.

وحسبي من ذل وسوء صنيعة معاداة ذي القربى وإن قيل قاطع
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه لترجعه يوما إلى الرواجع
ولا يستوي في الحكم عبدان واصل وعبد لأرحام القرابة قاطع

ومن لطائف الاستعطاف، قول بعض أهل الإنصاف:

فلا تحتقر نفسي وأنت خليلها فكل امرئ يصبوا إلى من يشاكل

ومن أركان الطريق: **(تجويع معدة)** اختيارا لما في الحديث: إذا جاع الرجل ملأ الله قلبه نورا فالجوع هو الأصل في سلوك طريق المقربين، فعليك بملازمته تكن من المفلحين، فإنه يميت الهوى، ويصفي الفؤاد، ويورث فهم دقائق العلوم التي بها يبلغ العبد المراد. وقد ورود: «**لا ينظر الله إلى جوف ملئ من طعام**» ولذا كان النبي ﷺ وأصحابه لا يأكلون إلا عن فاقة.

ففي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاءت فاطمة رضي الله عنها بكسرة خبز إلى رسول الله ﷺ فقال: «**ما هذه الكسرة يا فاطمة؟**» قالت: قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة، فقال: «**أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام**» اهـ.

فتدبر ما تضمنه هذا الخبر من حال تقليل السيد الكامل، وما تحمله لنيل زيادة الفضائل مع ما منحه الله من الكمالات ومعالي المقامات، فإن السر في كمال الإنسان والواسطة العظمى في سابق علم الرحمن، لتتحقق ما أنت عليه من التقصير وذلك منك على خطر خطير، فعسى أن تتأثر نفسك الخبيثة، وتنزعج عن عاداتها الخسيسة، فتتأسى بسيد الكائنات، لتندرج مع أهل السعادات. وما ألطف ما قيل:

فلو كانت الدنيا جزاء لمحسن إذا لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامة وقد شبعت فيها بطون البهائم

وقال بعض العارفين إن هذه النفس في غاية الخساسة والدناءة، ونهاية الجهل والغباوة، ينبهك إلى ذلك أنها إذا همت بمعصية أو انبعثت الشهوة، فلو تشفعت إليها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

صلى الله عليه وعلى آله، وصحبه، وسلم.

أما بعد،

فهذا كتاب «**تائية السلوك إلى ملك الملوك**» نضعه بين يديك - أخي المسلم - لما يضم بين دفتيه من مسائل جمة في علم التربية والأخلاق، تلك الأخلاق التي كادت تفقد بالكلية في تعاملات المسلمين فيما بينهم من جهة، وبينهم وبين ربهم من جهة ثانية.

وقد كان الأصل في هذا الكتاب نظما نسج فرائده العلامة **أحمد عرب الشرنوبي**[1]، بلغ به واحدا وتسعين بيتا، بين فيه بأسلوب بديع ورصين أهم الأصول والأركان واللوازم والشروط والأحوال التي يحتاج إليها المريد للوصول إلى مقام صفاء النفس.

كما أوقف الناظمُ -رحمه الله- الطالبَ على ما يلزم توفره في الشيخ المربي الذي يرشد الطريق، فبين أوصاف مَنْ يصلح لهذه المهمة، حتى يتميز عن الدجالين الذين يضلون ولا يهدون.

وأوضح بعد ذلك مجموعة من الآداب التي يجب على المريد أن يتحلى بها مع شيخه، إضافة إلى مسائل أخرى ستقف عليها - أخي القارئ -.

ولما كان لهذا النظم تلك الأهمية، بادر إليه العلامة **عبد المجيد الشرنوبي الأزهري**[2]، فشرح عباراته بأسلوب سهل رشيق ممتع، وحلاه بالشواهد من القرآن

---

1 - هو أبو العباس أحمد بن عرب بن عثمان الشرنوبي، ولد سنة 931هـ وتوفي سنة 994هـ، له ترجمة مختصرة في شجرة النور الزكية (ص280، برقم 1057)، وانظر له ترجمة وافية بقلم الشارح عند البيت رقم. 73

2 - هو عبد المجيد الشرنوبي الأزهري، أبو محمد، العلامة المحقق، أخذ عن جملة من علماء الأزهر، له تآليف رزق فيها القبول، منها؛ في الحديث: «شرح مختصر البخاري لابن أبي جمرة» و«شرح الأربعين النووية». وفي الفقه: «منهاج التسهيل على متن خليل»، و«تقريب المعاني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني». وفي اللغة: «إرشاد السالك على ألفية ابن مالك»، وغيرها. كان حيا - رحمه الله - سنة 1340هـ. [انظر شجرة النور الزكية (ص412 رقم الترجمة 1647)].

الكريم، وأحاديث[3] سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وما أثر من دُرَرٍ عن بعض الصالحين وأهل العلم، فصار هذا الشرح بذلك لبنة مشيدة في علم الأخلاق تضيء الطريق لكل من رام طهارة النفس، وصفاء القلب، والتمتع بجنة التسليم والرضا لله رب العالمين.

ولقد كان لنا شرف تصحيحه والاعتناء به، وإخراجه في حلة تليق به، إسهاما منا في إحياء هذا التراث المنسي الذي يزخر بالنفائس.

هذا، وإنا لا ندعي الكمال في هذا التصحيح والاعتناء، وإنما هو جهد المقل، نرجوا به وجه رب كريم يوم لقائه، ونسأله جل وعلا أن ينفع به، إنه على ما يشاء قدير، والحمد لله رب العالمين وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

3 – وهذه الأحاديث التي أتى بها الشارح رحمه الله، فيها الصحيح والحسن والضعيف، بل والموضوع، وأغلب هذه الموضوعات كان يصدرها بعبارة: «ورد» أو «روي» وغيرها من عبارات الإيهام والتمريض، فلتكن على بينة أخي القارئ.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي سلك بأحبابه سواء السبيل، ووفقهم لمرضاته فنالوا الجزاء الجزيل، والصلاة والسلام على الواسطة العظمى لنا في كل نعمة، سيدنا محمد الذي أرسله الله لجميع العالمين رحمة، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه وجميع التابعين.

وبعد،

فيقول الفقير إلى مولاه الغني، عبد المجيد الشرنوبي الأزهري، بلّغه الله الآمال، وألطف به جميع الأحوال: لمّا كان علم التصوف مما يصفي الفؤاد، ويوصل السالك بالجد إلى بلوغ المراد، وكان من أجمل ما أُلف فيه هذه التائية الفريدة، التي هي في بابها بديعة وحيدة، نسيجة قطب الوجود، وعمدتي في خطوبي، سيدي وسندي السيد أحمد عرب الشرنوبي، بادرت إلى ارتشاف حميا كأسها الشهي، وطفقت أنظم لؤلؤا في جيدها البهي، ليكون ذلك شرحا بديع المثال، مفصلا لتلك الدراري التي نسجت على أحسن منوال، ملتقطا تلك اللآلئ البهية، من بحار السادة الأعلام، ذوي الكؤوس الوفية، فإني خادم أعتابهم، وتراب أقدامهم.

وللأرض من كأس الكرام نصيب

وأنا أسأل الله وأتوجه إليه، وأتوسل بأكمل الرسل لديه، أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، ويرشدنا لما يبلغ كل أحد منا مناه، وها أنا أشرع في المقصود بعون العلي العظيم، فأقول:

قال المصنف رضي الله عنه:

بسم الله الرحمن الرحيم

ابتدأ بها اقتداء بمنزل الكتاب العزيز لما في الحديث الشريف: « **تخلقوا بأخلاق الله**» أي: بالأخلاق التي يليق للبشر التخلق بها كالحلم والكرم، والبدء بما

بدأ به كتابه ونحو ذلك، ومعلوم أن كتابه سبحانه مبتدأ بها أعني بعد ترتيبه وجمعه، أو باعتبار ما في اللوح المحفوظ فلا يرد أنها ليست أول ما أنزل. قال بعض العارفين: ولما كانت الأسماء الإلهية سبب وجود العالم، كانت البسملة خير ابتداء، فكأنه يقول: بسم الله الرحمن الرحيم ظهر العالم، فهي بيان لافتتاح الإيجاد، والدخول إلى بيت الوجود بحسب الاستعداد اهـ.

ومعنى الباء الإشاري: بي كان ما كان وبي يكون ما يكون. ولذا قال بعض العارفين: ما رأيت شيئا إلا ورأيت الباء مكتوبة عليه. بمعنى: بي قام كل شيء. وإنما بُدئت البسملة بالباء إشارة إلى أنه لا يتقدم إلى حضرته تعالى إلا أهل الانكسار، فإن الباء لما بنيت على الكسر وعملت الجر فيما بعدها صار لها الرفعة والتقدم، على حد ما يؤخذ بالإشارة من قول الإمام ابن الفارض:

ولو كنت بي من نقطة الباء خفضة رفعت إلى ما لم تنله بحيلة

وإنما طوّلوا «**الباء**» في «**بسم الله**» تعظيما للحرف الذي بدئ كتاب الله به، وإشارة إلى أن من تواضع لله رفعه، وحذفوا ألف «**اسم**» من «**بسم الله**» وأثبتوها في نحو: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[العلق، الآية: 1] لكثرة استعمال البسملة، وكثرة الاستعمال تقتضي الخفة.

ولفظ الجلالة علم على الذات الواجب الوجود، الواسع الكرم والجود، وهو اسم الله الأعظم عند الجمهور، وتخلف الإجابة عند الدعاء لتخلف شروطها التي منها أكل الحلال كما هو مشهور، أو أن الله تعالى ربما أخر الإجابة عند الدعاء به للوقت الذي يريده هو لا للوقت الذي يريده الداعي، وفي الحديث الشريف: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**» إذا علمت ذلك فلا تقع عند تأخر الإجابة في اليأس من القبول، وتدبر ما ترنمت به نسمات القبول:

لا تيأسن وإن طال الصدود فقد تجفى أناس وهم في السر أحباب

فإذا دعوت أو توهمت أو سمعت «**لا**»، فلا تكن ممن أعرض وسلا، بل علق رجاءك بمولاك فإنه يبلغك مناك، وتأمل قول من قال من أهل الأحوال:

أستشعر اليأس في لائم يطمعني إشارة في اعتناق اللام بالألف

هذا وقد قال بعض العارفين بعد قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة**» : اعلم أن المسمى واحد وأسماؤه كثيرة، سمى بها نفسه ليتسع مجال الداعين بها فهي للداعين كالأبواب والطرق الموصلة للمقصود ولا شك أن بعض أسمائه تعالى أقرب للوصول من بعض، لأن مسالكها تختلف باختلاف السالكين، فرب دعاء ببعض الأسماء يصلح لشخص دون آخر، ورب دعاء باسم يكون قريبا جدا لمن جد في خاصيته دون من فتر عنه اهـ.

واعلم أن الذكر والدعاء بالأسماء على وجهين:

الأول: أن يكون بحرف النداء، بأن تقول: «**يا الله**».

والثاني: بإسقاطه بأن تقول: «**الله الله**».

ثم إنه ينبغي للداعي أن يستحضر المدعو بقلبه، وأن يذكر اسمه على أحسن كيفية، وهو كونه على طهارة كاملة مستقبل القبلة جالسا مثل جلوسه في الصلاة مائلا نحو القبلة برأسه، فإذا قال: «**الله**» فينبغي أن يفتح الهمزة ويمد اللام ويسكن الهاء، وإلا لم يستفد جميع الخصائص، ومَن أكثر من ذكر هذا الاسم على هذه الكيفية في خلوة، كان له في العالم الروحاني والجسماني تصريف عجيب، وأمر غريب، ومن تقيد به سبعة أيام بصيام، وأكثر من ذكره في خلوة، صار مجاب الدعوة مطاعا للروحانيين، فهو كما قال بعض العارفين:

اسم إذا قرع القلوب تمايلت طربا وتمت بالتقى أسرارها
وإذا حدا الحادي بطيب حديثه طابت وفاحت بالرضا أزهارها
ترتاح إن ذكر اسمه ويهزها طربا إذا حفت به أوكارها
وإذا ابتدأت بذكر في حضرة حضر السرور بها وطاب مزارها

وما ألطف قول ابن العربي:

غن لي باسم من أحب وخلي كل من في الوجود يرمي بسهمه
لا أبالي وإن أصاب فؤادي إنه لا يضر شيء مع اسمه

ثم اعلم أن السر المصون في الدعاء بالأسماء، أن تأخذ عدد حروف الاسم بالجمل، وعدد صورته الرقمية التي يرسم بها، ثم تدعوه بعد ذلك.

مثال ذلك اسمه تعالى «**الله**» فإنه أربعة أحرف، وعدده بالجمل ستة وستون،

فيكون مجموع ذلك سبعين، فتستغيث به سبعين مرة، ثم تسأل حاجتك، ثم تذكره أيضا بعدد اسم الحاجة، ويكون ذلك بجمع همة وإخلاص، فإنه يستجاب لك في الحين.

(و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾) صفتان لله مشتقتان من الرحمة، والمراد منها هنا الإحسان أو إرادته، وإنما حذفوا ألف «**رحمن**» لكثرة الاستعمال، ومعناه: المنعم بجلائل النعم، أي: النعم الجليلة. وأما «**رحيم**» فمعناه: المنعم بدقائق النعم، أي: النعم الدقيقة. وذكر «**الرحيم**» بعد «**الرحمن**» إشارة إلى أنه كما يطلب منه الجليل يطلب منه الحقير لما في الحديث القدسي: « **يا موسى سلني في ملح قِدرك وشراك نعلك**» فهو من باب التتميم وليس من باب الترقي، حتى يرد أن القياس يقتضي الترقي من الأدنى للأعلى كعالم نحرير دون العكس كما هنا.

واعلم أنه سبحانه أرحم بعبده من الوالدة بولدها، فلا يصدر عنه تعالى إلا ما هو خير بالنسبة لاستعداد كل شخص لما يليق به. والمحن الدنيوية ربما كانت في الحقيقة منحا سنية، فلا يقال بعد هذا إن مقتضى اسمه رحيم أن لا يكون شيء من الأمراض والعلل، لأنك قد علمت خيرية ذلك باعتبار بلوغ الأمل، ولذا قال الإمام الجيلي:

تلذ لي الآلام مذ أنت مسقمي وإن تمنحني فهي عندي صنائع

فقد تلذذ بالآلام، وعدها من الصنائع، أي: العطايا باعتبار ما يعقبها من بلوغ المرام، ومن ذلك قول الإمام ابن الفارض:

وكل أذى في الحب منك إذا بدا جعلت له شكري مكان شكايتي
وما حل بي من محنة فهو منحة وقد سلمت من حل عقد عزيمتي

يعني أن كل ما أتاني من جنابك فهو عين المنح والمنن، وإن ظهر في صورة البلايا والمحن...

ثم إن حظ العبد من التخلق باسمه تعالى الرحمن، أن يصرف عباده الغافلين عن طريق الغفلة بالوعظ والنصح رحمة بهم، ويكون ذلك بطريق اللطف لا بطريق العنف، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الازدراء، وأن تكون كل مصيبة تجري في العالم كمصيبة له في نفسه فلا يألو جهدا في إزالتها، وحظه من التخلق باسمه تعالى الرحيم أن لا يدع فاقة لمحتاج إلا سدها بقدر طاقته، وأن يبذل جاهه

وماله لمن استعان به فإن لم يقدر فيعينه بالدعاء والتضرع رأفة به:

فإنما يرحم الرحمن من رحما

ويرحم الله القائل:

ارحم بني جميع الخلق كلهم وانظر إليهم بعين اللطف والشفقة
وقر كبيرهمو وارحم صغيرهمو وراع في كل خلق حق من خلقه

وقد بدأ المصنف رضي الله عنه منظومته بالبسملة لكونها من الشعر النافع، وأما الشعر غير المحتوي على علم أو وعظ فلا يجوز بدؤه بها. وفي البسملة فوائد لا تحصى، وأسرار لا تستقصى، فقد ورد مرفوعا: «**إذا وقعت في ورطة**»، أي: شدة فقل: «**بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**» فإن الله تعالى يصرف بهما ما شاء من أنواع البلاء، وروي عن النبي ﷺ أنه قال لمن قال تعس الشيطان: « **لا تقل ذلك فإنه يتعاظم عنده ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يصغر حتى يصير أقل من الذباب**» ، وروي أنها لما نزلت اهتزت لهيبتها الجبال، وقال سيدي أحمد الدمنهوري في شفاء الظمآن: من قرأ البسملة في وجه ظالم خمسين مرة أذله الله، ومن قرأها عند النوم إحدى وعشرين مرة آمنه الله في تلك الليلة من الشيطان الرجيم، ومن السرقة، ومن فجأة الموت، ويدفع عنه البلاء.

ونقل العارف الشعراني في طبقاته عن سيدي محمد أبي المواهب الشاذلي أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: قل عند النوم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم خمسا، وبسم الله الرحمن الرحيم خمسا، ثم قل: اللهم بحق محمد أرني وجه محمد ﷺ حالا ومآلا فإنك إذا قلت ذلك تراني في المنام ولا أتخلف عنك

والكلام على البسملة كثير، ويكفي التبرك بهذا النزر اليسير، ولعل المصنف اكتفى بها عن الحمد لما فيها من الثناء على الله تعالى، أو أنه أتى بالحمد والصلاة على النبي ﷺ لفظا وترك ذلك خطا رعاية للاختصار.

مقدمة: نذكر فيها حد علم التصوف وموضوعه وفائدته ليكون الشارع فيه على بصيرة.

فحده: علم يعرف كيفية تصفية الباطن من عيوب النفس وصفاتها المذمومة كالحقد والحسد والغش والغل وطلب العلو وحب الثناء والكبر والرياء والغضب

والأنفة والطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء ونحو ذلك، فالتصوف هو التخلي عن الرذائل والتحلي بأنواع الفضائل، ويقال: «**هو حفظ حواسك، ومراعاة أنفاسك**». ويقال «**هو الإكباب على العمل، والإعراض عن العلل**». ويقال: «**هو استعمال الوقت فيما هو أولى به**» ولذا قالوا: «**الصوفي ابن وقته**» وما ألطف قول ابن الفارض:

وكن صارما كالوقت فالمقت في عمى وإياك على فهي أخطر علة

وقال الجنيد: « **التصوف أن يميتك الحق عنك ويحييك به**» يعني أن يميتك عن نظرك لنفسك ويحييك بذكره ومناجاته، وهذا أكمل درجات التصوف، والصحيح أنه إنما يدرك بالذوق، لقول العارف الشعراني في طبقاته: «التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها اهـ.

ولذا قال بعضهم:

علم التصوف علم ليس يدركه إلا أخو فطنة بالحق معروف
وكيف يعرفه من ليس يشهده وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

ومبناه على التمسك بآداب الشريعة، والتباعد عن الشبهات، وحفظ الحواس، وعد الأنفاس للتحرز من الغفلات.

وموضوعه: أفعال القلب والحواس من حيث التزكية والتصفية.

وفائدته: إصلاح الإنسان ظاهرا وباطنا، فإن الصوفي «**من تصفى من الكدر وامتلأ من العبر، وانقطع لعبادة ربه عن البشر، واستوى عنده الذهب والمدر**». وليس كمن قيل فيه، من بعض واصفيه:

لبست مرقعا صوفا وقلتا أنا الصوفي ليس كما زعمتا

والصوفية مقتدون في الزهد في الدنيا والانقطاع للعبادة بأهل الصفة رضي الله عنهم، وهي سقيفة اتخذها فقراء الصحابة في مسجد رسول الله ﷺ، فهم منسوبون للصفة، فأصل صوفي صفي فأبدل أحد حرفي التضعيف لينا، وقيل: نسبة للصوف لكونهم اختاروا لبسه زهدا في الدنيا. وقيل: إن الصوفي مشتق من الصفاء ففيه قلب، وعليه قول بعضهم:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا اضطراب كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر وتتبع الحق والقرآن والدنيا
وأن ترى خاشعا لله مكتئبا على ذنوبك طول الدهر محزونا

وقول بعضهم:

ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صافي فصوفي حتى سمي الصوفي

واعلم أن طريق الصوفية هي طريق الأبرار، ولم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية. وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية، فلما كتبت العلوم ودونت، وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والتوحيد والتفسير وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطائفة في طريقتهم، فمنهم من كتب في أحكام الورع ومحاسبة النفس في الأخذ والترك، ومنهم من كتب في آداب الطريق، ومنهم من جمع بين ذلك، وهذا العلم وهو علم الوراثة المشار إليه بخبر: « **من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم**» .

وقد بنى المصنف رضي الله عنه قصيدته على أصول، تضمن للمريد قرب الوصول، فهي جديرة بتسميتها: «**تائية السلوك إلى ملك الملوك**»، **فقال:**

[أصول الطريق وشروطه وأركانه. . .]

1	أُصُولُ طَرِيقِ الْقَوْمِ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ هُدَاةِ الْوَرَى الْمَهْدِينَ مِنْ خَيْرِ مِلَّةِ
2	طَهَارَةُ أَنْفَاسٍ وَصِدْقُ مَوَدَّةٍ وَحِذْقٌ وَآدَابٌ وَتَجْرِيدُ هِمَّةِ

أقول: (**أصول**) جمع أصل بمعنى الأساس الذي ينبني عليه غيره. وقد أراد المصنف بالأصول في هذه المنظومة ما يشمل الأركان واللوازم والشروط والأحوال، فإن الأصول عندهم ثلاثة عشر: التوبة، والخوف، والرجاء، والحزن، والقناعة، والزهد، والورع، والتوكل، والصبر، والشكر، وجهاد النفس، والرضا بالقضاء، وترك العباد أي: ترك الالتفات لأحوالهم ولو مع الخلطة بهم ليحصل التغاير بينه وبين العزلة التي هي ركن من الأركان الأربعة المجموعة في قول بعضهم:

بيت الولاية قسمت أركانه ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم والجوع والسهر النزيه الغالي

واللوازم التي لابد منها لمريد السفر لاسيما مريد سفر الآخرة عشرة:

المقصد: وهو الباعث على السفر. والدليل: وهو الشيخ. والزاد: وهو التقوى. والسلاح: وهو الوضوء. والسراج: وهو الذكر. والمطية: وهي الهمة القوية. والعكاز: وهو العجز. والحزام: وهو الحزم. والمنهاج: وهو الشريعة. والرفقة: وهم إخوان الصدق. وما عدا ذلك فهو من الشروط والأحوال، وسأبين ذلك كله عند كل بيت إن شاء الله تعالى.

والشروط عندهم كثيرة وتارة يعبرون عنها بالآداب، فمنها: دوام المراقبة، والموت الاختياري، ومحاسبة النفس، وملازمة الشيخ، ومداومة الذكر والأوراد، وحل ما به الانتفاع من الأكل ونحوه، والاقتصاد فيه، وترك الافتخار بالعلم والجاه والنسب، والغربة إما بالجسم أو بالقلب، وحسن الأخلاق، والوفاء بالوعد، وحفظ القلب، من موجبات الجفاء، والرفق في كل الأمور، والكرم والعفو عمن أساء أو ظلم، والتأني في الأمور، وكظم الغيظ، والحلم، والخشوع، والصدق، والخضوع، وتصفية الباطن من الحقد والحسد والغرور والبغضاء، وذل النفس لا عن منقصة، والرحمة للمخلوقين والأدب معهم، ومن آكد الشروط اجتناب

الأحداث وأصحاب النفوس، وترك الخلطة بالإناث، وعدم استبطاء الفتح، وعدم الانتصار للنفس ولو بحق، وترك سماع مدح مادحه ولو بصدق، وأن لا يحزن على ما فات ولا يفرح بما يأتي من أمور الدنيا، وعدم اتباع الهوى، وترك الجدال والمراء، والرضا بالقضاء، والحمد لله على كل حال.

ثم إن (**الطريق**) يذكر ويؤنث، ويجمع على طرق بضمتين، وهو مرادف للسبيل، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: 108]. و(**القوم**) هم الذين يقومون بالأمر حق القيام ووصفهم بقوله: (أهل الحقيقة) وهي عند أهل الحق سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه عند مشاهدة أنه الفاعل لا أنت، ومعلوم أن الحقيقة لا تكون إلا بعد الاغتراف من عين الشريعة، فإن الحقيقة نتائج العلوم. وبها ترجم المتحقق عن الأسرار التي لا تحيط بها الفهوم، على حد قول بعض العارفين:

يارب جوهر علم لو أبوح به لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا

فإن سر الحقيقة تقصر العبارة عن أدائه، فكل عبارة تقربه للذهن من وجه تبعده عنه من وجوه، على حد ما قيل:

كلما أقبل فكري فيك شبرا فر ميلا

فالحقيقة هي العلوم الباطنية، وقد روي أنه ﷺ أوحي إليه ثلاثه علوم علم أمره الله بإفشائه وهو علم الأحكام، وعلم خيره الله فيه وهو علم الأسرار، وعلم أمره بكتمه إلا عن بعض خواصه وهو علم سر القدر الذي قال فيه ابن العربي: إن سر القدر لم يطلع الله عليه نبيا مرسلا ولا ملكا مقربا إلا نبينا محمدا ﷺ وقد أطلعني الله عليه بطريق الوراثة المحمدية. وفي الحديث: «**علم الباطن سر من أسرار الله تعالى يقذفه في قلب من يشاء من عباده**»، ولهذا استعمل الصوفية الرموز والإشارات ليصونوا الأسرار عن غير أهلها، كما قال بعضهم:

ألا إن الرموز دليل صدق على المعني المغيب في الفؤاد
وكل العارفين لها رموز وألغاز تدق على الأعادي

ويقال: الشريعة أمر للعبد بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية عند التحقق بمقام الإحسان المشار إليه في خبر: «**أن تعبد الله كأنك تراه**» ، والطريقة هي

سلوك طريق الشريعة مع العمل بالأحوط وعدم تتبع الرخص، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، فقولك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾حفظ الشريعة،﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:6] إقرار بالحقيقة، فبطون الحقيقة في الشريعة والطريقة كبطون الزبد في اللبن لا يظهر بدون مخضه، والمراد من الثلاثة إقامة العبودية على الوجه المراد من العبد، وإنما وقعت التفرقة بيت الحقيقة والشريعة بالنظر للغلبة في حال العابد والعارف، فإن العابد لما كان يغلب عليه الوقوف مع الأعمال وإتقانها وإخلاصها سمي صاحب شريعة، ولما كان العارف يغلب عليه حال الحق ويرى أن جميع ما هو فيه من فضله سمي صاحب حقيقة.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي يقول: «العلم كله مجموع في حرفين، أن تعرف العبودية وتعبده فمن فعل ذلك فقد أدرك الشريعة والحقيقة، ثم قال: فالشريعة هي الشجرة، والحقيقة هي الثمرة« اهـ.

وكان سيدي داود الشاذلي يقول: «جلت الحقيقة أن تكون البشرية محلا لتلقيها، ولكن إذا أراد أن يوصلها إليك، انبسط شعاع سلطانها عليك، فمهد في قلبك محلا لتلقيها فيها وجدتها لا بك على حد ما قيل:

أعارته طرفا رآها به فكان البصير بها طرفها

إذا علمت أن الحقيقة ثمرة الشريعة بل هي عينها في الحقيقة على ما قاله السادة الأخيار، فشم رائحة للشريعة قبل ادعاء الحقيقة تكن من أهل الاستبصار.

وإن كنت مزكوما فليس بلائق حقا لك هذا المسك ليس بفائح

ثم إن المصنف وصف القوم أيضا بقوله: **(هداة الورى)** جمع هاد من الهداية بمعنى الدلالة، إذ هم الذين دلوا الورى ـ أي: الخلق ـ على ما فيه صلاحهم الدنيوي والأخروي بتهذيب النفوس وغير ذلك، وإنما وصفهم بعد ذلك بقوله: **(المهدين)** أي: الذين هداهم الله، لأن الهادي إذا لم يكن مهتديا في نفسه لم يصلح لهداية غيره، بل يكون جديرا بدخوله في تهديد وعيد قوله تعالى:﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة:44] وحريا بأن ينادي عليه بقوله القائل:

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا كيما يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويشتفى بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقد خرج بعض العارفين لمجلسه الذي يعظ الناس فيه فسكت طويلا ثم قال زاجرا لنفسه:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي الناس وهو مريض

وقوله: **(من خير ملة)** أي: الذين هداهم الله واجتباهم من خير ملة وهي ملة الإسلام التي قال الله في أهلها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران: 110].

وقوله: **(طهارة أنفاس)** وما عطف عليه خبر المبتدأ الذي هو **«أصول»**، وإنما بدأ بطهارة الأنفاس لأنها مفتاح الوصول إلى مراتب السعادة. كما أن طهارة الظاهر مفتاح للعبارة، وهي عبارة عن التخلص من الذنوب والغفلات، والتباعد عما لا يرضي بارئ الأرض والسماوات، فلا تستميل من تلبس بهذه الطهارة شهوة عن خدمة مولاه، ولا يجره الحقد والحسد إلى اتباع شيطانه وهواه، فتكون أنفاسه طاهرة نقية لصفاء باطنه من الكدورات النفسية. ومتى تنزه الباطن عن ذلك تطهر منه الأنفاس، بل تطهر جميع جوارحه من أدناس الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس. ولا تتحقق الطهارة إلا بالتوبة النصوح التي هي أصل الأصول، وباب الأبواب الذي يكون منه الوصول.

ثم ثنى بقوله: **(وصدق مودة)** يعني: أن من شروط طريق المقربين أن يكون المريد صادقا في المودة لكل الناس لا فرق عنده بين الغريب والبعيد، لما في الحديث: **«من نظر إلى أخيه نظرة ود غفر له»** وينبغي أن يكون صادقا في معاملة مولاه، بوجود سر الإخلاص فيما يحبه ويرضاه، ليدخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[مريم: 96] وما ألطف قول بعض العارفين:

تحن قلوب العاشقين إلى الود كما حن ظمآن الهجير إلى الورد
وتشتاق أرواح المحبين للقا كشوق كثيب هائم زائد الوجد

وقال بعضهم:

قف بباب الحبيب ليلا وناده وتشكى من هجره وبعاده
وعلى الباب عفر الخد ذلا ولتكن حافظا قديم وداده
ثم قل طالت القطيعة والهجـ ـر وجفني لم يكتحل برقاده
فالحبيب الذي ترجيه أضحى جوده فائضا على قصاده

ومن شروط الطريق أيضا **(حذق)** بكسر الحاء المهملة وسكون الذال المعجمة آخره قاف، يقال حذق الرجل في صنعته. من بابي ضرب وتعب. حذقا مهر فيها أو عرف غوامضها ودقائقها، والمراد أن معرفة الحقائق على الوجه الأتم من شروط الطريق.

وكذلك من شروطها **(آداب)** بالمد جمع أدب، والمراد تأديب نفس المريد ظاهرا وباطنا بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات. فإن الأدب الأخذ بمكارم الأخلاق الموصلة إلى الكريم الخلاق، وهو منحصر في خمسة أشياء: حفظ المريد الحرمة مع الله، وشكر النعمة التي أنعم بها عليه مولاه، وعلو الهمة بحيث لا يكون له تعلق بشيء من النقائص، وحسن الخدمة بلزوم الاتباع وترك الابتداع ونفوذ العزيمة بحيث لا يتراخى في محل التشمير، ولا يركن لموطن التقصير، وهو مبني على خالص التوحيد. فالأدب اسم جامع لحقائق الخيرات، وأنواع المبرات، ويختلف باختلاف همم المتأدبين، فهو بالنسبة للمريدين رياضة النفوس بنور المتابعات، وتأديب الجوارح بحفظ الحدود وترك الشبهات، وبالنسبة لأهل الحقائق العارفين ممن ترقت همتهم عن العالمين، اشتغالهم بطهارة القلوب ومراعاة السرائر، حتى يكاشفوا عما أكمنته الضمائر.

وقيل للحسن البصري: قد أكثر الناس في علم الآداب فما أنفعها عاجلا وأوصلها آجلا؟ فقال: التفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله تعالى عليك.

وكان بعض العارفين يقول: من لم يعرف ما لله عز وجل، وما للخلق عليه في نفسه من الحقوق التي لزمته، ولم يتأدب مع الله ومع خلقه بأمره ونهيه، كان من الأدب في عزلة.

وقال بعضهم: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم، ومراده

أن الأدب القليل مع الحق تعالى وعموم الخلق أنفع من العلم الكثير المجرد عن الأدب المذكور.

وكان أبو نصر الطوسي يقول: الناس في الأدب على ثلاث طبقات: أما أهل الدنيا فأكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسمار الملوك وأشعار العرب، أما أهل الدين فأكثر آدابهم في رياضة النفوس، وتأديب الجوارح، وحفظ الحدود، وترك الشهوات، وأما أهل الخصوصية فأكثر آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر.

وقال بعض العارفين: قد أكثر الناس الكلام في الأدب، ونحن نقول: «هو معرفة النفس بعجزها وافتقارها إلى ربها، فإن من عرف نفسه بالعجز والافتقار فقد عرف ربه بالغنى والاقتدار، ومن عرف نفسه وربه بما ذكر تأدب في طاعته».

ويقال: ثلاث خصال ليس معهن غربة؛ حسن الأدب، وطيب الأخلاق، واجتناب كل أمر فيه ريبة، وجمعها بعضهم في قوله:

يزين الغريب إذا ما اغترب ثلاث فمنهن حسن الأدب
وثانية طيب أخلاقه ويختمهن اجتناب الريب

لا سيما إذا انضم إلى ذلك حسن مداراة الناس لما في الحديث «أمرت بالمداراة».

ومن الحكم النوابغ:

ودارهم ما دمت في دراهم وارضهم ما دمت في أرضهم

وما ألطف قول بعضهم:

ما دمت حيا فدار الناس كلهم فإنما أنت في دار المداراة
من يدر دارى ومن لم يدر سوف يرى عما قليل نديما للندامات

واعلم أن حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن، لما في الحديث: «**لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**» فإذا تعمر قلب العبد بالمراقبة لله تعالى وتأدب بالآداب الشرعية تبعته الجوارح.

وقال السهروردي في عوارف المعارف: بالأدب يفهم العلم وبالعلم يصح العمل وبالعمل تنال الحكمة.

وقال أبو يزيد البسطامي: مددت ليلة رجلي في محرابي فهتف بي هاتف: من يجالس الملوك ينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب. قال: فما مددت رجلي بعد ذلك.

وقال السيد الشريف: يريدون بالأدب أدب الشريعة، ووقتا أدب الخدمة، ووقتا أدب الحق. فأدب الشريعة الوقوف عند رسومها، وأدب الخدمة الفناء عن رؤيتها مع المبالغة فيها، وأدب الحق أن تعرف ما لك وما له اهـ.

ومن جوا مع الآداب ما كتبه بعض العارفين إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد؛ فخف مما خوفك الله، واحذر مما حذرك الله، وخذ مما في يديك لما بين يديك، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين، والسلام.

وكتب إليه أيضا: أما بعد؛ فإن الهول أعظم والأمور المفظعات أمامك ولابد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب، واعلم أن من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، و من أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف أمن، ومن أمن اعتبر، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك، فتمسك بهذه الآداب إن أردت أن تكون من جملة الأحباب.

ومن اللوازم **(تجريد همة)** يعني: أن تكون همة المريد وهي الاهتمام بالشيء مجردة لما يقربه لمولاه، فلا يهتم إلى بما يحبه سيده ويرضاه.

قال السيد الشريف: الهمة توجه القلب. وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق لحصول الكمال أو لغيره.

وسئل سيدي عبد القادر الجيلي عن الهمة فقال: هي أن يتعرى العبر بنفسه عن حب الدنيا، وبروحه عن التعلق بالعقبى، وبقلبه عن إرادته مع إرادة المولى، ويتجرد بسره عن أن يلمح الكون أو يخطر على سره.

ثم قال المصنف رضي الله عنه عاطفا على ما تقدم بتقدير حرف العطف:

3 **حَيَاءٌ وَإِخْلاَصٌ ذَكَاءٌ وَفِطْنَةٌ كَذَا الْوَرَعُ الْمَحْمُودُ فِي كُلِّ شِرْعَةِ**

أي: ومند شروط الطريق **(حياء)** بالمد وهو خلق يبعث على ترك القبيح، وفعل المليح. ويقال: هو ما يمنعك عما يضرك، وفي الحديث: **«الحياة خير كله لا**

بالله سبحانه ثم برسله وجميع أوليائه وعرضت عليها الموت والقبر والقيامة لا تكاد تعطي القياد، ولا تترك الشهوة والعناد، ثم إن منعتها رغيفا سكنت وذلت بعد الصعوبة والجماح، ولانت وانقادت إلى طريق الفلاح، فعليك بهذا العلاج، فإنه أعظم منهاج. ولله در القائل:

ومن البلاء وللبلاء علامة أن لا يرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواتها والحر يشبع تارة ويجوع

وفي الحديث الشريف عنه ﷺ قال: «**لا تميتوا القلب بالطعام والشراب فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء**». وأخذ بعضهم هذا المعنى فقال:

يميت الطعام القلب إن زاد كثرة كزرع إذا بالماء قد زاد سقيه
وإن لبيبا يرضى نقص عقله بأكل لقيمات لقد ضل سعيه

وقد انتهى الحال بالإمام البخاري إلى أن صار يأكل كل يوم تمرة، أو لوزتين، ورعا وحياء من الله تعالى في تردده إلى الخلاء. وقيل لما خلق الله الخلق جعل العلم والحكمة في الجوع، وجعل الجهل والمعصية في الشبع، وفي الحديث: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع**» وذلك لأن الجوع ينقص دم القلب ويبيضه، وفي بياضه نوره، ويذيب شحم الفؤاد، وفي ذوبانه رقته، ورقته مفتاح المكاشفة، كما أن قساوته سبب الحجاب، ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدو، فإن مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات. وما ألطف قول الإمام النووي:

دواء قلبك خمس عند قسوته فدم عليها تفز بالخير والظفر
إخلاء بطن وقرآن تدبره كذا تضرع باك ساعة السحر
كذا قيامك جنح الليل أوسطه وأن تجالس أهل الخير والخبر

وقال سيدي إبراهيم الدسوقي: قوت المريد الصادق الجوع، وشرابه الدموع، وأما من شبع ونام، ولغى في الكلام، وترخص وقال: ما على ذلك ملام، فإنه لا يجيء منه شيء في الطريق والسلام.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

10	وَإِثْبَاتُ إِيثَارٍ وَبَسْطُ كَرَامَةٍ بِمَا حُزْتَ مِنْ مَالٍ وَرُوحٍ لِمِنْحَةِ

أي: **(و)** من شروط الطريق **(إثبات)** أي: تحقيق **(إيثار)** أي: تقديم للغير على النفس ليكون المريد من الذين قال الله فيهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9] ومحل تقديم الغير على النفس إذا كان من الذين عندهم صبر، وإلا قدم نفسه، لما في الحديث: **«ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»** وقوله **(وبسط كرامة)** أي: بذل كرم للغير مع التوسعة عليه، فإن الكريم قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بضد ذلك، كما تقدم. وقوله **(بما حزت من مال)** معناه: أنك تؤثر الغير على نفسك، وتكرمه بما حزت، أي: جمعت من مال حلال، فإنه ورد: **«نعم المال الصالح للرجل الصالح»**.

وورد: **«نعمت الدنيا مطية المؤمن بها يصل إلى الآخرة»** فليست الدنيا مذمومة إلا بالنسبة لمن يجمعها من غير حل، أو يصرفها في وجوه البر، كما قال محمود الوراق:

من شرف الدنيا ومن فضلها أن بها تستدرك الآخرة

وقوله: **(وروح)** بضم الراء ما به الحياة، أي: أنك تكرم الغير بروحك أيضا، بمعنى أنك تفديه بها، وقد اتهم جماعة من الصوفية بأنهم زنادقة، فلما قدموهم ليضربوا أعناقهم سارع أحدهم في التقدم إلى السيف، فقيل له في ذلك، فقال: لأوثر أصحابي بالحياة بعدي مقدار ضرب عنقي، فلما تحققوا كمالهم وبراءتهم خلوا سبيلهم، فأنت تراه آثر أصحابه بروحه.

وما ألطف قول ابن الفارض:

إذا جاد أقوام بمال رأيتهم يجودون بالأرواح منهم بلا بخل

وقوله **(لمنحه)** بكسر الميم وسكون النون وفتح الحاء المهملة، أي: عطية، أي: لتكون بفعلك هذا صاحب عطية، وأصل المنحة الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها لمن يشرب لبنها ثم يردها إذا انقطع اللبن، ثم أطلقت على كل عطاء، يقال: منحته منحا من بابي ضرب ونفع أعطيته.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

11 | وَرِفْقٌ وَتَصْدِيقٌ وَعِشْقٌ مَحَبَّةٌ وَسَحْقٌ وَمَحْقٌ وَالفَنَا بَعْدَ سَكْرَةِ

أي: ومن الشروط **(ورفق)** أي: سهولة ولين جانب، وهو نتيجة حسن الخلق، وضده العنف، وفي الحديث: **«ما كان الرفق في شيء إلا زانه»**.

ولنا في هذا المعنى:

عليك بالرفق لتحظى بما ترجو وتجني من ثمار النجاح
وجانب العنف تزد بهجة فالفرق بين الناس زين الملاح

ومن الشروط **(تصديق)** أي: أن يكون عند المريد تصديق بأحوال القوم ومشاربهم، وإلا رجع عن طريقهم، أو تصديق لمن يخبره بأمر من الأمور فيه صلاحه إن ظهرت عليه دلائل الصدق، من قولهم: صدقت فلانا، أي: نسبته للصدق.

وأما قوله: **(وعشق)** بالتنوين وقوله: **(محبة)** بحذف حرف العطف فهما من الأحوال كالذوق والشوق، وقد فسروا العشق بأنه ألفة رحمانية أوجبها كرم الله تعالى على كل ذي روح، لتحصل بها اللذة العظمى، وهي موجودة في كل إنسان بحسب استعداده ومرتبته، وأعظم الناس درجة فيه من عشق شيئا لم يره، وإنما سمع به، ولذا قال: أشرف المراتب في الدنيا مراتب الذين زهدوا فيها مع كونها مرئية لهم، وعشقوا الآخرة مع كونها غير مرئية لهم، فهو من خصال الكمال وحلل الجمال.

وما الناس إلا العاشقون ذو الهوى ولا خير فيمن لا يحب ويعشق

واعلم أن النظر يولد في القلب المحبة وهي الميل، ثم يقوى ذلك فيصير صبابة، ينصب إليها القلب بكليته، ثم يقوى فيصير غراما يلزم القلب كلزوم الغريم، ثم يقوى فيصير عشقا، ثم يقوى فيصير شغفا، أي: يصل إلى شغاف القلب وداخله، ثم يقوى فيصير تتيما، أي: تعبدا، من قولهم: تيمه الحب إذا عبده وصيره عبدا للمحبوب، فيكون المحب متيما مأمورا، ومغرما مأسورا، لا يقر له قرار، ولا يفرق بين النافع والضار، يكابد من فرط العشق كل أمر مهول. حتى يرثي له كل رقيب وعذول.

وقال بعضهم: الجنون فنون والعشق فن من فنونه، واحتج بقول القائل:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين

وفي الحديث الشريف: من عشق فعف فكتم فمات مات شهيدا، ولبعضهم:

حسب المحبين في الدنيا عذابهموا تالله ما عذبهم بعدها سقر
بل جنة الخلد مأواهم مزخرفة ينعمون بها حقا بما صبروا
وكيف لا وهمو حبوا وقد كتموا مع العفاف بهذا يشهد الخبر

وهذا إذا كان التعلق ببعض المخلوقين، فما بالك إذا كان التعلق برب العالمين، لعمرك إنهم يصيرون من المحبوبين لديه، المقربين إليه، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: 54]، وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»، ومن دعائه ﷺ: «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك».

وجاء أعرابي فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال ﷺ: «**ما أعددت لها؟**» قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله، فقال له ﷺ: «**المرء مع من أحب**». قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك.

واعلم أن المحبين على ثلاثة أقسام؛ عوام وخواص وخواص الخواص.

فأما العوام: فمحبتهم له تعالى خالصة عن الشوائب.

وأما خواص الخواص: فمحبتهم عبارة عن التعشق الذي به ينمحي العاشق عند تجلي نور معشوقه، ولا تحصل هذه المحبة إلا بعد اليقين. وأكمل الخلق في المحبة سيد الأولين والآخرين.

وفي الحديث القدسي: «**يا محمد إن كنت اتخذت إبراهيم خليلا، وموسى كليما ونجيا، فلقد اتخذتك حبيبا، وعزتي وجلالي ما خلقت الدنيا وأهلها والجنة إلا لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندي، ولولاك ما خلقت الأفلاك**».

ثم اعلم أن المحبة دين أهل الله المقربين، كما قال ابن الفارض سلطان العاشقين:

وعن مذهبي في الحب مالي مذهب وإن ملت يوما عنه فارقت ملتي

وإذا أفرط المحب في المحبة تأججت في قلبه نار الأشواق، وطلبت الروح المواصلة والتلاق، وازداد تحيرا وغراما، وطلب الزيادة من ذلك طربا وغراما، كما قال:

زدني بفرط الحب فيك تحيرا وارحم حشا بلظى هواك تسعرا

والمراد بمحبة الله لعباده حصول الخيرات البهية، والأحوال الباهرة العلية، فمتى حصل للعبد عواطف المحبة من الحنان دخل حضرة الامتنان بالأمان، وأما محبة الله فهي حالة يجدها في قلبه تحمله على الانهماك في طاعته، وإيثار رضاه والتحرز عن معصيته، كما قال بعض العارفين:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وكانت رابعة العدوية تقول في مقام المشاهدة القلبية:

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ثم إن المحب من لا يغيره عذل العاذل، بل يزيده ذلك حبا على حد قول القائل:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذة طربا لذكرك فليلمني اللوم

وقال سلطان العاشقين:

أدر ذكر من أهوى ولو بملام فإن أحاديث الحبيب مدامي
ليشهد سمعي من أحب وإن نأى بطيف ملام لا بطيف منام

وإذا أردت أن ترقى في مقام المحبة أعلى الدرجات، فتحقق بقول بعض أهل الإشارات:

حروف المحبة مرموزها يبشرنا ببلوغ المنى

فميم الممات وحاء الحياة وباء البلاء وماء الهنا
فلا تطمعن بطيب اللقاء وطول البقاء بدون الفنا
حمينا الوصال بحد النصال فإن تلق سمر القنا تلقنا
فلا تجزعن لمر النكال وحر الوبال ففيه الهنا
ومت مثل ما مات أهل الهوى وذابوا اشتياقا فنالوا المنى

وما ألطف قول سلطان العاشقين:

ونفس ترى في الحب أن لا ترى عنا متى ما تصدرت للصبابة صدت
وما ظفرت بالحب روح مراحة ولا بالولا نفس صفا العيش ودت
وأين الصفا هيهات من عيش عاشق وجنة عدن بالمكارم حفت

وما أحسن قوله رضي الله عنه من قصيدة:

فإن شئت أن تحي سعيدا فمت به شهيدا وإلا فالغرام له أهل

وقال أبو بكر الكناني: جرت مسألة في المحبة أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهم سنا، فقالوا له: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق ساعة ودمعت عيناه، ثم قال: المحب عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته، وصفى شربه من كأس وده، وكشف له الجبار عن أستار غيبه، فإذا تكلم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكت فمع الله، فهو بالله ومن الله ولله ومع الله. فبكى الشيوخ، وقالوا: ما على هذا مزيد.

وقوله: **(وسحق ومحق)** بفتح أولهما، حالان من أحوال السالكين، ثانيهما أعلى من أولهما عند العارفين، كما أن المحو والطمس حالان، فمن شغله الله بذكره عن نفسه وبقيت فيه بقية يتنعم بها فهو في حال السحق، ومن غاب عن نفسه بالكلية فهو في حال المحق، فالمحق أتم من السحق، لأنه فناء وجود العبد في ذات الحق. وأما المحو فهو فناء أفعاله في أفعال الحق، والطمس فناء صفاته في صفات الحق، كما أفاده السيد الشريف، فمن كان في مقام السحق والمحق لا يرى وجودا إلا للحق، ومن كان في مقام المحو لا يرى أفعالا إلا للحق، ومن كان في مقام الطمس لا يرى صفة إلا للحق.

(والفنا) بفتح الفاء والمد وإنما قصره في البيت لضرورة الوزن، يطلق على معنين؛ أحدهما: سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة. والثاني: الاستغراق في المشاهدة القلبية حتى لا يشعر بغير الله، ويغيب عن نفسه بالكلية، وهو انتهاء السير إليه تعالى، فيكون فانيا في الله باقيا به على حد قول بعضهم:

وبعد الفنا في الله كن كيف ما تشا فعلك لا جهل وفعلك لا وزر

قالوا: والفناء على ثلاثة أوجه؛ فناء في الأفعال لا فاعل إلا الله، وفناء في الصفاة لا حي ولا عالم ولا قادر ولا مريد ولا سميع ولا بصير ولا متكلم على الحقيقة إلا الله، وفناء في الذات لا موجود بالوجود الذاتي إلا الله، وأنشدوا في ذلك:

فيفنى ثم يفنى ثم يفنى فكان فناؤه عين البقاء

فيفنى أولا في الأفعال بذوق، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96]، ثم يفنى ثانيا في الصفات بذوق ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، ثم يفنى ثالثا في الذات بذوق، كان الله ولا شيء معه، ويبقى الله ولا شيء معه، وعند ذلك يبقى بربه سبحانه وتعالى. وهذه المراتب إنما تحصل بالمقامات التي يقطعها السالك كالتوبة والمحاسبة والمراقبة والمجاهدة والورع والإخلاص والصدق والزهد والحضور مع الله بالقلب والتسليم والتوكل وشدة التقرب إليه تعالى بالنوافل، كما في الحديث: «**لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها**» إلخ. وهذا لمن اختاره لمقام الاصطفاء وسقاه حميا الاجتباء، كما قال بعض العارفين: إذا أرادك لخصوصية الاصطفائية، سقاك بكأس محبته شربة روية، فتزاد بتلك الشربة ظمأ وبالذوق شوقا، وبالقرب طلبا، وبالسكون قلقا، على حد ما قيل:

يزيد ظما مهما تزايد شربه من الحب فاعجب من ظما زاد بالشرب
وأعجب من ذا قربه لحبيبه ويزداد بالقرب اشتياقا إلى القرب
فلا الشرب يرويه ولا القرب يشتفي به القلب بل يزداد كربا على كرب
وليس شفاء القلب إلا فناؤه بأحبابه فاسلك به مسلك الحب

فإذا تمكن منك هذا السكر أدهشك، فإذا أدهشك حيرك، فأنت هاهنا مريد، فإذا دام تحيرك أخذك منك، وسلبك عنك، فتبقى تم مسلوبا مجذوبا، فأنت حينئذ مراد، فإذا فنيت ذاتك، وذهبت صفاتك، قام بصفاته عن صفاتك، وببقائه عن فنائك، وخلع عليك خلعة «فبي يسمع وبي يبصر» فيكون هو متوليك ومواليك، فإن تكلمت فبأذكاره، وإن نظرت فبأنواره، وإن تحركت فبأقداره، وإن بطشت فباقتداره، فإذا رسخ قدمك وتمكن سرك حال سكرك، قلت: هو. وإن غلبك وجدك، وتجاوز بك سكرك، قلت: أنا. ومن هنا أشكل على الأفهام حل رموز هذا الكلام، فقائل يقول: زنديق فيقتل، وقائل يقول: صديق فيحمل، وقائل يقول: مغلوب عليه فيهمل. فهو من حيث تحقيق حاله محق في علمه، والذي حكم بقتله مصيب في حكمه، إذ الشريعة لها حدود، فمن تعداها أقيمت عليه الحدود، والحقيقة لها شهود، خارج عن طوق هذا الوجود.

واعلم أن المشار إليه بـ«**أنا**» عند المحقين من أهل الله هو الموجود الكلي الساري في كل شيء، وهو وجود الحق عز وجل، لا الوجود الجزئي، فليس هناك حلول ولا اتحاد تعالى الله عن ذلك.

وإذا وقع لفظ الاتحاد في كلام الصوفية فإنما يريدون به هذا المعنى، كما قال السيد الشريف: الاتحاد هو شهود الوجود الحق الواحد المطلق الذي الكل موجود به، فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجودا به معدوما بنفسه، لا من حيث إن له وجودا خاصا اتحد به فإنه محال، اهـ. أو يريدون به معنى الفناء الذي هو محو النفس وإثبات الأمر كله لله، كما قال بعض أهل الإشارات:

وعلمك أن كل الأمر أمري هو المعنى المسمى باتحاد

قيل: لما حكم على الحلاج بالقتل حين وصل إلى هذا المقام، وقال: ما في الجبة إلا الله، امتثل الأمر حفظا لسور الشريعة، فلما قطعت يده اليمنى ثم اليسرى أنشأ يقول:

لم أسلم النفس للأسقام تتلفها إلا لعلمي بأن الوصل يحييها
نفس المحب على الآلام صابرة لعل مسقمها يوما يداويها

ولما قدموه للجذع ليصلب أنشأ يقول:

لبيك يا عالما سري ونجوايا لبيك لبيك يا قصدي ومعنايا

أدعوك بل أنت تدعوني إليك فهل ناجيت إياك أن ناجيت إيايا
حبي لمولاي أضناني وأسقمني فكيف أشكو إلى مولاي مولايا
يا ويح روحي من روحي ويا أسفى علي مني فإني أصل بلوايا

وما ألطف قول السيد الشريف: ذو العقل هو الذي يرى الخلق ظاهرا، ويرى الحق باطنا، فيكون الحق عنده مرآة الخلق لاحتجاب المرآة بالصور الظاهرة، وذو العين هو الذي يرى الحق ظاهرا والخلق باطنا فيكون الخلق عنده مرآة الحق لظهور الحق عنده واختفاء الخلق فيه اختفاء المرآة بالصور، وذو العقل والعين هو الذي يرى الحق في الخلق وهذا قرب النوافل، ويرى الخلق في الحق وهذا قرب الفرائض، ولا يحتجب بأحدهما عن الآخر بل يرى الوجود الواحد بعينه حقا من وجه وخلقا من وجه فلا يحتجب بالكثرة عن شهود الوجه الواحد الأحد، كما لا يحتجب بكثرة المرائي عن شهود الوجه الواحد الرائي، ثم قال وإلى المراتب الثلاثة أشار ابن العربي بقوله:

وفي الخلق عين الحق إن كنت ذا عين وفي الحق عين الخلق إن كنت ذا عقل
وإن كنت ذا عين وعقل فما ترى سوى عين شيء واحد فيه بالشكل

وإنما قال المصنف: **(بعد سكرة)** لأنك قد علمت أن الفناء إنما يكون بعد شرب كأس المحبة لمن أراد الله اصطفاءه وقربه، كما قال بعض العارفين الواصلين إلى رب العالمين:

أديرت علينا بالمعارف قهوة يطوق بها من جوهر العقل خمار
فلما شربناها بأفواه فهمنا أضاءت لنا منه شموس وأقمار
وكاشفنا حتى رأيناه جهرة بأبصار صدق لا تواريه أستار
فغبنا به عنا فنلنا مرادنا فلم يبق منا عند ذلك آثار

وقال آخر:

نحن في عيشة الوصال الهنية تجتلي الراح في الكؤس السنية
قد لبسنا هياكل النور لما فارقتنا الهياكل البشرية

وقد قالوا: خمرة الذوق تكسب اللطافة، وتمحق الكثافة، كؤسها المعاني، وحاناتها حضرة التداني، ودنها العارف، وندماؤها المعارف، ورواقها الصافي،

ومرافقها الموافي، بها تقلب الأعيان، فيمشي المقعد، ويبصر الأعمى، وينطق الأخرس، ويرتوي الظمآن، على حد ما قيل:

ومقعد قوم قد مشى من شرابنا وأعمى سقيناه سلافا فأبصرا
وأخرس لم ينطق ثمانين حجة أدرنا عليه الراح يوما فأخبرا

فيا هذا عليك بشراب القوم فإنه الخالي من اللوم، إذ لا يستوي من اتبع هواه ومن هو من أهل الله، فإن هذا بطاعته بان، وذاك بمعصية بار، والله تعالى لا يخيب من أمله فيما أمِلَه، فابذل روحك في الوصول لما وصل له القوم وإلا فلا يسام بغير ذلك السو، كما قال بعض أهل الإشارات:

اسمح بنفسك إن أردت لقانا واحلف بنا أن لا تحب سوانا
فإذا قضيت حقوقنا يا مدعي عاينتنا بين الأنام عيانا

وما ألطف قول بعضهم:

وليس جناب القدس إلا لأهله وما كل إنسان بواديه يسرح

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

12 | وَحَمْدٌ وَشُكْرٌ وَالوَفَا بِأَوَامِرِ وَلاَ تَعْدِ عَنْ حُكْمَيْ كِتَابٍ وَسُنَّةِ

أي: ومن الشروط حمد الله تعالى، أي: ثناء عليه بما أنعم، وشكر له على ما تفضل وتكرم، وفي الحديث: «**أول من يدعى إلى الجنة الحمادون لله على كل حال**»، أي: حالة الضراء والسراء، كما قال بعضهم:

أحمد ربي حالة الضراء حمدي له في حالة السراء
لا حمد من يعبد ربه على حرف فإن وإن كما قد أنزلا

يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾ [الحج: 11]، وورد: «**لو أن الدنيا بحذافيرها في يد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله كانت الحمد لله أفضل من ذلك**» قال الترمذي: وذلك لأن الدنيا فانية، وهذه الكلمة من الباقيات الصالحات. وورد: «**أن من لبس ثوبا جديدا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه**».

وروي أن آدم لما أهبط إلى الأرض قال: يا رب علمني كلمة تجمع لي فيها المحامد، فأوحى الله إليه أن قل ثلاثا عند كل صباح ومساء: الحمد لله رب العالمين حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، فهي أفضل المحامد.

واعلم أن شكر النعمة إذا شكرت قرت، وإذا كفرت فرت. فشكر العينين أن تستر عيب أخيك المسلم، وأن لا تنظر إلى ما لا يحل. وشكر الأذنين أن لا تسمع ما لا يحل، وهكذا يقال في باقي الأركان كل جارحة بحسبها. فإن الشكر كما يكون بالقلب واللسان يكون بجميع الأركان، قال الجنيد: كنت بين يدي السرى السقطي وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام ما الشكر؟ فقلت: أن لا يعصى الله بنعمه، ومما قيل في الحض على الشكر:

ومن الرزية أن شكري صامت ... كما فعلت وأن برك ناطق
أأرى الصنيعة منك ثم أسرها ... إني إذا ليد الكريم لسارق

وقال الصفي الحلي:

سأشكر نعماك التي لو جحدتها ... أقر بها حالي ونم بها سري
وفي حسن حال المرء أعدل شاهد ... يقر بما أسدت إليه يد القطر

وفي الحديث: «**من لم يشكر على القليل لم يشكر على الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله**». وفي الحديث القدسي: «**عبدي لم تشكرني إذا لم تشكر من أجريت النعمة على يديه**». ولما دخل سفيان الثوري على جعفر الصادق وقال له: علمني يا ابن رسول الله مما علمك الله، قال له إذا تظاهرت الذنوب فعليك بالاستغفار، وإذا تظاهرت النعم فعليك بالشكر، وإذا تظاهرت الغموم فقل لا حول ولا قوة إلا بالله، فخرج سفيان وهو يقول: ثلاث وأي ثلاث. وفي الحديث: «**من أعطي فشكر، وابتلي فصبر، وظلم فغفر، وظلم فاستغفر أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**». وروي أن داود عليه السلام قال: إلهي كيف أشكرك وشكرى لك نعمة من عندك؟ فأوحى الله إليه الآن شكرتني. وما ألطف قول بعضهم:

إن كان شكري نعمة الله نعمة ... علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها ... وإن مس بالضراء يعقبها الأجر

فما منها إلا له فيه نعمة تضيق بها الأوهام والسر والجهر

وقال بعض العارفين: من أعطي أربعا لم يمنع من أربع؛ من أعطي الشكر لم يمنع المزيد لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]، ومن أعطي التوبة لم يمنع القبول لقوله تعالى: ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: 104]، ومن أعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطي المشورة لم يمنع الصواب لقوله ﷺ: «**لا خاب من استخار ولا ندم من استشار**».

وما ألطف قول بعضهم:

لئن شكرتم لأزيدنكم مقالة الله التي قالها
فالكفر بالنعمة يدعو إلى زوالها والشكر أبقى لها

وقوله: **(والوفا بأوامر)** شرط من الشروط، أي: بما أمر الله به، فإن ذلك من جملة أمور الدين الأربعة التي هي صحة العقد وصدق القصد والوفاء بالعهد وحفظ الحد، ومعنى صحة العقد: أن يكون الاعتقاد في ذات الله وصفاته وأنبيائه وجميع ماجاؤوا به صحيحا. ومعنى صدق القصد: الإخلاص لله في العبادة، فلا يقصد بعبادته سواه. ومعنى الوفاء بالعهد: امتثال الأوامر لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: 7]. ومعنى حفظ الحد: اجتناب النواهي، لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: 7]، وفي الحديث: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها**».

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيت الله تعالى يعطي العباد ما يشاؤون وهم مصرون على المعاصي فاعلم أن ذلك استدراج منه لهم ثم تلا**: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44]» فتخلص يا أخي من شرك المعاصي قبل الأخذ بالنواصي، وقم بأوامر الكبير المتعال، وتدبر قول من قال:

العمر ينقص والذنوب تزيد وتقال عثرات الفتى فيعود
هل يستطيع جحود ذنب واحد رجل جوارحه عليه شهود

ودخل بعض وزراء المأمون عليه فوجد في يده رقعة فيها هذه الموعظة:

إنك في دار لها مدة يقبل فيها عمل العامل

أما ترى الموت محيطا بها يقطع فيها أمل الآمل
تعجل بالذنب لما تشتهي وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتي بعد ذا بغتة ما ذاك فعل الحازم العاقل

فتأمل يا أخي وشمر عن ساعد جدك، وإن كنت من أهل البطالة فقل مخاطبا لخدك:

يا خد إنك إن توسد لينا وسدت بعد الموت صم الجندل
فامهد لنفسك صالحا تسعد به فلتندمن غدا إذا لم تفعل

ولله در القائل:

مضى أمسك الأدنى شهيدا معدلا ويومك هذا بالفعال شهيد
فإن تك بالأمس اقترفت إساءة فثن بإحسان وأنت حميد
ولا ترج فعل الخير منك إلى غد لعل غدا يأتي وأنت فقيد

واعلم أن الإنسان لا يفي بالأوامر إلا بعد مخالفة النفس والشيطان ومجانبة الاهواء الموجبة للخذلان، ولذا قال بعضهم في شرح أحوال الصوفية الذبن قاموا لله على قدم العبودية: تنسموا روح ما دعاهم إليه فاسرعوا إلى محو العلائق الشاغلة، وتجرعوا المكابدة وصدقوا الله في المعاملة، وأحسنوا الأدب فيما توجهوا إليه وعرفوا قدر مطلوبهم، فجعلوا توكلهم عليه، فحيوا حياة الأبد بالحي الذي لم يزل ولا يزال، وإن أردت أن تكون على مذهبهم فاعمل بقول من قال:

بالذوق والشوق نالوا عزة الشرف لا بالدلوق ولا بالعجب والصنف
ومذهب القوم أخلاق مطهرة بها تخلقت الأجساد في النطف
صبر وشكر وإيثار ومخمصة وأنفس تقطع الأنفاس باللهف
والزهد في كل فإن لا بقاء له كما مضت سنه الأخيار والسلف
قوم لتصفية الأرواح قد عملوا وسلموا عارض الأشباح للتلف
لا بالتخلف في المعروف تعرفهم ولا التكلف في شيء من الكلف
ما ضرهم رث أطمار ولا خلق كالدر ما ضره مخلولوق الصدف
واشقوتى أن تولت أمة سلفت حتى تخلفت في خلف من الخلف

ينمقون تزاوير الغرور لنا بالزور في القول والبهتان والحلف
ليس التصوف عكازا ومسبحة كلا ولا الفقر رؤيا دلقك الترف
وأن تروح وتغدو في مرقعة وتحتها موبقات الكبر والسرف
وتظهر الزهد في الدنيا وأنت على عكوفها كعكوف الكلب في الجيف
الفقر سر وعنك النفس تحجبه فارفع حجابك تجلو ظلمة السدف
وفارق الجنس وافن النفس في نفس وغب عن الحس واجلب دمعة الأسف
واخضع له وتذلل إن دعيت له واعرف محلك من إياك واعترف
وقف على عرفات الذل منكسرا وحول كعبة عرفان الصفا فطف
وادخل إلى خلوة الأفكار مبتكرا وعد إلى حانة التذكار بالصحف
واتل المثاني ووحد إن عزمت على ذكر الحبيب وصف ما شئت واتصف
وإن سقاك مدير الراح من يده كأس التجلي فخذ بالطاس واغترف
واشرب واسق ولا تبخل على ظما فإن رجعت بلا ري فيا أسفي

وقال الإمام المقسي مبتدئا بمن تزيّا بزيهم، ولم يسر بسيرهم:

ذهب الرجال وحال دون مجالهم زمر من الأوباش والأنذال
زعموا بأنهمو على آثارهم ساروا ولكن سيرة البطال
لبسوا الدلوق مرقعا وتقشفوا كتقشف الأبطال والأبدال
قطعوا طريق السالكين وأظلموا سبل الهدى بجهالة وضلال
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى وحشوا بواطنهم من الأدغال
إن قلت قال الله قال رسوله همزوك همز المنكر المتغالي
ويقول قلبي قال لي عن خاطري عن سر سري عن صفا أحوالي
عن حضرتي عن فكرتي عن خلوتي عن جلوتي عن شاهدي عن حالي
عن صفو وقتي عن حقيقة حكمتي عن ذات ذاتي عن صفات فعالي
دعواه إن حققتها ألفيتها ألقاب زور لفقت بمحال
تركوا الشرائع والحقائق واقتدوا بطرائق الجهال والضلال
جعلوا المرا فتحا وألفاظ الخطا شطحا وصالوا صولة الأدلال

وترصدوا أكل الحرام تخادعا كتخادع المتلصص المحتال
فاحذرهمو واحفظ مودة سادة قاموا بذكر الله في الآصال
القانتين المخبتين لربهم الناطقين بأصدق الأقوال
التاركين حظوظهم ونفوسهم المؤثرين بخالص الأموال
ما شأنهم في شأنهم كذب ولا عمل لقصد ريا ولا لجدال
عملوا بما علموا وجادوا بالذي وجدوا وما يخلوا بفضل نوال
وإذا بدليل سمعت أنينهم وحنينهم بتضرع وسؤال
وعيونهم تجري بفيض دموعهم مثل انهمال الوابل الهطال
متفاوتين بقربهم وبحبهم كتفاوت العمال في الأعمال
في الليل رهبان لخدمة ربهم وتخالهم في الجود كالأبطال
تاهوا على كل الملوك وإنهم لهم الملوك بعزة الإقبال
ولرب أشعث حقرته ذلوقه ولدى المليك هو العزيز الغالي
خمص البطون لما بهم من فاقة شعث الرؤوس لروعة الأهوال
لم تخل أرض منهمو قد حكموا ذات اليمين بها وذات شمال
سوى لهم بين الثريا والثرى والفرش والعرش الرفيع العالي
لا ينظرون إلى سوى محبوبهم شغلا به عن سائر الأشغال
فهموا إليك وسيلتي يا سيدي إلا وصلت حبالهم بحبالي

ثم إن المصنف حث المريد على عدم تجاوز الكتاب والسنة في الأوامر والنواهي بقوله: **(ولا تعد عن حكي كتاب وسنة)** أي: لا تتجاوز ما حكم به الكتاب العزيز الذي هو القرآن، ولا ما حكمت به سنة سيد ولد عدنان، وهي أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته، ويلحق بالكتاب والسنة ما استنبط منهما لما ورد: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ**» وما استنبطه الأئمة المجتهدون من الكتاب والسنة يعطى حكمهما لأن الفرع تابع لأصله.

قال الإمام الغزالي: من حصل العلم ثم تصوف أفلح ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه.

وقال الجنيد: ومن لم يسمع الحديث، ويجالس الفقهاء، ويأخذ أدبه عن المتأدبين، أفسد من اتبعه، وكان يقول: علمنا هذا مقتد بالكتاب والسنة، قال ابن العربي: يريد أنه نتيجة العمل بهما، وهما الشاهدان العدلان.

وقال الإمام الشعراني في طبقاته نقلا عن سيدي أبي الحسن الشاذلي: إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة، ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة، مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغي العمل بالكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرض ذلك على الكتاب والسنة.

وقال في محل أخر نقلا عن بعض العارفين: أصولنا سبعة أشياء؛ التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي إذا أخذ العهد على فقير يقول له: يا فلان اسلك طريق النسك على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إلى بيت الله الحرام، واتباع جميع الأوامر المشروعة والأخبار المرضية والاشتغال بطاعة الله تعالى قولا وفعلا واعتقادا ولا تنظر يا ولدي إلى زخارف الدنيا ومطاياها وقماشها ورياشها وحظوظها واتبع نبيك محمدا ﷺ في أخلاقه، فإن لم تستطع فاتبع خلق شيخك، فإن نزلت عن ذلك هلكت مع الهالكين.

وقال سيدي سعيد المغربي: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ وإقامة المعاذير للخلق والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص، والتأويلات وما ضل أحد عن هذا الطريق إلا انحط عن مقام الرجال، اهـ.

وإنما أطنبنا لك في هذا المقام، وسردنا عليك أقوال هؤلاء الأئمة الأعلام لتنظر ما عليه أبناء الطريق اليوم، وتختار لنفسك من رزقه الله التوفيق فسلك سبيل القوم، وإلا فالزم العمل بالكتاب والسنة فإنهما الحرز المصون، وعليك بخاصة نفسك ولا تتبع أهواء الذين لا يعملون، وهذه بعض أبيات من نصيحة صديقنا الشيخ محمد محرم العمروسي ترشدك إلى أكمل الحالات:

تمسك بحبل الشرع واضرب بسيفه رؤس المعاصي واتخذ منه جوشنا

وبادر إلى إنكار ما كان خارجا عن الحق واحذر أن تكون مداهنا
ولا تجعل الذكر النفيس وسيلة إلى عرض الدنيا المعرض للفنا
ولا تجعل المقصود منه تكسبا فتنحط قدرا من علاك وتفتنا
ولا تتخذه للرياسة سلما فتغضب مربوبا وربا مهيمنا
وتأتي ما تأتي رياء وسمعة وتتخذ الشرك الخفي تدينا
وليست بإرخاء الشعور ولاية إذا كان منك القلب أسود عاطنا
وليس بإظهار التبالة خدعة إذا كان فيك الغش والمكر كامنا
وغير مفيد لس تاج وخرقة إذا كان إبليس بجسمك ساكنا
فوحد هوى ليلى لتحظى بوصلها وترقى بلقياها وتظفر بالمنى
وما دمت مأسورا لنفسك والهوى فما زلت في سجن القطيعة قاطنا
فطلق هداك الله نفسا خؤنة طلاقا صريحا بالثلاثة بائنا
فما هي إلا ذات سم مخبا وأعدى عدو في الحشا متوطنا
وإلا فدع دعوى الصلاح ولا تكن بغير فلاح للولاية معلنا
وخل مقامات الرجال لأهلها وعش خاليا فالحب راحته عنا
فيا فقراء الوقت مالي أراكموا أتيتم أمورا لا تحل بشرعنا
فكم بدع أحدثتموها بجهلكم وصرتم عليها عاكفين ليومنا
جعلتم طريق القوم رقصا وصيحة ومنكر أصوات يهيجا الغنا
وملأ بطون من غذا لم يفد سوى تجشئكم يا قوم حول بيوتنا
وتحصيل أرزاق وضرب عوائد على الناس تأباها قواعد ديننا
وحرفتموا التهليل عن وضعه الذي أتانا به التنزيل من عند ربنا
وطرقتموا فيه طرائق لم يكن عليها رسول الله والقوم قبلنا
أكان رسول الله يصحب منشدا ينادي بأعلى الصوت ليلا مدندنا
فما زدتموا المردان إلا تمردا وما زدتموا الشيبان إلا تشيطنا
وما زدتموا الجهال إلا جهالة وبعدا عن الأخرى وقربا إلى الدنا
فكن عالما بالشرع واعمل به فمن أراد طريقا دون علم فقد جنى

ولا ينبغي للجاهلين تصدر ... ولا نشر أعلام الشريعة بيننا
ألم يعلموا أن الطريق كناية ... عن العمل الجاري على وفق شرعنا
وذبح النفوس الضاريات بمدية ... من الخلف حتى لا تميل إلى الخنا
وزهد عن الدنيا وعن شهواتها ... وعمن يراها أكبر الهم مقتنى
وجوع وصمت واعتزال وفكرة ... بها حضرة الرحمن تدخل آمنا
وذكر بنار الشوق يحرق خاطرا ... ويغرق في بحر المدامع أعينا
يكون بجد واجتهاد وهمة ... مشمرة لا بالتكاسل والونا
وعلم وحلم واقتداء بعارف ... دسائس للشيطان والنفس والدنا
فمن لم يصاحب شيخ صدق ملقن ... يكون له الشيطان شيخا ملقنا
فأخلص هداك الله تخلص فهذه ... طريقتنا الغراء دانية الجنى

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

13 | وَرَاقِبْ جَنَابَ الْحَقِّ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَرَى ... لِنَفْسِكَ فِعْلاً مِنْ فِعَالٍ جَمِيلَةِ

هذا إشارة إلى مقام المراقبة التي هي شرط في طريق المقربين، وهي دوام استحضار القلب، إحاطة علم الله تعالى بحركاته وسكناته، فالمعنى: عليك بمراقبة مولاك في حركاتك وسكناتك، ولحظاتك وخطراتك، واعلم أنه ناظر إليك، ومطلع عليك، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: 61] ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 4]. بالعلم والإحاطة والاقتدار، والحفظ والرعاية والهداية لمنازل الأبرار. فاستح من مولاك أن يراك حيث نهاك، واعبده كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال ذو النون المصري: علامة المراقبة إيثار ما آثر الله، وتعظيم ما عظم الله.

وقال ابن عطاء الله: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات.

واعلم أن المراقبة لا تكون إلا بعد المحاسبة فإذا حاسب العبد نفسه على عدد الأنفاس، وتحرز من كيد الوسواس الخناس، صحت له المراقبة في عموم الأحوال، وعلم أن الله مطلع عليه في جميع الأقوال والأفعال، وإلا كان بعيدا عن هذا المقام،

ولم يصل إلى هذا المرام.

وقال بعض العارفين: من راقب الله في خواطره عصمه في جوارحه. وقال بعضهم: إذا جلست للناس فكن واعضا لنفسك وقلبك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله تعالى يراقب باطنك.

وروي أن الواعظ إذا جلس ليعظ الناس قال له كاتباه: يا عبد الله عظ نفسك بما تعظ به أخاك، واستح من سيدك فإنه يراك.

وسئل أبو الحسن بن هندي: متى يحفظ الراعي غنمه بعصى الرعاية عن مواقع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيبا.

وكان ابن عمر في سفر، فرأى غلاما يرعى غنما، فأعجبه حسن رعايته لها في الظاهر، فأراد أم يختبر باطنه، فقال له: تبيع من هذه الغنم واحدة؟ فقال: إنها ليست لي، فقال: قل: لصاحبها إن الذئب أخذ منها واحدة، فقال الغلام: فأين الله؟! فأعجبه حسن مراقبته، وصار يترنم بذلك ويقول: فأين الله؟.

وكتب بعض الحكماء إلى صديق له: أما بعد، فحظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك، واستح من الله بقدر قربه منك، وخفه بقدر قدرته عليك، والسلام.

وقال بشر بن مروان لأبي حازم: ما المخرج مما نحن فيه؟ فقال: أن تنظر إلى ما عندك فلا تضعه إلا في حقه، وإلى ما ليس عندك فلا تأخذه إلا بحقه، قال: ومن يطيق هذا يا أبا حازم؟ فقال: من أجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس أجمعين.

وقيل لأبي حازم: ما مالك؟ فقال: شيئان؛ الرضا عن الله والغنى عن الناس، فقيل له: إنك لمسكين، فقال: كيف أكون مسكينا ومولاي له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى؟!

وقد قالوا: غفلة القلب عن الرب من أعظم الذنوب، وأكبر العيوب، ولو كانت آنا من الآنات، أو لمحة من اللمحات، فإنه كما تعاقب العوام على سيئاتهم، تعاقب الخواص على غفلاتهم. فاجتنب الاختلاط بأصحاب الغفلة على كل حال، إن أردت أن تكون من زمرة أهل الكمال:

فنحن في سفر نمضي إلى حفر وكل آت لنا قرب من العدم
والموت يشملنا والحشر يجمعنا وبالتقى الفخر لا بالمال والحشم

وإنما قال المصنف: **(من غير أن ترى لنفسك فعلا)** لأن الأفعال كلها في الحقيقة لله، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96] فلا ينبغي للمريد أن يرى لنفسه فعلا جميلا بل يتهمها بالتقصير في الطاعة، لأن الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة، كما أن عدم الرضا عنها أصل جميع الصفات الممدوحة، وقد كان السري السقطي يقول: كل من ظن من نفسه أنه محسن فهو ممن زين له سوء عمله، ومن لم يظن من نفسه أنه هالك فهو هالك. وكان سيدي على الخواص يقول لتلميذه الإمام الشعراني: إن لم تخف أن يهلكك الله تعالى بالنقص الذي في أعمالك الصالحة عندك فضلا عن معاصيك فأنت هالك.

فتأمل ذلك يا أخي وتيقن أن الناجي من اتهم نفسه بالتقصير، وباعها في مرضاة العليم الخبير، وقد حكي أن رجلا قال لأبي يزيد: إن نفسي تطالبني، فقال: أولك نفس؟ قال: نعم، قال: إن المؤمن بلا نفس، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111]، فمن باع نفسه فكيف يكون له نفس. وإنما خص المصنف الأفعال الجميلة بعدم نسبتها للنفس لأنها التي بها الزهو والعجب، فإذا نسبها للنفس حصل لها العجب المؤدي إلى الهلاك، وأما الأفعال الذميمة فينبغي نسبتها للنفس تأدبا، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 79] أي إيجادا وخلقا ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: 79] أي: كسبا لا خلقا، وإن كان الكل من الله خلقا، بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 78] وانظر إلى أدب الخضر عليه السلام حيث قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: 82] وقال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: 79] ولم يقل فأراد أن يعيها وكذلك إبراهيم الخليل عليه السلام حيث قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 78] ثم قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: 80] ولم يقل أمرضني بل نسب المرض لنفسه تأدبا، وقد كان بعض العارفين لا يعيب فعل أحد لمشاهدته أن كل الأفعال لله تعالى.

وما ألطف قول بعضهم:

إذا ما رأيت الله في الكل فاعلا ... رأيت جميع الكائنات ملاحا
وإن لم ترى إلا مظاهر صنعه ... حجبت فصيرت الملاح قباحا

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

14 | وَجَاهِدْ تُشَاهِدْ كُلَّ مَعْنىً مُحَجَّبٍ عَنِ العَقْلِ وَالأَبْصَارِ مِنْ غَيْرِ رِيبَةِ

أي: ومن الأصول أن تجاهد نفسك الأمارة بالسوء، فإن جهادها هو الجهاد الأكبر، ومجاهدتها أشد من مجاهدة الشيطان، فإنها العدو الملازم، واللص إذا كان من أهل للبيت تضيع فيه الحيل، بخلاف الشيطان، فإنه خارج عن البدن، ليمكن منعه بتضييق مجاريه بالجوع، وأيضا الشيطان عدو مبغوض بخلاف النفس، فإنها عدو محبوب، والمحب يعمى عن عيوب محبوبه.

وقد ورد: «**حبك الشيء يعمي ويصم**»، فيلزمك أيها المريد أن تتبصر في عيوبها، وتحملها على حسن القيام بالتكاليف الشاقة التي أمر بها الشارع عليه السلام، فإن بعض العارفين قال: ما أخذنا التصوف من القيل والقال، ولكن من الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات، وامتثال الأوامر واجتناب المنهيات، واعلم أن أصل المجاهدة وملاكها فطم النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات، ولا أقول لك: اقلع شجرة الطبع من أرض الوضع، إذ ليس في الإمكان قلب طبع الإنسان، وإنما أقول: دم على المجاهدة تحظ بالمساعدة، وكلما نبت عرق من عروق الهوى فأقلعه بعلاج التقوى، واستعمل الصبر على المجاهدات، وتدبر قول بعض السادات:

الصبر كالصبر مر في مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل

وقال آخر:

وقل من جد في أمر يحاوله واستعمل الصبر إلا فاز بالظفر

وقد كانت بعض العابدات الصابرات إذا مات لها ولد تضع رأسه على حجرها، وتقول: والله لتقدمك أمامي خير عندي من تأخرك بعدي، ولصبري عليك أولى من جزعي عليك، ولئن كان فراقك حسرة فإن في توقع أجرك الخيرة، ثم تنشد قول عمرو بن معدي كرب:

وإنا لقوم لا تفيض دموعنا على هالك منا وإن قصم الظهر

فلا تتأخر أيها الرجل الكامل عن الوصول إلى هذه الدرجة التي أحق بها الرجال، واستعمل الصبر في مجاهدتك لنفسك حتى تبلغ الآمال، واحذر في حال المجاهدة أن تخدعك بتسويفاتها وإظهار شفقتها عليك، فإنه قد ورد: «**أعدى عدوك**

نفسك التي بين جنبيك»، ففي إعزازها بعدك عن مقام تبلغ فيه هنالك مناك، وفي إذلالها عزك وقربك من مواهب مولاك، ومن ثم قال ﷺ: «**من أعز نفسه فقد أذل دينه ومن أذل نفسه فقد أعز دينه**».

وقال إبراهيم بن أدهم لرجل في الطواف: اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات؛ أولاها: أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة، والثانية: أن تغلق باب العز وتفتح باب الذل، والثالثة: أن تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد، والرابعة: أن تغلق باب النوم وتفتح باب السهر، والخامسة: أن تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر، والسادسة: أن تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت. ومن كلام ابن العربي في الفتوحات:

سبح إلهك بكرة وأصيلا ... فالنفل يرجع بالهدى إكليلا
جاهد هواك ولا تكن ذا فترة ... فيه وكن للنائبات خليلا
إن المجاهد لا يزال مكابدا ... يهوى الخطوب ويعشق التعليلا
لا تركنن إلى البطالة إنها ... تردي وكن للحادثات وصولا

ومن النصائح قول بعضهم:

حتام أنت بما يلهيك مشتغل ... عن نجح قصدك من خمر الهوى ثمل
ترضى من الدهر بالعيش الذميم إلى ... كم ذا التواني وكم يغري بك الأمل
وتدعي بطريق القوم معرفة ... وأنت منقطع والقوم قد وصلوا
فانهض إلى ذروة العلياء مبتدرا ... عزما الترقي مكانا دونه زحل
فإن ظفرت فقد أعطيت مكرمة ... بقاؤها ببقاء الله متصل
وإن قضيت بهم وجدا فأحسن ما ... يقال عنك قضى من وجده الرجل

وقال أبو الفتح البستي:

دع التكاسل في الخيرات تطلبها ... فليس يسعد بالخيرات كسلان
لا ظل للمرء أحرى من تقى ونهى ... وإن أظلته أوراق وأغصان

وقال أبو بكر الخوارزمي:

لا تصحب الكسلان في حالاته ... كم صالح بفساد آخر يفسد

عدوى البليد إلى الجليد سريعة والجمر يوضع في الرماد فيخمد

قال بعضهم: رأيت أبا ميسرة العابد وقد بدت أضلاعه من الاجتهاد في الطاعة، فقلت: يرحمك الله إن رحمة الله واسعة، فغضب وقال: هل رأيت ما يدل على القنوط إن رحمة الله قريب من المحسنين فأبكاني والله كلامه.

ولينظر العاقل إلى حال الرسل والأبدال والأولياء، واجتهادهم في الطاعات، وصرفهم العمر في العبادات، لا يفترون عنها ليلا ونهارا، أما كان لهم حسن ظن بالله؟ بلى والله، إنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأحسن ظنا بجوده من كل ظان، ولكن علموا أن ذلك بدون الجد والاجتهاد أمنية محضة، وغرور باطل، فأجهدوا أنفسهم في العبادة والطاعة ليتحقق لهم الرجاء الذي هو من أحسن بضاعة، وفي الحديث القدسي: «**ما أقل حياء من يطمع في جنتي بغير عمل كيف أجود برحمتي على من يخل بطاعتي**»، ولذا قال المصنف: **(وجاهد تشاهد كل معنى محجب)** يعني أن من جاهد نفسه يرى تجليا رحمانيا محجبا **(عن العقل والأبصار)**، يكون به المريد في أعلى مقام القرب والافتخار، وقوله: **(من غير ريبة)** أي: من غير شك في ذلك، وقد سئل بعضهم عن المشاهدة، فقال: كشف الحجاب بين القلب والرب، والمراد كشف الحجاب عن العبد فإن الرب لا يحجبه شيء، وقال الجنيد: المشاهدة إدراك الغيوب، بأنوار الأسرار عند صفاء القلوب، قالوا: ولم يزد في بيان تحقيق المشاهدة أحد على قول عمرو بن عثمان المالكي: هي توالي أنوار التجلي على القلب من غير أن يتخللها ستر ولا انقطاع، كما لو قدر أتصال البروق في الليلة الظلماء، وأنشدوا:

ليلى بوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري
فالناس في سدف الظلا م ونحن في ضوء النهار

وقال الشبلي: استنار قلبي يوما فشاهدت ملكوت السماوات والأرض، ثم وقعت مني هفوة فحجبت عن شهود ذلك، فتعجبت كيف حجبني هذا الأمر الصغير عن درك الأمر الكبير، فقيل لي: البصيرة كالبصر، فكما أنه إذا حل أدني شيء في البصر حجبه عن النظر، فكذلك البصيرة.

ثم شرع المصنف يبين حقيقة من يحسن السلوك على يديه، من شيخ عارف

بالطريقة يكون خبيرا بما للمريد وما عليه، ليحصل به الهداية والإرشاد، فقال رضي الله عنه موفيا بالمراد:

15 | وَلاَ بُدَّ مِنْ فِكْرٍ وَذِكْرٍ وَوِجْهَةٍ عَلَى يَدِ شَيْخٍ عَارِفٍ بِالطَّرِيقَةِ

يعني أنه يشترط أن يتفكر المريد في مصنوعات الله تعالى، ليستدل بذلك على عجيب قدرته، لما في الحديث: «**تفكروا في آلام الله ولا تفكروا في ذاته فإنه لا تحيط به الفكرة**».

وما ألطف قول بعضهم:

كل ما ترتقي إليه بوهم من جلال وقدرة وسناء
فالذي أبدع البرية أعلى منه سبحانه مبدع الأشياء

وكذلك يتفكر في أحوال المعاد ليجتهد في تقديم ما يحصل له به الإسعاد، والتفكر هو تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب، ويقال: هو سراج القلب يرى به خيره وشره، ومنافعه ومضاره، وكل قلب لا تفكر فيه فهو في ظلمات يتخبط. ويقال: هو مصباح الاعتبار ومفتاح الاختبار. ويقال: هو حديقة أشجار الحقائق، وحدقة أنوار الدقائق. ويقال: هو مزرعة الحقيقة، ومشرعة الشريعة. ويقال: هو شبكة طائر الحكمة.

فكن متفكرا في كل أمر لتحظى بالمسرة في المآل

ولا بد أيضا من ذكر باللسان والقلب، وهو من اللوازم المعبر عنه بالسراج، وناهيك قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152] وقوله سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

وفي الحديث: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قيل وما رياض الجنة يا رسول الله قال: «**حلق الذكر**» وقال ﷺ: «**لذكر الله عز وجل بالغداة والعشي أفضل من حطم السيوف في سبيل الله ومن إعطاء المال سخا**»، وقال ﷺ: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الورق والذهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**» قلنا: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «**ذكر الله عز وجل**»، وقال ﷺ: «**أحب الأعمال إلى**

الله أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله». وفي الحديث القدسي: **«من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»**، وروي أن الله عز وجل قال: **«يا عبدي اذكرني بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما»**.

فالذكر أفضل باب أنت داخله ... لله فاجعل له الأنفاس حراسا

وكان سيدي أبو العشائر يقول: الأصول التي يبني عليها المريد أمره أربعة، اشتغال اللسان مع حضور القلب بذكر الله، وجبر القلب على مراقبته، ومخالفة النفس والهوى من أجله، وتصفية اللقمة لعبوديته، وهي القطب وبها تزكوا الجوارح ويصفو القلب. واعلم أن حقيقة الذكر دوام الحضور، من غير تخلل غفلة وقصور.

ولله در الشبلي حيث قال:

ذكرتك لا أني نسيتك لمحة ... وأيسر ما في الذكر ذكر لساني
وكدت بلا وجد أموت من الهوى ... وهان على القلب بالخفقان
فلما أراني الوجد أنك حاضري ... شهدتك موجودا بكل مكان
فخاطبت موجودا بغير تكلم ... ولاحظت معلوما بكل عيان

ويكفيك في خصائص أهل الذكر أنهم القوم الذين لا يشقى لهم جليس، لما في الحديث: **«إن لله ملائكة سياحين في الأرض يلتمسون مجالس الذكر فإذا رأوا مجلس الذكر نادى بعضهم بعضا هلموا هذه حاجتكم فتحفهم الملائكة بأجنحتهم إلى عنان السماء، ثم يقول الله تعالى لملائكته: أشهدكم يا ملائكتي أني غفرت لهم، فتقول الملائكة: إلهنا إن فيهم فلانا جلس لغير حاجة الذكر، فيقول الله تعالى: هم القوم لا يشقى لهم جليس»**. وفي رواية: **«لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»**.

قال العلامة الأمير: ينبغي للذاكر بـ**«لا إله إلا الله»** أن يلاحظ كونها آية من كتاب الله ليكثر له الثواب، وإن لم يلاحظ المعنى، اهـ. ومعناها لا معبود بحق إلا الله، ثم اعلم أن الذكر عند العارفين لغير أرباب الشهود، لما في الحديث القدسي: **«من ذكر لم يشهد، ومن شهد لم يذكر»**، أي: من كان يرى له وجودا يذكرني به فإنه محجوب، والمحجوب لا يشهد، ومن شهد أن الوجود لي ولا وجود لغيري علم أني الذاكر والمذكور والذكر فلم يذكر، وبهذا يتضح قول ابن العربي:

بذكر الله تزداد الذنوب ... وتنعكس البصائر والقلوب

وترك الذكر أفضل كل شيء فشمس الذات ليس لها غروب

وهذا من باب حسنات الأبرار سيآت المقربين، وقليل أهل هذا المقام الذين قال قائلهم:

الله يعلم أني لست أذكره وكيف أذكره إذ لست أنساه

وقوله: **(ووجهة)** أي: ولابد أيضا للمريد من وجهة، أي: حسن توجه على يد شيخ، وهو من اللوازم المعبر عنه بالدليل، ومن لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه، لأن النفس التي هي مريدة الشيطان كثيرة التلبيس، عظيمة التدليس، توهم العبد أنه صادق وهو كاذب، وأنه موف بعهده وهو ناكث، وأنه زاهد وهو راغب، وإنما يعرف ذلك من نفسه بتنبيه شيخ يلقي إليه قياده، أو فقيه يستفتيه في سائر أموره، أو صاحب ناصح، فالشيخ أول دليل، وعليه عند القوم التعويل، فمن استضاء به اهتدى، ومن ضل عنه ارتدى، على حد ما قيل:

من لم يكن خلف الدليل مسيره كثرت عليه طرائق الأوهام

وقال آخر:

لا تسلكن طريقا لست تعرفها بلا دليل فتهوى في مهاويها

فلا بد للمريد من شيخ كامل يقتدي بآثاره، ويهتدي بهديه وأنواره، فإنه واسطة الخير، والوسيلة إلى المنع من الضير، وناهيك في اكتساب هذه الفضيلة قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35] ولله در من قال:

وغنم مريد في انقياد لكامل له خبرة بالعلم والوقت والحال
هو الكنز الإكسير والكيميا لمن أراد وصولا أو بغى نيل آمال

واعلم أنه لا يصلح للإرشاد إلا من كان على علم يهدي به العباد، فإذا مرض مريده بسبب شبهة في علم التوحيد داواه، أو تحير في مسألة من مسائل الفقه أفتاه مع قناعة تورثه الغنى عن الناس، وخوف يحجزه عن المعاصي والأدناس، وملازمة للعمل بالكتاب والسنة، فمن اجتمعت فيه هذه المزايا كملت به على المريد المنة.

وقد شرع المصنف في أوصافه وبدأ منها بقوله: **(عارف بالطريقة)** أي: أن يكون كاملا في العلم والعمل، وقد ذكر بعضهم الأوصاف التي ينبغي أن تكون في

الشيخ فقال:

إذا لم يكن في الشيخ خمس فوائد وإلا فدجال يقود إلى الجهل
بصير بأحكام الشريعة عارف ويبحث في علم الحقيقة عن أصل
يبادر للوراد بالبشر والقرى ويخضع للمسكين في القول والفعل
فهذا هو الشيخ المعظم قدره جدير بتمييز الحرام من الحل

وقال سيدي علي الخواص: لا يكون الرجل معدودا عندنا من أهل الطريق حتى يكون عالما بالشريعة المطهرة مجملها ومفصلها ناسخها ومنسوخها خاصها وعامها، ومن جهل حكما واحدا منها سقط عن درجة الرجال، قال الإمام الشعراني فقلت له سيدي: إن غالب مسلكي هذا الزمان على هذا ساقطون عن درجة الرجال؟ فقال: نعم، إن هؤلاء يرشدون الناس إلى بعض أمور دينهم، وأما المسلك فهو من لو انفرد في جميع الوجود لكفى الناس كلهم من العلم في سائر ما يطلبونه، اهـ. قلت: وهذا جوهر نفيس لا يزال عزيز الوجود، يكاد لعزته أن يكون في حكم المفقود، كما قال ابو مدين الغوث:

واعلم بأن طريق القوم دارسة وحال من يدعيها اليوم كيف ترى

ثم تمنى رؤية القوم، الذين ليسوا على ما عليه أهل اليوم، فقال:

متى أراهم وأنى لي برؤيتهم أو تسمع الأذن مني عنهموا خبرا

وكان سيد هذه الطائفة الإمام الجنيد يقول: لا يستحق الرجل أن يكون شيخا حتى يأخذ حظا من كل علم شرعي، وأن يتورع عن جميع المحارم، وأن يزهد في الدنيا، وأن لا يشرع في مداواة غيره إلا بعد فراغه من مداواة نفسه، ثم قال، فإياك ومتابعة من لم يكن على هذه الأوصاف، فإنه من جنود الشيطان، واعتبر أقواله وأفعاله وأحواله وزنها بميزان الشريعة والطريقة، فإن رأيت شيئا مخالفا لهما فرده، فإن كان صاحب حال صحيح ورددته فما عليك من رده بحكم الشرع، ولا تتخذه شيخا ومرشدا.

وقال أبو يزيد: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة، وذلك لأن الكرامة ما كانت عونا لصاحبها على ما يقربه لمولاه، ويقوي يقينه ويمكنه من محبته ورضاه، فإذا جرى الخارق للعادة على يد العبد، ولم

تشهد له الشريعة بالاستقامة، فهو ممكور به مخدوع، وما ألطف ما قاله بعض العارفين من قصيدة جامعة:

وللشيخ آيات إذا لم تكن له ... فما هو إلا في ليالي الهوى يسري
إذا لم يكن علم لديه بظاهر ... ولا باطن فاضرب به لجج البحر
وإن كان إلا أنه غير جامع ... لوصفيهما جمعا على أكمل الأمر
فأقرب أحوال العليل إلى الردى ... إذا لم يكن منها الطبيب على خبر
وآيته أن لا يميل إلى هوى ... فدنياه في طي وأخراه في نشر
وإن كان ذا جمع لأكل طعامه ... مريدا فلا تصحبه يوما من الدهر
ولا تسألن عنه سوى ذي بصيرة ... خلى من الأهواء ليس بمغتر
ولا تقدمن قبل اعتقادك أنه ... مرب ولا أولى بها منه في العصر
فإن رقيب الالتفات لغيره ... بقول لمحبوب السراية لا تسرى
ولا تعترض يوما عليه فإنه ... كفيل بتشتيت المريد على هجر
ومن يعترض والعلم عنه بمعزل ... يرى النقص في عين الكمال ولا يدري
ومن لم يوافق شيخه في اعتقاده ... يظل من الإنكار في لهب الجمر
فذو العقل لا يرضى سواه وإن نأى ... عن الحق نأي الليل عن واضح الفجر
ولا تعرفن في حضرة الشيخ غيره ... ولا تملأن عينا من النظر الشزر
ولا تنطقن يوما لديه فإن دعا ... إليه فلا تعدل عن الكلم النزر
ولا ترفعن بالضحك صوتك عنده ... فلا قبح إلا دون ذلك فاستقر
ولا تقعدن قدامه متربعا ... ولا باديا رجلا فبادر إلى الستر
ولا باسطا سجادة بحضوره ... فلا قصد إلا السعي للخادم البر
وسجادة الصوفي بيت سكونه ... ولا وكر إلا أن يطير عن الوكر
وما دمت لم تفطم فلا فرجية ... عليك ولا تلف عليها بمستجر
ولا ترين في الأرض دونك مؤمنا ... ولا كافرا حتى تغيب في القبر
فإن ختام الأمن عنك مغيب ... ومن ليس ذا خسر يخاف من المكر

"تنبيه": يجب على المريد قبل الاشتغال بالذكر والرياضة أن يحصل من علم

التوحيد ما يصبح به اعتقاده على مذهب أهل السنة والجماعة، وما يحترز به عن شبه المبتدعة، فإن القلب ما دام مكدرا بظلمة البدعة الاعتقادية لا يستنير بأنوار الطاعة، وهذه عقيدة أكابر أهل السنة، فيجب على كل مسلم الأخذ بها، وهي أن يعتقد اعتقادا جازما أن الله تعالى إله واحد منزه عن الشريك والمعين والصاحبة والولد، موجود بذاته من غير افتتاح لوجوده، ولا نهاية لبقائه، مستغن عن كل ما سواه، ومفتقر إليه كل ما عداه، قائم بنفسه، ليس بجوهر متحيز فيحتاج إلى مكان، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء، ولا بجسم فيكون له الجهة والتلقاء، مقدس عن الجهات والأقطار، مرئي للمؤمنين بالقلوب في الدنيا، وفي الآخرة بالأبصار، استوى على العرش كما قال وعلى المعنى الذي أراد، كما أن العرش وما حواه به استوى.

له الآخرة والأولى، لا يؤوده حفظ المخلوقات، وهو موجود بعلمه في جميع الجهات، مقدس عن القبل والبعد، فإن ذلك من صفات الزمان الذي أبدعه، فهو سبحانه لا يحده زمان ولا يقله مكان، بل كان ولا مكان ولا زمان، وهو الآن على ما عليه كان، السماوات والأرض ومن فيهن جميعا منه، خلق اللوح والقلم وأجراه كاتبا بعلمه في خلقه، فلا تتحرك ذرة إلا إليه وعنه، أوجد الكل من غير حاجة إليه، ولا موجب أوجب ذلك عليه، إلا أن علمه قد سبق، فذلك خلق من خلق، لم تتعلق قدرته إلا بما أراد، كما أنه لم يرد إلا ما علم، ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12]، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: 28]، ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14] علم الأشياء قبل وجودها، ثم أوجدها على حد ما علمها، مريد لجميع الكائنات في الأرضين والسماوات، فما في الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران، ولا حياة ولا موت، ولا حصول ولا فوت، ولا متحرك ولا ساكن، ولا ظاهر ولا باطن، إلا وهو مراد للحق جل وعلا لا معقب لحكمه، ولا راد لأمره يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، أخرج العالم فريقين، وأوجد لهم منزلتين، فقال: هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي، لم يتصرف في ملك غيره، فلا ينسب إليه الظلم والحيف، ولا يتوجه إليه من الغير سؤال بـ«**لِم**» أو «**كيف**». فهو سبحانه كما قال في كتابه المكنون: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23].

فإن رأيت من لم يخضع لهذا الاعتقاد من الضالين المضلين، فاصرف النظر

عنهم وقل: لله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين، يسمع دبيب النملة على الصخرة الصماء، ويبصر السواد في الظلماء، متكلم لا عن صمت تقدم، ولا عن سكوت متوهم بكلام قديم أزلي منزه عن الحروف والأصوات، وعن جميع آلات النطق واللهات، كما أن سمعه من غير أصمخة ولا آذان، وبصره من غير حدقة ولا أجفان، وعلمه من غير نظر ولا برهان، وحياته من غير بخار حدث عن امتزاج الأركان، وبالجملة فهو سبحانه وتعالى متصف بكل كمال، ومنزه عن كل نقص إذ هو الكبير المتعال، فلا يشبه شيئا من الحوادث، بل كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

وكذلك يجب اعتقاد أن لله تعالى أنبياء ورسلا مبشرين ومنذرين، وأن سيدنا محمدا رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين بعث إلى كافة الخلق أجمعين، وقد خاطبه الله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: 46-45] فبلغ جميع ما أنزله الله إليه، وأدى الأمانة ونصح الخليقة صلوات الله وسلامه عليه، ويجب اعتقاد أن كل ما جاء به النبي ﷺ حق، ومن جملة ما جاء به أن الموت حق، وأن سؤال القبر حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن العرض على الله حق، وأن الميزان حق، وأن الحوض حق، وأن الصراط حق، وأن تطاير الصحف حق، وأن الجنة والنار حق، وأن فريقا في الجنة وفريقا في السعير، وأن شفاعة الأنبياء والملائكة والعلماء والشهداء وصالحي المؤمنين حق، وأن كل ما جاءت به الأنبياء عن الله حق.

فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، وهي بحمد الله عقيدتنا إلى قيام الساعة، أسأل الله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم في الدار الفاخرة، وكذا يجب على المريد أن يحصل من علم الفقه ما تصح به أعماله على وفق الشريعة المطهرة، وإلا كانت جميع أعماله باطلة، فيصير تعبه هباء منثورا.

"**تتمة**": من شرط الذكر النافع المفيد أن يأخذه المريد بالتلقين من أهل الذكر، كما أخذته الصحابة رضي الله عنهم من رسول الله ﷺ، فقد روي عن شداد ابن أوس أنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «**هل فيكم غريب؟**» يعني من أهل الكتاب، قلنا: لا يا رسول الله، فأمر بغلق الباب، وقال: «**ارفعوا أيديكم وقولوا: لا**

إله إلا الله»، فرفعنا أيدينا وقلنا: لا إله إلا الله، ثم قال رسول الله ﷺ: **«أبشروا فإن الله قد غفر لكم»**.

وأما تلقين الذكر فرادى، فروي أن عليا كرم الله وجهه قال: يا رسول الله دلني على أقرب الطرق إلى الله وأسهلها عبادة، فقال ﷺ: **«أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله»**، ثم قال علي ﷺ: كيف أذكر يا رسول الله؟ فقال: **«غمض عينيك واسمع مني ثلاث مرات، ثم قل أنت ثلاث مرات، وأنا أسمع»**، فقال ﷺ: **«لا إله إلا الله»** ثلاث مرات مغمضا عينيه رافعا صوته وعلي ﷺ يسمع، ثم قال علي ﷺ لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضا عينيه رافعا صوته والنبي ﷺ يسمع. قلت: وهذا أصل سند القوم في التلقين.

ثم بعد ذلك يأمر الشيخ المريد بما يليق به من الأوراد؛ ومن آداب الذاكر أن يكون على طهارة كاملة، وأن يكون حاضر القلب مستقبل القبلة، غاضا بصره، مستحضرا لشيخه، فإنه إذا استحضر شيخه في حال الذكر ولاحظ استمداده منه، تتحرك سلسلة الطريق إلى الحضرة النبوية، فيكتسب عند ذلك أعظم مزية بتوارد الإمدادات المصطفوية، وبقية الآداب مذكورة في المطولات، فعليك بمطالعة كتب الأكابر السادات.

وينبغي للمريد أن يلازم ما يعينه له أستاذه من الأذكار خصوصا لا إله إلا الله، لما في الحديث القدسي: **«لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي»**، وفي الحديث: **«إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل وما جلاؤها يا رسول الله قال ذكر الله عز وجل»**، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة: فقال رسول الله ﷺ: **«لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه»**.

واعلم أن الذكر ثقيل على الذات الخبيثة لأنها سقيت بالظلام، وفي الذكر نور، وهي لا تقبل ما لا يوافق طبعها إلا بالمجاهدة، فتدبر ذلك والله يتولى هداك، وهو يتولى الصالحين.

[أوصاف الشيخ المرشد]

ثم وصف المصنف رضي الله عنه الشيخ العارف بقوله:

16 | مَحَا لِحُظُوظِ النَّفْسِ بِالعِلْمِ وَالتُّقَى نَصُوحٌ كَرِيمٌ بِالعُلُومِ السَّنِيَّةِ

أي: من أوصاف الشيخ المرشد أن يكون قد **(محا لحظوظ النفس)** الأمارة بالسوء من شهواتها القتالة **(بالعلم)** الذي أفاضه الله عليه، **(والتقى)** الذي قربه به إليه، فإن النفس طبعت على مخالفة العقل وموافقة الهوى، وحب الشر ومجانبة التقوى، فإذا عاملها الإنسان بمخالفة هواها، رجعت إلى طاعة من ألهمها فجورها وتقواها.

ومن أوصاف الشيخ أيضا أنه **(نصوح)** أي: كثير النصح لما في الحديث: **«الدين النصيحة»**، قلنا: لمن؟ قال: **«لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»**. وقد أشبعنا الكلام على هذا الحديث في شرح الأربعين النووية فانظره إن شئت.

ومن كلام سيدي علي الخواص: الزموا النصح والاستشارة لإخوانكم، فإنهما بمنزلة تنبيه النائم أو الغافل. وقوله: **(كريم بالعلو السنية)** أي: أنه يبث العلوم الشريفة التي أفاضها الله عليه فيلقيها على من رآه أهلا لها وإن لم يسأله عنها، فإن الكريم هو الذي يبادر بالنوال قبل السؤال، وأما من لم يكن أهلا لها فليس له حظ في نوالها، كما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

سأكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي ولا أنثر الدر النفيس على الرمم
فإن يسر الله الكريم بفضله وصادفت أهلا للعلوم وللحكم
بثثت مفيدا واستفدت ودادهم وإلا فمخبوء لدي ومكتتم
فمن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

17 | تَجَلَّى لَهُ الرَّغْبُوتُ وَالْهُوتُ فِي السُّرَى وَنَاسُوتُهُ بالسِّرِّ حَجَّت وَلَبَّتِ

قال السيد الشريف في تعريفاته: التجلي: هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب، وإنما جمع الغيوب باعتبار تعدد موارد التجلي فإن لكل اسم إلهي بحسب حيطته ووجوهه تجليات متنوعة.

وقال في موضع آخر: التجلي الذاتي: ما يكون مبدؤه الذات من غير اعتبار صفة من الصفات معها وإن كان لا يحصل ذلك إلا بواسطة الأسماء والصفات، إذ لا يتجلى الحق من حيث ذاته على الموجودات إلا من وراء حجاب من الحجب الاسمائية.

والتجلي الصفاتي: ما يكون مبدؤه صفة من الصفات من حيث تعينها وامتيازها عن الذات اهـ.

فالمعنى هنا أنه كشف الحجاب عن قلب هذا العارف فشاهد تجلي **(الرغبوت)** بفتح الغين المعجمة لكنه في البيت مسكن لأجل الوزن وهو مبالغة في الرغبة، أي: المرغوب فيه كثيرا وهو المراد بقول ابن العربي في قصيدته:

تجلى لي النور الأعم بكنهه فشاهدت ذاك النور في كل صورة
ومن حل بالبيت المعظم قدره فقبلته صارت إلى كل وجهة

(والهوت) المراد به اللاهوت وهو سر الألوهية، قال الواحدي: يقولون: لله لاهوت، وللإنسان ناسوت. ويقال: اللاهوت الروحانية، والناسوت البشرية، كما قال ابن الفارض:

ولم أله باللاهوت عن حكم مظهري ولم أنس بالناسوت مظهر حكمتي

ومراده: أن المقام الذي تغلب عليه فيه الروحانية، لا يلهيه عن وظائفه العبودية، كما أنه لم ينس بناسوته، أي: بشريته مظهر الحكمة في إيجاد المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، والتعبير باللاهوت والناسوت لغة عبرانية، وقد كفرت النصارى بقولهم: إن اللاهوت وهو الله تعالى تلبس بالناسوت، أي: جسد عيسى ودخل فيه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وقوله: **(في السرى)** بضم السين المهملة وفتح الراء، أي: في مقام السير والسفر الذي قطع فيه مفاوز البعد عن الله، وتقرب إليه بما يحبه ويرضاه. فتحقق في حضرة الإسعاد بأنواع الكمال، واكتسى بعد التحلل من حرمات الإحرام بحلل

الجمال، ولذا قال: **(وناسوته بالسر حجت ولبت)** أي: وقد حجت ذاته بمعنى قصدت جناب الحق ولبت، أي: أجابت داعي القرب إليه بسبب ما أودع فيها من السر، قال بعض أهل الإشارات: الحج حجان حج جسماني، وحج روحاني، فالحج الجسماني إلى كعبة المباني، والحج الروحاني إلى حضرة التداني. فمن حج إلى كعبة المباني خصصته بغفراني، ومن حج إلى حضرة التداني كشفت عنه الحجب حتى يراني، وجعلته من ندمائي، وخلعت عليه خلعة رضوني. جعلنا الله من جملة الأحباب، إنه حليم كريم عظيم وهاب.

وفي تعريفات السيد الشريف ما نصه: السفر عند أهل الحقيقة عبارة عن سير القلب عند أخذه في التوجه إلى الحق بالذكر، والأسفار أربعة:

السفر الأول: هو رفع حجب الكثرة عن وجه الوحدة، وهو السير إلى الله من منازل النفس بإزالة التعشق من المظاهر والأغيار إلى أن يصل العبد إلى الأفق المبين وهو نهاية مقام القلب.

السفر الثاني: هو رفع حجاب الوحدة عن وجوه الكثرة العلمية الباطنة وهو السير في الله بالاتصاف بصفاته والتحقق بأسمائه وهو السير في الحق بالحق إلى الأفق الأعلى وهو نهاية حضرة الواحدية.

السفر الثالث: هو زوال التقيد بالضدين الظاهر والباطن بالحصول في أحدية عين الجمع وهو الترقي إلى عين الجمع والحضرة الأحدية وهو مقام قاب قوسين ما بقيت الاثنينية فإذا ارتفعت فهو مقام أو أدنى وهو نهاية الولاية.

السفر الرابع: عند الرجوع من الحق إلى الخلق وهو أحدية الجمع والفرق بشهود اندراج الحق في الخلق، واضمحلال الخلق في الحق حتى يرى عين الوحدة في صورة الكثرة، وصورة الكثرة في عين الوحدة، وهو السير بالله عن الله للتكميل وهو مقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع اهـ.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

18 | وَقَدْ جَالَ فِي مُلْكُوتِ كُلُّ حَاصِلٍ كَذَا رَهَبُوتُ الْغَيْبِ مِنْ غَيْرِ شُبْهَةِ

يقال: **(جال)** في البلاد طاف، و**(كل)** بالرفع على الفاعلية و**(الملكوت)** بفتح

الميم واللام لكن اللام في البيت مسكنة لأجل الوزن، هو عالم الغيب أعني: عالم الأرواح والنفوس، كما أن عالم الملك هو عالم الشهادة، أعني: عالم الأجساد والجسمانيات.

وأما عالم الجبروت فهو أعلى من عالم الملكوت لأنه مأخوذ من الجبر وهو القهر لأن العباد مقهورون عن إدراك كنهه ما عدا أهل الصفوة والاجتباء، وهو عند أبي طالب المكي عالم العظمة يريد به عالم الأسماء والصفات الإلهية وعند الأكثرين عالم البرزخ المحيط بالأمريات الجمة، ويقال: الجبروت علم الذات والملكوت علم الأسماء والصفات الدالة على الذات. والملك علم فعله الظاهر الدال على ما سبق، ويقال: الإنسان روح ثم نفس ثم جسم، فالروح عالم الجبروت، والنفس عالم الملكوت، والجسم عالم الملك فالروح الجبروتي مظهر الذات والنفس الملكوتي مظهر الأسماء والصفات والجسم الملكي مظهر الأفعال. فالمعنى هنا: وقد جال في نفس هذا العارف كل شيء حاصل حتى أطلع عليه.

وقوله: **(كذا رهبوت الغيب)** بفتح الراء والهاء مبالغة في الرهبة، كما أن الرغبوت مبالغة في الرغبة، والرحموت مبالغة في الرحمة، يعني: أن هذا العارف جال في نفسه شدة الرهبة من الله تعالى حيث صار من أرباب هذه المقامات العلية الذين شربوا من كؤوسها السنية ففنيت ذاتهم في مقام الرهبوت، ثم بقيت في مقام الرغبوت وتحلت بحلل في مقام الرحموت فهم دائما في مقام التسليم للحي الذي لا يموت.

واعلم أن التجليات الغيبية لا تزال متوالية على قلب الكامل لأجل الإمداد فتارة ترد من تنزلات حضرة اسمه تعالى القابض فتحصل الخشية والرهبة ويكون صاحب هذا المقام في قبض ما دام عليه هذا التجلي، وتارة ترد من تنزلات حضرة اسمه تعالى الباسط فيحصل الانبساط لصاحب هذا المقام وتغلب عليه الرغبة.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

19	وَسَارَ بِعَزْمٍ في كَرَاسِي عُرُوشِهِ وَطَارَ بِسِرِّ السِّرِّ في حَالِ نَشْأَةِ

أي: وسار هذا العارف **(بعزم)** وقوة **(في كراسي)** جمع كرسي **(وعروشه)** جمع عرش، وهي كناية عن المقامات العالية التي أعدها الله تعالى لأوليائه، فلا

يقف في حال سيره بل يكون ملاحظا نداء هواتف كل مقام المقصود أمامك وطار هذا العارف أيضا **(بسر السر)** الذي أطلعه الله عليه وحجبه عن غيره.

قال السيد الشريف: السر لطيفة مودعة في القلب كالروح في البدن، وهو محل المشاهدة كما أن الروح محل المحبة، والقلب محل المعرفة، وسر السر ما تفرد به الحق عن العبد كالعلم بتفصيل الحقائق في إجمال الأحدية وجمعها واشتمالها على ما هي عليه ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59] اهـ.

قلت: ولا مانع من كونه تعالى يطلع على غيبة بعض أصفيائه كما قال تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: 26 – 27] يعني: أو ولي كما قاله بعض العارفين، والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم لم ينتقل من هذه الدار حتى أطلعه الله على مفاتح الغيب فلتكن بعض خواص أمته كذلك بطريق الوراثة المحمدية والله أعلم. ولذا قال سيدي مصطفى البكري في شرح قوله: «**وبسر سر سرك**» أي: غيبك المخزونة أسراره المكنونة أنواره المضنون به على غير أهله الذي لا يطلع عليه إلا من اخترته لشرب نهله اهـ.

ومن كلام بعض العارفين: صدور الأحرار قبور الأسرار. فإن الله تعالى يغار أن تبدو أسراره المصونة لقلوب بشهود الغير مفتونة وأنشد بعضهم في ذلك:

ومستخبر عن سر ليلى وددته بعمياء من ليلى بغير يقين
يقولون خبرنا فأنت أمينها وما أنا إن خبرتهم بأمين

وقوله: **(في حال نشأة)** أي: في حال النشأة التي أنشأه الله عليها وأعطاه بها هذا المقام.

ومما حكي عن عبد الله السكندري أنه قال: خرجت إلى البرية لعلي أرى أحدا من الرجال الأخيار فرأيت جارية فقلت في نفسي: كان اجتماعي برجل أولى من امرأة، فقالت: يا أبا عبد الله تريد الاجتماع بالرجال وأنت لم تصل إلى مقام النساء فقلت: ما أكثر دعواك؟ فقالت: الدعوى بغير بينة باطلة. فقلت: فما بينتك؟ فقالت: هو لي كما أريد لأني له كما يريد. ثم قالت: ما تريد في هذه البرية؟ فقلت سمكا مشويا. فقالت هذا من ضعف عقلك ونزول مقامك هلا طلبت منه جناحا من الشوق تطير به كطيراني ثم طارت في الهواء.

واعلم أنه متى ظهرت الروح وزال الحجاب الذي بينها وبين الذات أمدتها بصفائها الحسي فيحصل في الذات صفاء حسي تنقطع به حظوظ الشيطان لتغذي العروق بماء الصفاء وحينئذ عدها بالصفاء المعنوي حتى يصير للذات ما للروح. ومعلوم أن الله تعالى أعطى الروح قوة السريان فتخرق الأجرام والجبال والصخور والجدران ونحو ذلك وتذهب حيث شاءت، فإذا أسكنت الروح إلى الذات وأحبتها أمدتها بتلك القوة فتخرق الذات الأشجار وتدخل البيوت المغلقة وتطير في الهواء وتقطع المفاوز الوعرة الواسعة في الزمن القريب جدا فلولا هذه القوة التي سرت من الروح للجسم لما أمكنه ذلك.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

20	يُضِيءُ كَضَوْءِ الشَّمْسِ تَبْدُو لِنَاظِرٍ لَهُ هِمَّةٌ تُبْرِي عَلِيلَ الْجِبِلَّةِ

أي: يضيء هذا العارف بأنوار المعارف التي فيه كضوء الشمس عند انكشافها حال كونها تبدو أي: تظهر لناظر لها ليس دونها سحاب وقوله: **(له همة)** أي: لهذا العارف همة، أي: توجهات قلب **(تبري)** بضم المثناة، أي: تشفي **(عليل الجبلة)** بكسر الجسم والموحدة وتشديد اللام، أي: الطبيعة، والمعنى أن همة هذا العارف تشفي مرض القلب كما وضح ذلك **المصنف رضي الله عنه بقوله:**

21	حَكِيمٌ يُدَاوِي الطَّالِبِينَ بِطِبِّهِ خَبِيرٌ بِدَاءِ الْقَلْبِ فِي كُلِّ لَحْظَةِ

يعني أنه ذو حكمة ومعرفة بالطب الروحاني لأنه **(يداوي الطالبين)** لأوج الكمالات **(بطبه)** الذي يوصل صحة قلوبهم إلى أعلى الدرجات. قال ابن دريد: كل كلمة وعظتك وزجرتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة. وقوله **(خبير)** أي: عنده خبرة **(بداء القلب)** من الغش والحقد والحسد وحب الرياسة ونحو ذلك فيصف لصاحبه ما يزيله عنه **(في كل لحظة)** أي: زمن يسير بقدر ما يلحظ بالعين.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

22	يَرَى بِعُيُونِ الْقَلْبِ مَا كَانَ خَافِياً وَيُدْرِكُ بِالأَبْصَارِ حُجْبَ الأَكِنَّةِ

أي: ومن شأن هذا العارف أن يكون من أهل البصيرة وهي عين في القلب يبصر بها الأشياء كما يبصر بالعين الباصرة فإذا قويت بصيرته صارت كأنها عيون في قلبه يبصر بها ما كان خافيا وفي الحديث: «**من أراد الله به خيرا فتح له قفل قلبه وجعل فيه اليقين**» يعني: أزال عن قلبه حجب الإشكال وفتح بصيرته للنظر لمراتب الكمال فيصير قابلا للفيض السبحاني، مستمدا من المدد الرحماني، حتى إذا هبت رياح الألطاف، وتدانت مواهب الإسعاف أشرقت على قلبه الأنوار فيرى ما كان خافيا على الأغيار وقوله: **(ويدرك بالأبصار)** جمع بصر، أي: العيون. **(حجب)** جمع حجاب وإنما سكنت الجيم لضرورة النظم أي: يدرك الحجب التي هي **(الأكنة)** فالإضافة بيانية، أي: التي تكن الشيء وتستره فيزيلها عن المريد بطبه الروحاني حتى لا يكون هناك حجاب يمنعه عن الوصول إلى رفيع الدرجات والحصول على ما يلحقه بالأكابر السادات.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

23	وَأُدْرِجَ فِي التَّوْجِيهِ فِي طَيِّ غَيْبِهِ غُيُوثُ عُيُونِ الغَيْثِ كَنْزُ الذَّخِيرَةِ

الظاهر أن قوله: **(وأدرج)** مبني للمفعول، وقوله: **(في طي غيبه)** متعلق به ونائب الفاعل قوله: **(غيوث)**. وقوله: **(كنز الذخيرة)** بدل منه، وقوله: **(في التوجيه)** أي: في حال توجهه إلى الله تعالى. والمراد **(بطي غيبه)**: سره الذي هو اللطيفة المودعة في القلب كالروح في البدن فالمعنى أن هذا العارف صار سره في حال التوجه إلى الله تعالى محلا لقبول غيوث عيون الغيب التي هي الأسرار والعلوم المفاضة عليه من حضرة عالم الغيب والشهادة وهي كنز الذخيرة للعارف والله تعالى أعلم.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

24 | وَأُدْرِجَتْ الأَكْوَانُ في غَيْبِ ذَاتِهِ كَإِدْرَاجِ مَيْتٍ فِي قَمِيصٍ وَعِمَّةِ

أي: ومن شأن هذا العارف أن الأكوان عنده قد أدرجت في غيب أي: مغيب ذاته عنها فلا يشهد شيئا في الكون سوى مولاه ثم شبه ذلك بقوله: **(كإدراج ميت)** بتخفيف الياء أي: إدخاله بعد فقد الحياة في قميص وعمة، ولذا قال بعض العارفين: من علت همته عن الأكوان وصل إلى مكونها، ومن وقف بهمته على شيء دون الحق فإنه الحق لأنه أعز من أن يرضى معه بشريك، ولله در أبي الحسن التستري حيث قال في هذا المعنى:

فلا تلتفت في السير غيرا فكل ما سوى الله غير فاتخذ ذكره حصنا
وكل مقام لا تفهم فيه أنه حجاب فجد السير واستنجد العونا
ومهما ترى كل المراتب تجتلي عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا
وقل ليس لي في غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى ولا تحفة تحبنى

ويحتمل كون المعنى أن ذاته جامعة لما في الأكوان على حد ما قيل:

دواؤك فيك وما تشعر ودواؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضمر

ومعنى البيت الأول: أن الداء الذي يعتر الإنسان ناشئ من نفسه الأمارة بالسوء فإذا جاهدوها وصارت مطمئنة راضية كان ذلك عين الدواء، ومعنى قوله: وفيك انطوى العالم الأكبر كما أفاده شيخنا العروسي في الرسالة القشيرية: أن الإنسان الكامل كتاب جامع لما في أم الكتاب وما في اللوح المحفوظ وما في الصحف المطهرة إذ هو نتيجة العالم الأكبر، فهو من حيث روحه وعقله كتاب مسمى بأم الكتاب، ومن حيث قلبه كتاب اللوح المحفوظ، ومن حيث نفسه كتاب المحو والإثبات وهذه هي الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة التي لا يمسها ولا يدرك أسرارها ومعانيها إلا المطهرون من الحجب الظلمانية ويتفرع عن هذه الكتب كل شيء في الوجود من القوى الروحانية والجسمانية وغيرها مما ينتقش فيها أحكام

الموجودات، وقال في موضع آخر: فأنت أيها الإنسان إذا كنت جامعا لمعاني الأكوان فلا تحتجب بك عنك بل افهم حقائق العرفان ترق لحضرة العيان، وقد قيل في ذلك:

إذا كنت كرسيا وعرشا وجنة ونارا وأفلاكا تدور وأملاكا
وكنت من الكلي نسخة كله وأدركت هذا بالحقيقة ادراكا
ففيم الثأني بالحضيض منبطا مقيم مع الأسرى أما آن إسراكا

اهـ

وقال في الفيوضات الإحسانية: قد انطوى في ابن آدم العالم الكبير، فما في الأرض من جبال فهو بمنزلة العظام، وما فيها من بحار عذبة وغير عذبة فهو بمنزلة ما أودع في فمه وعينيه، وما فيها من نبات فهو بمنزلة الشعر، وما فيها من سبخ فهو بمنزلة ما لا ينبت الشعر من بدنه، وما فيها من سهل ووعر فهو بمنزلة ما فيه من الخلق الحسن والسيئ، وما في الكون من شمس فهو بمنزلة الروح لأن الجسد يستضيء فإذا غابت أظلم، وما في الكون من قمر فهو بمنزلة العقل، فالهلال بمنزلة عقل الطفل، ثم يزيد إلى أن يكمل، والكواكب الخمسة السيارة بمنزلة الحواس الخمس وهي الذوق والشم واللمس والسمع والبصر، والجنة النار بمنزلة ما فيه من الغضب والرضا، والليل والنهار بمنزلة ما فيه من الحزن والسرور، والفصول الأربعة التي في السنة وهي الصيف والشتاء والخريف والربيع بمنزلة الطبائع الأربعة، والنوم بمنزلة الموت، واليقظة بمنزلة البعث، وما يراه النائم من الرؤيا الحسنة أو السيئة بمنزلة النعيم أو العذاب إلى غير ذلك، اهـ ملخصا.

وما ألطف قول بعضهم:

إذا كنت تقرأ علم الحروف فشخصك لوح به أسطر
وتمثال ذلك أنموذج لكل الوجود لمن يبصر
ففيك أشعة لاهوته من البدر يا ذا النهى أنور
وشمس المعارف أنوارها من الشمس في ضوئها أظهر
لقد ظهرت بسماء القلوب خفايا الغيوب لمن ينظر
سماء على قطب توحيده تدور اشتياقا فلا تقصر

لـهـا مـن أشـعـة عـرفـانـه نـجـوم بـإخـلاصـهـا تـزهـر
فـمـشـرقـهـا أفـق سـودائـهـا ومـغـربـهـا سـره الـمـضـمـر
وعـرش الـصـفـاء لـهـا مـركـز إلـيـه انـتـهـى كـل مـا يـسـطـر
وهـنـاك الـمـلـيـك تـجـلـى لـهـا وأوحـى لـهـا كـل مـا يـؤمـر

وبتدبر هذا تفهم قوله سبحانه في الحديث القدسي: «**ما وسعني أرضي ولا سمائي وإنما وسعني قلب عبدي المؤمن**» فإن المراد تجليه عليه.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

25 | وَيُخْبِرُ بِالأَشْيَاءِ قَبْلَ وُقُوعِهَا مِنَ اللَّوْحِ يَقْرَاهَا بِعَيْنِ البَصِيرَةِ

أي: ومن شأن هذا العارف الكامل في المعرفة أنه (**يخبر بالأشياء**) المعلومة في باطن الغيب (**قبل وقوعها**) في عالم المشاهدة بعد أن (**يقرأها**) (**من اللوح**) المحفوظ بعين بصيرته، و«**يقراها**» في البيت بدون همزة لأجل الوزن، وقد أطلع الله بعض خواصه على ما في اللوح المحفوظ الجامع لكل شيء لقوله تعالى: ﴿**وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنعام: 59].

وقد كان سيدي جاكير الكردي يقول: ما أخذت العهد قط على مريد حتى رأيت اسمه مكتوبا في اللوح المحفوظ، وأنه من أولادي.

وقال سيدي إبراهيم الدسوقي: إذا كمل العارف في مقام العرفان أورثه الله علما بلا واسطة، وأخذ العلوم المكتوبة في ألواح المعاني، ففهم رموزها، وعرف كنوزها، وفك طلسماتها، وعلم اسمها ورسمها، وأطلعه الله تعالى على العلوم المودعة في النقط، ولولا خوف الإنكار لنطق بما يبهر العقول، ثم قال: وكذلك للعارفين اطلاع على ما هو مكتب على أوراق الشجر والماء والهواء وما في البر والبحر وما هو مكتوب على صفحة قبة خيمة السماء وما في جباه الإنس والجن مما يقع لهم في الدنيا والآخرة، وكذلك لهم الاطلاع على ما هو مكتوب بلا كتابة من جميع ما فوق الفوق وما تحت التحت، ولا عجب من حكيم يتلقى علما من حكيم عليم، فإن مواهب السر اللداني ظهر بعضها في قصة موسى والخضر عليهما السلام، اهـ.

وقوله: **(بعين البصيرة)** هي قوة القلب المنور بنور القدس، يبصر بها حقائق الأشياء كما يبصر الإنسان بالعين الباصرة، بل عين البصيرة أقوى في الإدراك. قال ابن العربي: لا تنكر على الصوفية النطق عن الغيب مع إيمانك بالمثال المحسوس وهو أن المرآة إذا صقلت وجلي عنها الصداء تجلت صورة الناظر فيها، فإن جاء أحد خلفه تحت صورته في المرآة أبصره على أي صورة هو، ولم يره بعينيه المعهودة، فمن عهد إلى مرآة قلبه فجلاها من صداء الأغيار وأماط عنها كل حجاب يحجبها عن تجلي صور المعقولات والمغيبات بأنواع الرياضات نطق عما يشاهده، وتحقق بمقام: ما كذب الفؤاد ما رأى اهـ.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

26	مَتِينُ الحِجَا يَدْعُو إِلَى الرُّشْدِ بِالْهُدَى وَقَد جَاءَنَا تَشْبِيهُهُ بِالنُّبُوَّةِ

يعني أن من شرط الشيخ أن يكون **(متين الحجا)** بكسر الحاء المهملة وتخفيف الجيم، أي: قوي العقل، لأنه مرشد فلابد أن يكون كامل العقل بخلاف المجذوب المأخوذ عقله، فلا يصلح للإرشاد ومداواة علل العباد، وكما أن العقل يسمى **«حجا»** كذلك يسمى **«نهية»** لنهيه صاحبه عن المعاصي، والجمع **«نهى»** قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: 54] أي: لأصحاب العقول، ويسمى أيضا **«لبا»** ويجمع على **«ألباب»**، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 21]، ومن أسمائه **«القلب»**، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: 37] أي: عقل، كما فسره بذلك ابن عباس، ومن أسمائه «الحجر« بكسر الحاء المهملة وسكون الجيم، قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: 5] أي: عقل، سمي بذلك لأنه يحجر صاحبه عما لا ينبغي، كما أنه سمي عقلا لكونه يعقل صاحبه عن ارتكاب ما لا يليق، وله أسماء غير هذه، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى غالبا.

وقد ورد أن أفضل ما خلق الله العقل، فإن به الأخذ وبه العطاء، ولذا قال بعضهم:

وأفضل قسم الله للمرء عقله فليس من الأشياء شيء يقاربه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله فقد كملت أخلاقه ومآربه

وقال آخر:

ما وهب الله لامرئ هبة أحسن من عقله ومن أدبه
هما جمال الفتى فإن فقدا ففقده للحياة أجمل به

وقوله: **(يدعو)** أي: يطلب هذا العارف الناس **(إلى الرشد)** بضم الراء وهو خلاف الغي، فيرشدهم إلى ما فيه الصلاح **(بالهدى)** أي: الدلالة على سلوك سبيل الفلاح **(وقد جاءنا)** معشر أهل السنة **(تشبيهه)** في حال إرشاده للعباد **(بالنبوة)** من حيث إن الجامع بينها الدلالة على سبيل الرشاد، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: 108]. وقال ابن عباد في شرح الحكم نقلا عن ابن القاسم القشيري: ورد في الخبر **«أن الشيخ في أهله كالنبي في أمته»**.

وقال ابن العربي في الفتوحات:

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله فقم بها أدبا لله بالله
هم الأدلاء والقربى تؤيدهم على الدلالة تأييدا على الله
الوارثون همو للرسل أجمعهم فما حديثهموا إلا عن الله
كالأنبياء تراهم في محاربهم لا يسألون من الله سوى الله

ثم قال: فالشيوخ نواب الحق في العالم كالرسل عليهم الصلاة والسلام في زمانهم، بل هم الورثة الذين ورثوا الشرائع عن الأنبياء غير أنهم يشرعون، فلهم رضى الله عنهم حفظ الشريعة في العموم وما لهم التشريع ولهم حفظ القلوب ومراعاة الآداب في الخصوص، اهـ.

فالمقصود أن من قام في مقام الإرشاد يكون على قدم النبي في دلالته الناس على ما ينفعهم يوم التناد، وإن ظهرت من الولي كرامة فهي في الحقيقة معجزة لنبيه الذي هو تابع له، إذ لو يكن ذلك الرسول صادقا لم تظهر على يد من تبعه الكرامة، ونهايات الأولياء في الكرامات بدايات الأنبياء عليهم السلام في المعجزات، كتسليم الحجر والشجر على نبينا صلى الله عليه وسلم في أول أمره، وذلك لأنهم أتباع ولا قوة للتابع على غير مبادي المتبوع.

ثم إن الفرق بين المعجزة والكرامة وإن كان كل منهما خارقا للعادة: أن المعجزة إنما تكون ممن يدعي النبوة فتكون دليلا على صحة دعواه بخلاف الولي

فإنه لا يدعي ذلك، فإن النبي مأمور بإظهار المعجزة الدالة على صدقه، والولي مأمور بإخفاء الكرامة التي أجراها الله على يده، نعم يجوز إظهارها إذا رأى أمرا لا يصح السكوت عليه، كما اتفق أن بعض الفلاسفة حضر مجلس سيدي محي الدين ابن العربي ومعه بعض أكابر الصوفية في زمن الشتاء وبين أيديهم نار يوقدونها، فقال: إن العامة تقول إن إبراهيم عليه السلام ألقي في النار فلم تحرقه مع أن النار محرقة بطبعها والحقائق لا تتبدل، وأنكر ما جاءت به الأنبياء من خرق العوائد، وتأول قوله سبحانه: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ [الأنبياء: 69] بأن النار في الآية عبارة عن غضب نمرود، فهي نار الغضب لا النار الحقيقية المحرقة، فقال له بعض الحاضرين: أنا أقوم لك في هذا المقام مقام إبراهيم، لترجع عن إنكارك، أليست هذه النار المحرقة بطبعها؟ قال: نعم، فوضعها في حجر المنكر وأمره أن يقلبها بيده، فقلبها بيده مدة وهي لا تؤثر فيه ببركة من كانت هذه الكرامة على يده، ثم ردها في مكانها وقال له: قرب يدك منها فقرب يده فأحرقته، فقال له: هكذا كان الأمر، فإنها مأمورة تحرق بالأمر وتترك الإحراق كذلك، فاعترف الفيلسوف ورجع عن إنكاره، لكن بعد أن أحرقه الله بناره.

وقد قسموا الأمر الخارق للعادة إلى ستة أقسام جمعها بعضهم في قوله:

إذا ما رأيت الأمر يخرق عادة ... فمعجزة إن من نبي لنا صدر
وإن بان منه قبل وصف نبوة ... فالإرهاص سمه تتبع القوم في الأثر
وإن جاء يوما من ولي فإنه الـ ... كرامة في التحقيق عند ذوي النظر
وإن كان من بعض العوام صدوره ... فكنوه حقا بالمعونة واشتهر
ومن فاسق إن كان وفق مراده ... يسمى بالاستدراج فيما قد استقر
وإلا فيدعى بالكهانة عندهم ... وقد تمت الاقسام عند الذي اختبر

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

27	لَهُ قَدَمٌ فِيمَا يَقُولُ وَيَدَّعِي ... وتَصْرِيفُهُ فِيهِ بِحُكْمِ الْمَشِيئَةِ

أي: لهذا العارف **(قدم)** بفتح القاف والدال أي: رسوخ وتمكن **(فيما يقول)** ه **(ويدعي)**ه لما أفاضه الله عليه من مواهب الفضل والامتنان، فكل دعوى يقوم عليها

من حاله ألف شاهد وبرهان، **(وتصريفه فيه)** أي: تصريف هذا العارف فيما يقوله ويدعيه بأن يمضيه أو لا يمضيه، كائن **(بحكم المشيئة)** أي: مشيئة الله تعالى الذي جعل له هذا التصريف، ومن كلام العارف الشعراني تحدثا بالنعمة التي أسبغها الله عليه: مما منَّ الله علي أنه مكنني من كن فلو قلت لجبل: كن ذهبا، لكان ولكن أدبا مع الربوبية لا أنطق بذلك.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

28	يُصَرِّفُ أَقْوَاماً وَمَيْدَانُ سِرِّهِ جَلاَ غَيْهَبَ الأَسْرَارِ مِنْ كُلِّ بُقْعَةِ

يعني أن هذا العارف بما جعله الله له من التصريف **(يصرف)** بحكم المشيئة **(أقواما)** بحسب مراتبهم ودرجاتهم فيعطي كل إنسان ما يستحقه، والحال أن **(ميدان سره جلا)** بفتح الجيم واللام أي: كشف **(غيهب الأسرار)** والميدان في الأصل محل تسابق الفرسان، والغيهب شدة سواد الليل، والمراد هنا أن هذا العارف يكشف بنوره سره الواسع غيهب الأسرار، أي: الخفاء الذي هو فيها بمنزلة السواد، وقوله: **(من كل بقعة)** أي: من كل قلب من القلوب التي حل فيها سره، فتعود الأسرار من سره ظاهرة نيرة ببركة حلوله عند أربابها.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

29	لهُ الفَضْلُ وَالإِجْلاَلُ وَالفَخْرُ وَالعُلاَ مِنَ اللَّهِ والتَّوْفِيقُ في كُلِّ لَحْظَةِ

أي: لهذا العارف **(الفضل)** من الله، أي: مزيد العطاء جزاء له، قال تعالى في محكم القرآن: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: 60] أو له الفضل على المريد حيث أرشده لطاعة الغني المجيد، وله أيضا **(الإجلال)**، أي: التعظيم من المريد لتعظيم ذي العزة والجلال، وله أيضا **(الفخر)** أي: الافتخار بما أعطاه الله، من باب قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11] أو أن الله تعالى يفاخر به ملائكته، وله أيضا **(العلا)** أي: الرفعة من الله الذي قربه إليه تفضلا منه تعالى لا وجوبا عليه، وله أيضا **(التوفيق)** منه تعالى **(في كل لحظة)** من اللحظات ولمحة من اللمحات، أسأل الله التوفيق لأقوم طريق.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

30	هُنَاكَ لهُ الإِمْدَادُ في كُلِّ طَالبٍ يَدَعْهُ كَمَا الإِبْرِيزُ فَوْقَ الْبَسِيطَةِ

أي: عندما تفاض المواهب على هذا العارف يكون **(له الإمداد)** أي: أعطاه المدد الذي يسري منه **(في كل طالب)** للوصول إلى ما وصل إليه القوم بعد سلوك طريقهم، حتى يدع المريد السالك **(كما الإبريز)** بزيادة **«ما»** أي: مثل الإبريز، وهو الذهب الخالص من الغش، وقوله: **(فوق البسيطة)** أي: الأرض، فالعارف الموصوف بهذه الأوصاف المتقدمة يكون له من جانب الحق المدد الذي يسري منه في كل طالب للوصول على يديه بحسب استعداده حتى يخلصه من شوائب الأغيار، كما يخلص الصائغ الذهب الإبريز من الغش الذي فيه بالنار، وإنما سكن العين من **«يدعه»** لضرورة الوزن، ثم لما فرغ المصنف من أوصاف الشيخ الذي ينبغي أن يكون مرشدا شرع في أوصاف المريد وبيان الآداب التي تلزمه **فقال:**

[آداب مريد الطريق]

31 | وَفَرْضٌ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُؤَدَّباً لَدَى شَيْخِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَسَاعَةِ

أي: ويجب على الطالب لطريق المقربين وهو المريد أن يكون **(مؤدبا)** بآداب أهل الطريق **(لدى)** أي: عند شيخه، ليحصل له نتيجة ما يلقيه إليه **(في كل وقت)** مأخوذ من التوقيت وهو التحديد، والمراد به الزمان وبالساعة القطعة منه.

واعلم أن المريد هو الذي عن مراد ربه لا يحيد، ملازم للأعتاب، مترجي فتح الباب، مجتهد في العبادات، متعرض للرحمات، ذاكر للزلات، باذل عليها العبرات، رافع أكف الضراعة لمن لا يضيع من أطاعه، فأول ما يخرق له من العادة تسمية باسم المريد مع كونه مسلوب الإرادة، وما ألطف قول بعضهم:

تكون مريدا ثم فيك إراده إذا لم ترد شيئا فأنت مريد

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

32 | لِيُبْدِي لَهُ الإِشْكَالُ فِي كُلِّ صُورَةٍ وَيُلْقِي لَهُ مِنْ سِرِّ سِرِّ الْحَقِيقَةِ

أي: ليظهر المريد له، أي: لشيخه **(الإشكال)**، أي: إشكال ما ورد عليه من خفي الأمور **(في كل صورة)** وردت عليه **(ويلقي)** أي الشيخ **(له)** أي: للمريد **(من سر)** أي: خلاصة **(سر الحقيقة)** حتى يزول الإشكال. وقال ابن العربي: السر يطلق على معان فيقال: سر العلم بإزاء حقيقة العلم به، وسر الحال بإزاء معرفة مراد الله، وسر الحقيقة بإزاء معرفة ما تقع به الإشارة.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

33 | وَيَصْحَبُهُ كَالْمَيْتِ فِي حَالِ غُسْلِهِ يُقَلِّبُهُ لِلْغُسْلِ مِنْ كُلِّ وِجْهَةِ

أي: ويلزم المريد أن يسلم قياده لشيخه ولا يجعل لنفسه معه اختيارا أبدا بل يكون بين يديه **(كالميت)** بين يدي الغاسل **(يقلبه للغسل)** كيف شاء ولأي جهة أراد، والميت بتخفيف الياء هو الذي مات بالفعل، وأما قابل الموت فبالتشديد، قال

تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: 30] وقال بعضهم:

أيا سائلي تفسير ميّت وميت فدونك قد فسرت إن كنت تعقل
فمن كان ذا روح فذلك ميّت وما الميْت إلا من إلى القبر يحمل

فمن صحب شيخه بدون اختيار كشفت له الحجب والأستار.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

34 | مَعَ الذُّلِّ وَالتَّهْذِيبِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَا وَعَجْزٍ وَتَسْلِيمٍ وَتَعْظِيمِ حُرْمَةِ

أي: مع كون المريد ملازما لـ **(الذل)** وهو إظهار المسكنة لينال من الله بذلك العز الأبدي. قال أبو يزيد: قيل لي: خزائننا مملوءة فإن أردتنا فعليك بالذل والافتقار. وقال الكيلاني: أتيت جميع أبواب الحق فوجدت عليها الازدحام، حتى أتيت باب الذل والافتقار فوجدته خاليا فدخلت منه، فالتفت فإذا أنا قد سبقت القوم وتركت الناس على الأبواب.

وما ألطف قول بعض أهل الإشارات:

لا يبعدنك عتبنا عن بابنا فالعهد باق والوداد مصان
فبحبنا وبلطفنا وبفضلنا شاع الحديث وسارت الركبان
فإذا ذللت لعزنا يا ذا النهى ذلت لعزتك الملوك وهانوا

ويلزم أن يكون المريد ملازما لـ **(التهذيب)** أي: تنقية عيوب النفس حتى تستعد بذلك لخطاب: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: 27 - 30].

ويلزم أن يكون ملازما لـ **(لخوف والرجاء)** كما قال سيدي على الخواص: إذا كنت مؤمنا وسمعت أنه تعالى يمدح المؤمنين فلا تبادر إلى كونك مؤمنا، وتأمل قبل ذلك هل أنت على ما وصف الله به المومنين من الصفات التي مدحهم عليها أم لا؟ ثم إن كنت على ما وصفهم فهل تموت على ذلك أم لا؟ فإن علمت أنك تموت على ذلك فقد أمنت مكر الله، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99] وإن علمت أنك تموت على غير ذلك فقد أيست من رحمة الله ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: 87] فكن بين الرجاء والخوف فإنه الصراط المستقيم،

اهـ. غير أنه ينبغي تقديم جانب الخوف في حال الصحة وجانب الرجاء في حال المرض، كما قال الإمام الدردير:

وغلب الخوف على الرجاء وسر لمولاك بلا تناء

وذلك لأن غلبة الخوف في حال الصحة تحرق نار الشهوة وتوجب الإقبال على العمل الذي يقرب العبد إلى الله عز وجل، وغلبة الرجاء عند الموت توجب المحبة التي ينشأ عنها الشوق إلى واسع الجود والكرم، وفي الحديث: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**» وأما ما ورد من أنه صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو يجود بنفسه فقال: «**كيف تجدك**» قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال صلى الله عليه وسلم: «**الرجاء والخوف لا يجتمعان في قلب عبد مؤمن في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف**» . فإنه لا ينافي أن المطلوب في هذه الحالة تغلب جانب الرجاء، لأن الاجتماع المذكور في الحديث لا يستلزم المساواة في المجتمعين، ولذا قال بعض من غلب عليه الرجاء في هذا الموطن:

وحمل الزاد أقبح كل شيء إذا كان القدوم على كريم

وقال آخر:

إذا أمسى فراشي من تراب وبت مجاور الرب الرحيم
فهنوني أصيحابي وقولوا لك البشرى قدمت على كريم

ورؤي بعضهم في المنام في حالة حسنة، فقيل له: بم نلت هذا الإكرام؟ فقال: بحسن ظني بربي. ومما يدل على جزيل الفضل والكرم الذي لا يخص من قام في الطاعة على قدم، ما حكي أن أيوب السختياني رأى جنازة عاص فاختفى خشية أن يصلي عليها، فرأى بعضهم الميت في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، وقال: قل لأيوب السختياني: لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق.

ومن آداب المريد أن يكون ملازما لد **(عجز)** أي: عدم القدرة على ما يريده إلا بمعونة ربه ومساعدة أنفاس شيخه، فمتى شاهد من نفسه العجز ولم ير لها فعلا أقدره الله على ما يريد، وكذلك يكون ملازما لد **(تسليم)** وهو الانقياد لأمر الله تعالى وترك الاعتراض فيما لا يلائم طبعه، والانقياد لشيخه أيضا فيما يأمره به بدون معارضة، وكذلك يلازم **(تعظيم حرمة)** الله تعالى وحرمة شيخه وحرمة الخلق،

فالأول بامتثال الأوامر واجتناب النواهي. والثاني بتعظيم شأنه حيا وميتا والقيام بحقه، فإن تعظيم الشيخ تعظيم لله تعالى الذي أقامه لهداية العباد وإرشادهم إلى سلوك سبيل الرشاد، ولذا قال بعضهم:

وأنزل الشيخ في أعلى منازله ... واجعله قبلة توجيه وتنزيه
واعدم وجدك لا تشهد له أثرا ... ودعه يهدمه طورا ويبنيه
ولست تفعل هذا إن ظننت به ... نقصا تشاهده فيما يعانيه
فالمرء أن يعتقد شيئا وليس كما ... يظنه لم يخب والله يعطيه

وتعظيم حرمة الخلق بالشفقة عليهم والنصح لهم وغير ذلك.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

35 | وَيَخْرُجُ عَنْ نَفْسٍ تَوَالَتْ هُمُومُهَا ... وَيَخْشَعُ لِلَّهِ الكَرِيمِ بِخَشْيَةِ

أي: ويلزم المريد أنه **(يخرج عن نفسه)** التي **(توالت)** أي: توارد **(همومها)** وخواطرها، فإن النفس أمارة بالسوء فمتى خرج عنها وطرحها فقد أفلح وفاز، وكانت أموره التي يصل بها إلى مطلوبه في إنجاز، حيث لا عائق يعوقه عن بغيته، ولا آمر بالسوء يرجع به عن رغبته.

قال السهروردي: أهل التصوف على ثلاث طبقات؛ مريد طالب ومتوسط طائر ومنته واصل. فالمريد صاحب وقت، والمتوسط صاحب حال، والمنتهي صاحب يقين، وأفضل أشياء عندهم عد الأنفاس، فمقام المريد المجاهدات والمكابدات وتجرع المرارات ومجانبة الحظوظ، وكل ما للنفس فيه منفعة. ومقام المتوسط ركوب الأهوال في طلب المراد ومراعاة الصدق في الأحوال واستعمال الأدب في المقامات، وهو مطالب بآداب المنازل، وهو صاحب تلوين، لأنه يرتقي من حال إلى حال وهو في الزيادة. ومقام المنتهي الصحو والثبات وإجابة الحق من حيث دعاه، قد جاوز المقامات وهو في محل التمكين لا تغيره الأحوال، ولا تؤثر فيه الأهوال، قد استوى عنده الشدة والرخاء والمنع والعطاء والجفاء والوفاء، أكله كجوعه ونومه كسهره، قد فنيت حظوظه وبقيت حقوقه ظاهرة مع الخلق وباطنه مع الحق.

وقال سيدي أحمد الرفاعي: إذا أراد الله عز وجل أن يرقي العبد إلى مقامات الرجال كلفه بأمر نفسه أولا، فإذا أدب نفسه واستقامت معه كلفه بأهله، فإن قام بشأنهم وأحسن عشرتهم كلفه بجيرانه، فإن أحسن إليهم وداراهم كلفه بأهل بلدة، فإن هو أحسن إليهم وداراهم كلفه بجهة من البلاد، فإن هو داراهم وأحسن عشرتهم كلفه بما بين السماء والأرض، فإن بينهن خلقا لا يعلمهم إلا الله تعالى، ثم لا يزال يرتفع من سماء إلى سماء حتى يصل إلى محل الغوث، ثم ترتفع صفته إلى أن تصير صفة من صفات الحق تعالى فيطلعه على غيبه حتى لا تثبت شجرة ولا تخضر ورقة إلا بنظره، وهناك يتكلم عن الله تعالى بكلام لا تسعه عقول الخلائق لأنه بحر عميق غرق في ساحله خلق كثير، اهـ. من طبقات العارف الشعراني.

ثم قال في ترجمة أبي العباس المرسي وكان رضي الله عنه يقول: ما سمي إبراهيم الخليل فتى إلا لكونه كسر الأصنام الحسية التي وجدها، وأنت يا ولدي لك أصنام خمسة معنوية فإن كسرتها فأنت فتى، وهي: النفس والهوى والشيطان والشهوة والدنيا، وافهم هاهنا:

لا سيف إلا ذو الفقا ر ولا فتى إلا علي

وكذلك يلزم المريد أن **(يخشع)** أي: يخضع ويذل **(لله الكريم)** الذي تكرم عليه **(بخشية)** أي: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما تكون الخشية عن علم بما يخشى منه، ولذا خص العلماء بها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ [فاطر: 28]. وقد قيل في ذلك:

على قدر علم المرء يعظم خوفه فلا عالم إلا من الله خائف
فآمن مكر الله بالله جاهل وخائف مكر الله بالله عارف

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

36 | **وَيَعْتَقِدُ الأُسْتَاذَ فِيمَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَرِيبَةِ**

أي: ويلزم المريد أنه يعتقد أستاذه فيما يقوله وما يفعله بأن تجزم بصحته، و«**الأستاذ**» بضم الهمزة كلمة أعجمية معناها الماهر في الشيء، وقد قالوا: إن مخالفة المريد لشيخه في قوله أو فعله سم قاتل، فمن صحب شيخا من الشيوخ ثم اعترض

عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة، وقوله: **(من غير شك)** أي: تردد في صحة قوله، **(و)** من غير **(ريبة)** أي: تردد في صحة فعله، فإن الريبة والشك مترادفان على معنى واحد، وقد قال الجنيد لبعض تلامذته حين سأله عن مسألة وأجابه عنها فعارضه: فإن لم تؤمنوا فاعتزلون.

وما ألطف قول الإمام الجيلي:

وإن ساعد المقدور أو ساقك القضا ... إلى شيخ حق في الحقيقة بارع
فقم في رضاه واتبع لمراده ... ودع كلما من قبل كنت تصانع
وكن عنده كالميت عند مغسل ... يقلبه ما شاء وهو مطاوع
ولا تعترض فيما جهلت من أمره ... عليه فإن الاعتراض تنازع
وسلم له فيما تراه وإن يكن ... على غير مشروع فثم مخادع
ففي قصة الخضر الكريم كفاية ... بقتل غلام والكليم يدافع
فلما أضاء الصبح عن ليل سره ... وسل حساما للمحاجج قاطع
أقام له العذر الكليم وإنه ... كذلك علم القوم فيه بدائع

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

37 | **وَيُدْرِجُ مَا يَخْتَارُهُ فِي مُرَادِهِ ... وَأَوْصَافُهُ بِاللُّطْفِ مِنْهُ اسْتُمِدَّتِ**

أي: ويلزم المريد أنه **(يدرج)** أي: يدخل **(ما يختاره)** من الأمور **(في مراد)** شيخه فلا يختار لنفسه شيئا خلاف ما يختاره له أستاذه، وقوله: **(وأوصافه)** أي: أوصاف المريد وأحواله منه، أي: من شيخه **(استمدت)**، أي: أخذت المدد وهو الزيادة **(ب)** سبب **(اللطف)** أي: الرأفة والرفق من الشيخ بالمريد.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

38 | **فَإِنْ قَالَ لِمَ يَوْماً فَذَلِكَ عِنْدَهُمْ ... حَقِيقٌ بِلَمْ يُفْلِحْ إِلَى يَوْمَ بَعْثَةِ**

أي: **(فإن قال)** المريد لشيخه **(يوما)** من الأيام على سبيل الاستفهام، **(لم)** بكسر اللام الداخلة على «**ما**» الاستفهامية وسكنت الميم لأجل الوزن، أي: لم كان

هذا الأمر كذا؟ **(فذلك)** القول **(عندهم)** أي: الصوفية **(حقيق)** أي: جدير بأن المريد الذي قاله **(لم يفلح)** أي: لم يفز بمقصوده **(إلى يوم بعثة)** أي: يوم القيامة وذلك لأن طريق القوم مبنية على التسليم بخلاف أهل الظاهر وأصحاب الفروع، فيجب البحث والسؤال عما أشكل على التلامذة.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

39	وَلَمْ يَنْتَفِعْ مَا لَمْ يَسِرْ فِي شُهُودِهِ مُرَاعٍ لَهُ مِنْ غَيْرِ مَيْنٍ وَعِلَّةِ

أي: **(ولم ينتفع)** المريد بما تلقاه عن شيخه **(ما لم يسر في)** طريق **(شهوده)** أي: مقام مشاهدته وهو **(مراع له)** بعين الأدب **(من غير)** أن يتلبس في صحبته بـ **(مين)** بفتح الميم، أي كذب وتلوين **(وعلة)** تصحبه من العلل.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

40	وَلاَ يَقْتَرِفْ مَعْنىً شَهِيّاً لِنَفْسِهِ فَإِنَّ حُظُوظَ النَّفْسِ رَأْسُ البَلِيَّةِ

أي: ينهى المريد عن أن **(يقترف)** أي: يطلب **(معنى شهيا لنفسه)**، واقتراف الذنب فعله، فكأن هذا الأمر الذي نهى عن فعله ذنب لأن النفس جبلت على حب الشهوات، والعبد مأمور بملازمة الأدب مع رب البريات، فالنفس تجري في ميدان المخالفة على طبعها. والعبد يردها بلجام الكف عن غوايتها عند جماحها. كما قال البوصيري:

من لي برد جماح من غوايتها كما يرد جماح الخيل باللجم

وقال سيدي جعفر الصادق: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الحالات، كان مغرورا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها، فقد أهلكها. ولذا قال المصنف: **(فإن حظوظ النفس رأس البلية)** يعني: أن تمكين النفس من حظوظها كلذة الجاه وإقبال الخلق **«رأس»** أي: أصل البلية، أي: ما يبتلى به الإنسان، فليزجرها المريد بأشد الزواجر، ويعرض عليها عذاب من يعلم ما في السرائر، وليقتد بأفعال الصالحين، فإنهم كانوا يزجرون نفوسهم كل وقت وحين.

فقد حكي أن شقيق البلخي كان يعاتب نفسه وينصحها، ويقول: يا شقيق لا

تعص الله إلا على حسب ما تطيق من عذابه، واعمل لآخرتك على قدر حوائجك، وطالب بالرزق على قدر مقامك في الدنيا، واعمل لدار لا نفاذ لها فسوف ترى إذا انكشف الغبار.

وحكي أن سعدون المجنون كان يدور في شوارع البصرة، ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [الحج: 1] ثم يبكي ويقول:

فلو لم يكن شيء سوى الموت والبلى ... وتفريق أعضاء ولحم مبدد
لكنت حقيقا يا ابن آدم بالبكا ... على نائبات الدهر مع كل مسعد

وكان إذا اشتد به الجوع أنشأ يقول:

إلهي أنت قد آليت حقا ... بأنك لا تضيع من خلقتا
وأنك ضامن للرزق حتى ... تؤدى ما ضمنت كما قسمتا
وإني واثق بك يا إلهي ... ولكن القلوب كما علمتا

وكان عليه جبة صوف مكتوب على كمها الأيمن سطر:

عصيت مولاك يا سعيد ... ما هكذا تفعل العبيد

وعلى كمها الأيسر سطران:

تبا لمن قوته رغيف ... يأتي به السيد اللطيف
يعصي إلها له جلال ... وهو به راحم رؤوف

ومن خلفه سطران:

كل يوم يمر يأخذ بعضي ... يذهب الاطيبين مني ويمضي
نفسي كفي عن المعاصي وتوبي ... ما المعاصي على العباد بفرض

ومن بين يديه سطران:

أيها الشامخ الذي لا يرام ... نحن من طينة عليك السلام
إنما هذه الحياة متاع ... ثم موت به تساوى الأنام

وعلى عكازه سطران:

اعمل وأنت بذي الدنيا على وجل ... واعلم بأنك بعد الموت مبعوث
واعلم بأنك ما قدمت من عمل ... يحصى عليك وما خلفت موروث

فقيل له: أنت حكيم لا مجنون، فقال: أنا مجنون الجوارح لا مجنون القلب.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

41 | تَزِينُ لَهُ الافْعَال مَعَ قَوْلِهِ وَلاَ يَكُونُ لَهُ مِنْ فِعْلِهِ وَزنُ ذَرَّةِ

يقال: زان الشيء صاحبه زينا من باب سار، وأزانه إزانة، وزينه تزيينا مثله، والزين نقيض الشين، والمعنى أن من شأن النفس أنها **(تزين)** للإنسان **(الأفعال)** الذميمة حتى يراها حميدة في نظره، فهي كالشيطان الذي قال الله فيه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: 24].

وقد روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33] صاح إبليس ودعا بالويل والثبور، فاجتمعت عليه شياطينه، وقالوا له: ما لك؟ قال: نزلت آية لا يضر بعدها ذنب وذكرها لهم فقالوا: أنفتح لهم باب الأهواء وتحسين الأعمال حتى لا يتوبوا ؟ ففرح بذلك.

واعلم أيها المريد أن الشيطان قاسم أباك آدم وأمك حواء أنه لهما لمن الناصحين، وقد رأيت ما فعل بهما، وأما أنت فقد أقسم على غوايتك، حيث قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82] فشمر عن ساعد الجد في الفرار من مكائده، والبعد عن وساوسه ومقاصده، ولله در الإمام البوصيري حيث قال:

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

وقوله: **(مع قوله)** أي: تزين له أن يقول القول القبيح، ويعتقد أنه مليح، أو مع قوله بأن الأفعال التي فعلها مليحة، والحال أنه لا يكون له من فعله الذي زينته له نفسه **(وزن)** أي: زنة **(ذرة)** وهي النملة الصغيرة، وقيل: ما يرى من الهباء في شعاع الشمس، وذلك لأن هذا الفعل الذي زينته له نفسه باطنه خراب، فلا يستحق عليه الثواب.

"**فائدة**": روي أن من أراد أن لا يوفقه الله على قبيح أعماله ولا ينشر له ديوانا، فليدع بهذا الدعاء في دبر كل صلاة، وهو: «**اللهم إن مغفرتك أرجى من**

عملي وإن رحمتك أوسع من ذنبي اللهم إن لم أكن أهلا أن أبلغ رحمتك فرحمتك أهل أن تبلغني لأنها وسعت كل شيء يا أرحم الراحمين» وقد كان الإمام الشافعي ملازما عليه.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

42 | وَيُظْهِرُ مَا يَخْطُرُ عَلَيْهِ لِشَيْخِهِ فَفِيهِ أُمُورٌ كَالشُّمُوسِ الْمُضِيئَةِ

أي: ومن شأن المريد أنه **(يظهر)** أي: يبين كل **(ما يخطر)** بضم الطاء، أي: يمر على قلبه من الخواطر **(لشيخه)** ليميز له الوارد الإلهي من غيره، فإنه كثيرا ما يخطر الشيطان بوساوسه على القلب خصوصا عند الغفلة عن الذكر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: 36] ومعلوم أن الخواطر التي يتحرك القلب لها أربعة أقسام: رباني وملكي وهما يبعثان على مفروض أو مندوب وذلك بطريق الإلهام، ونفساني وهو ما فيه حظ للنفس، وشيطاني وهو ما يدعو إلى مخالفة الحق.

وقد سكن المصنف الراء من «يخطر» لضرورة الوزن، وقوله: **(ففيه)** أي: فيما يخطر على المريد **(أمور)** ظاهرة للشيخ **(كالشموس المضيئة)** فهو الذي يعرف الخواطر ويميز بينها، ويرشد المريد لما يراه مناسبا لحاله، فإن الشيخ يلزم أن يكون من أهل الفراسة، أي: النظر.

وفي الحديث: **«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل»**.

وقال أبو سعيد الخراز: من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق، وتكون مواد علمه من الحق بلا سهو ولا غفلة، بل حكم حق جرى على لسان عبد.

وقال الواسطي: إن الفراسة سواطع أنوار لمعت في القلوب، وتمكين معرفة جلت الأسرار الكامنة في الغيوب، فصاحبها يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق، فيتكلم إذ ذاك على ضمير الخلق.

ومن غريب ما اتفق أن الشيخ محي الدين اللقاني جاء ليأخذ الطريق من سيدي أبي السعود الجارحي فقال:

يظن الناس بي خيرا وإني أشر الناس إن لم تعف عني

بنصب « **الناس**» ففارقه الشيخ اللقاني ساكنا وقال في نفسه: هذا لا يعرف الفاعل من المفعول، ثم إنه رأى رؤيا تدل على رفعة مقام الشيخ فجاءه، فلما رآه الشيخ قال: الصواب رفع الناس، فقال اللقاني الله أكبر، فقال له الشيخ، كيف تطلب الطريق وأنت تفر من نصبه وتأتي برفعه، فتاب واستغفر.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

43 | وَمِنْهُ شُؤُونٌ كَالسُّيُوفِ قَوَاطِعٌ وَفِي كَتْمِهِ حَجْبٌ وَفَقْدُ نَتِيجَةِ

أي: ومن الذي يخطر على قلب المريد **(شؤون)** أي: أمور لها شأن وهي الأحوال التي يكون بها صلاحه، فتكون عند مرورها على القلب **(كالسيوف)** اللامعة ومن صفتها أنها **(قواطع)** للعوائق التي تعوقه عن حسن السير **(وفي كتمه)** أي: وفي كتم المريد وعدم إظهار ما يخطر على قلبه لشيخه **(حجب)** بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم أي: منع له عن الوصول إلى مقام الواصلين، **(وفقد نتيجة)** كانت تظهر له من المقدمات التي يبديها لشيخه فيكون بها من العارفين، غير أنه لا يبدي له إلا ما تكرر ودام من الخواطر وإلا فهي كثيرة جدا.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

44 | وَتَحْسِينُهُ مَا حَسَّنَ الشَّيْخُ ثُمَّ مَا يُقَبِّحْهُ مِنْ بَعْدِ نَصْبِ الأَدِلَّةِ

أي: وفرض على المريد في طريق الصوفية تحسين ما حسنه الشيخ لجزمه بأنه لا يفعل إلا الحسن، ثم تقبيح ما يقبحه لجزمه بأن لا يقبح إلا القبيح في الحقيقة، وإن ظهر للمريد أن الأمر الذي حسنه الشيخ غير حسن بحسب ظاهر الأمر، لأنه ينبغي له أن يحمل أفعال شيخه التي ظاهرها الفساد على نحو من سبعين محملا من الصحة والحسن، فإن الشيخ ربما فعل ذلك مع مريده اختيارا لحاله، وهو معه بالصدق في أفعاله وأقواله، ومن ثم قال الخضر لموسى عليهما السلام: لو صبرت لعلمتك ألف باب من العلم الغامض، وقوله: **(من بعد نصب الأدلة)** معناه أن المريد يلزمه أن يقيم الأدلة على تحسين ما حسنه شيخه، وتقبيح ما قبحه إن كان فيه قوة على ذلك.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

45	وَإِنْ صَارَ يُخْفِي عَنْهُ شَيْئاً فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يَعْصِي عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ

أي: **(وإن صار)** المريد **(يخفي)** أي: يكتم عن شيخه **(شيئا)** مما يرد عليه من الخواطر والأحوال التي تحتاج إلى الكشف عنها **(فإنه بذلك)** الكتمان **(يعصي)** أي: يصير عاصيا **(عند أهل الحقيقة)** أي: الصوفية، لأنه حينئذ يكون كالساعي في إهلاك نفسه، وأما إذا ظهر له ذلك فإنه ينال شفاء أسقامه بمحاسن أدوائه.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

46	بَلِ الوَاجِبُ الْمَشْهُورُ إِيثَارُ أَمْرِهِ وَإِظْهَارُهُ بِالصِّدْقِ دُونَ الْبَرِيَّةِ

(بل) للإضراب والانتقال من أمر لآخر، أي: **(بل الواجب)** لى المريد **(المشهور)** بين القوم **(إيثار)** بكسر الهمزة، أي: تقديم **(أمره)** أي: الشيخ **(وإظهاره)** بين الناس **(بالصدق)** أي: موافقة الظاهر للباطن، بحيث يكون المريد في جميع نوازله الدينية والدنيوية موافق الظاهر للباطن حتى يكون سره وعلانيته سواء ليكون من الصديقين، وقوله: **(دون البرية)** أي: الخلق، بمعنى أن المريد يتبع ما يأمره به شيخه لا غيره من الناس.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

47	وَنَفْيُ خِلاَفٍ وَامْتِثَالٌ لأَمْرِهِ وَإِبْدَاءُ وَارِدْهِ بِصَفْوِ السَّرِيرَةِ

أي: ومن الواجب على المريد **(نفي خلاف)** يقع بينه وبين شيخه **(وامتثال لأمره)** دون منازعة، **(وإبداء)** أي: إظهار **(وارده)** بسكون الدال المهملة لضرورة الوزن، أي: ما يرد عليه من الخواطر **(بصفو السريرة)** أي: السريرة الصافية من التكدير من ذلك، وهذا البيت تأكيد لما تقدم.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

48	وَيُشْهِدُهُ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ عِنْدَهُ مُقِيماً عَلَى حَالَيْ حُضُورٍ وَغَيْبَةِ

أي: ومن الواجب على المريد أنه **(يشهده)** أي: يلاحظ شيخه **(في)** حال **(القرب)** منه **(والبعد)** عنه **(مقيما)** **(عنده)** وقوله: **(على حالي حضور وغيبة)** بفتح اللام تثنية حال وقد ذكره لتتميم البيت، وإلا فهو مستفاد من صدره و«**على**» بمعنى «**في**» وهذه المشاهدة تساعده على الربط القلبي الذي هو أعظم شرط عندهم.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

49	وَإِيثَارُهُ بِالْمَالِ وَالرَّوْحِ بِالرِّضَا وَتَفْوِيضُهُ لِلَّهِ فِي كُلِّ طَرْفَةِ

أي: ومن الواجب على المريد **(إيثاره)** أي: تقديم شيخه **(بالمال)** على نفسه وإفداؤه بـ **(الروح)** في مواطن الهلكات مع تلقي ذلك **(بالرضا)** فإن أول قدم في الطريق بذل الروح، ومن الواجب عليه أيضا **(تفويضه لله)** أي: رده كل أمر لله تعالى مع التبري من الحول والقوة **(في كل طرفة)** عين أي: تحريكها للنظر فإن الله هو الفاعل المختار، ومن فوض إليه الأمر سلم من الأكدار.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

50	وَيَلْزَمُ لُبْسَ الصُّوفِ فَهْوَ شِعَارُ مَنْ تَلَقَّبَ بِالصُّوفِيِّ بَيْنَ الْخَلِيقَةِ

أي: ومن آداب المريد الداخل في طريق القوم أنه **(يلزم)** أي: يلازم **(لبس الصوف)** لما في الحديث: «**عليكم بلباس الصوف تجدوا حلاوة الإيمان**» . وقال صلى الله عليه وسلم: «**براءة من الكبر لباس الصوف ومجالسة فقراء المؤمنين وركوب الحمار واعتقال العنز وأكل أحدكم مع عياله**». وقد كانت الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام يستحبون لباس الصوف، وتبعهم في ذلك من مشى على سنتهم، ولذا قال: **(فهو شعار)** أي: علامة **(من تلقب)** أي: عرف واشتهر **(بالصوفي بين الخليقة)** أي: الخلق فهو منسوب للصوف لكونه ملازما للبسه، وهذا على بعض الأقوال كما تقدم.

وكان الحسن البصري يقول: من لبس الصوف تواضعا لله عز وجل زاده نورا في بصره وقلبه. وكان سيدي أحمد الرفاعي إذا رأى على فقير جبة صوف يقول له: يا ولدي انظر بزي من تزييت وإلى من قد انتسبت، قد لبست لبسة الأنبياء وتحليت بحلية الأتقياء، هذا زي العارفين، فاسلك فيه مسالك المقربين، وإلا فانزعه والسلام.

ثم قال المصنف رضي الله عنه:

51 | وَيَتَّخِذُ الإِبْرِيقَ مِنْ بَعْدِ مِئْزَرٍ وَقَدْ صَحَّ فِي الأَخْبَارِ إِرْخَاءُ عَذْبَةِ

أي: **(و)** من آداب المريد أنه **(يتخذ الإبريق)** ليباشر طهارته بنفسه كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله: **(من بعد مئزر)** بكسر الميم وبالهمزة ويبدل ياء وهو ما يؤتزر به من قطن ونحوه، لما روي أن النبي صلى الله عليه سلم كان يلبس الإزار. وعن أبي بردة قال أخرجت لنا عائشة رضي الله عنها كساء ملبد أو إزارا غليظا، وقالت: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين، وذكر الواقدي أن طول ردائه صلى الله عليه وسلم كان ستة أذرع في ثلاثة أذرع، وطول إزاره أربعة أذرع وشبرين في ذراعين وشبر، وحيث كان النبي صلى الله عليه وسلم متباعدا عن الدنيا وزينتها وراضيا منها بما يستر العورة، فالصوفي التابع لسنته أولى باتباعه في الزهد فيها والتباعد عن زينتها والرضا منها بالكفاف، وقد **(صح)** أي: ثبت **(في الأخبار)** الصحيحة **(إرخاء)** بكسر الهمزة، أي: إسدال **(عذبة)** بين الكتفين وهي بفتحتين وإنما سكنت الذال في البيت للضرورة؛ طرف العمامة، ثم بين مقدارها **بقوله رضي الله عنه:**

52 | وَتَطْوِيلُهَا فِتْراً جَاءَ مُسْنَداً وَلِلنَّاسِ فِي خَيْرِ الْوَرَى خَيْرُ أُسْوَةِ

أي: **(وتطويل)** العذبة مقدار **(فتر)** بكسر الفاء أي: قريبا من شبر ومثله الشبر ونحوه، إلى أن تبلغ ذراعا، فإن ذلك كله **(قد جاء مسندا)** بفتح النون، أي: أسند الراوي على اختلاف الطرق والأحوال إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وقد سئل ابن عمر كيف يعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: كان يدير كور العمامة على